بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأحد، الحمد لله الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. والصلاة والسلام على خير خلقه، وخاتم رسله محمد، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به، وعزَّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عمَّن دعا بدعوتهم، واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(وبعد)

فهذا كتاب يتضمن كلماتٍ وأبحاثًا تتعلق بما سماه القرآن الكريم والسنة النبوية: (أسماء الله الحسنى)، والتي قال فيها الله تبارك وتعالى: **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأعراف:180]. وقال تعالى: **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الإسراء:110].

والحقيقة أني كنتُ أريد أن أكتبَ صفحاتٍ معدودةً، عن صفات الرحمن وأسمائه سبحانه وتعالى، أضمُّها إلى ما أريد تكميله من كتاب (الإيمان)، أو كتاب (عقائد الإسلام)، الذي كتبتُ فيه أبوابًا أو فصولًا متعددة، ظهرت في صورة كُتَيِّبات أو رسائل من زمن بعيد، بعضها عن (وجود الله)، وبعضها عن (التوحيد)، وبعضها عن (القدر)، ونحو ذلك من البحوث الجزئية. ولكني كنتُ أريد أن يكون لي كتاب كامل في علم التوحيد، أو في دراسة العقيدة الإسلامية، التي درسناها في مراحل الأزهر كلها: دراسةً كان لي عليها ملاحظات في نهجها وأسلوبها ومصادرها، درسناها في المرحلة الابتدائية من مذكرات المشايخ، وفي المرحلة الثانوية درسنا شرح منظومة جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني المالكي (ت: 1041هـ).

وفي كلية أصول الدين، توسعنا في الدراسة، ودرسنا كتاب العقائد النسفية، لمؤلفها الحنفي العلامة لنجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي (ت: 537هـ)، وشرحه لسعد الدين التفتازاني (ت:791)، وحواشيه الثلاثة: للخيالي (ت: حوالي: 862هـ)، وللعصام (ت: 945هـ)، ولعبد الحكيم السيالكوتي (ت: 1067هـ)،

وأضيف في دراستنا في كلية أصول الدين: فصولًا من (شرح المواقف) للعلامة الشريف الجرجاني (ت: 816 هـ).

لقد تعبنا في فهم شروحها وحواشيها، والوقوف على مقاصدها، والتعقيب عليها، والردود على التعقيبات، والردود على الردود، وهو جهد ذهني معقَّد ومجهد، وقد أخذنا فيه من الدرجات والعلامات ما أقنعنا في تلك الأيام بجدوى بحوثنا أو اجتهادنا بأقصى ما يمكننا.

ولكنْ في الواقع، لم تنفعنا بحوثنا ودراساتنا، ومناقشاتنا الطويلة والمُمِلَّة، في تحصيل الإيمان الحقيقي لأنفسنا، أو في دعوة غيرنا إليه، إذا أردنا أن ندعو الآخرين في عصرنا إلى الإيمان.

كنتُ أريد أن أتحدث عن صفات الله تعالى وأسمائه، التي يجب على المسلم أن يعرفها، إذا أراد أن يتعلم التوحيد من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن أكابر أصحابه المعلِّمين الهُدَاة، ومن أتباعهم، وأتباعهم إلى ما شاء الله. وأن أضيف إليها كل ما يتعلق بالعقائد الإسلامية، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي الخمسة التي ركز عليها القرآن. وأضافت إليها السنة سادسًا، وهو الإيمان بالقدر، وهو في الحقيقة جزء من الإيمان بالله تعالى.

ولكنْ نَدَّ بي القلم، وتوسعتُ في الكتابة عن الموضوع بأكثر مما توقعت، ولذلك رأيت أن أعزله وحده، في صورة كتاب، وأكتفي به بهذا الاسم المبين (أسماء الله الحسنى) من كتابه، وما صحَّ عن نبيه.

ونكتفي في مقدمة كتابنا بهذا القدر، ونُكمِل الموضوعَ كلَّه في الكتاب الذي بين أيدينا، وإن كنا لا نريد أن نوسِّع القول فيه، على ما يريده بعض إخواننا، فإن مجال القول ذو سعة، وحسبنا أن نتوسط ونقتصر، ولا نطيل الطول المُمِلَّ، كما لا نقتصر الاقتصار المُخِلَّ. وندعو الله تبارك وتعالى، أن يهدينا إلى المنهج السليم، والصراط المستقيم.

وقد اختلف المسلمون: هل أسماء الله تعالى توقيفية أم غير توقيفية؟

والواقع أن المسلمين توسعوا في أسماء الله تعالى, فسمَّوا أبناءهم بأسماء ليست في التسعة وتسعين المروية في سنن الترمذي، مثل: عبد الموجود, وعبد المعبود,

وعبد المقصود, وعبد المحسن، وعبد المولى، وعبد المعطي, وحرَّفها بعضها, فقال: عبد العاطي.

وسمَّى كثير منهم أبناءهم بالأسماء التي ذكرت من الأسماء التسعة وتسعين، مما رواه الترمذي[1] وغيره, وهو حديث لم تثبت صحته, ومنه أسماء معروفة كثيرة, مثل: أسماء القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، الضار النافع.

وقد سمى المسلمون أسماءهم بالقسم الإيجابي دون غيره، فسمَّوا عبد الباسط، وعبد الرافع، وعبد المعطي، وعبد المعز، دون ما يقابلها، فلم يسموا عبد القابض ولا عبد الخافض ولا عبد المذل... إلخ.

ومن المسلمين من عبَّدوا أسماء أبنائهم لغير الله تعالى, كالذين سموا أبناءهم: عبد الرسول, أو عبد النبي, أو عبد الحسين, أو عبد علي، أو عبد محمد.. أو نحو ذلك.

وهو شبيه بمن سمَّوا أبناءهم: عبد المسيح، من النصارى. ومن ذلك أن بعض الأعاجم أضافوا كلمة (غلام) بدل كلمة (عبد) مثل: غلام محمد، وغلام أحمد، وغلام علي، وغلام الحسين، وغلام يغوث.. ونحو ذلك.

وكل هذه التسميات محرمة، فلا تجوز تسمية فيها تعبيد إلا لله، كعبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الملك، وعبد العزيز... وما شابهها من أسماء الله، واستثنوا من ذلك: عبد المطلب، فقد تسمى به المسلمون، ونسبوا إليه، وسكت على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة، ومن اتبعهم بإحسان.

ولعلماء العقائد والتفسير بحوث طويلة ومستفيضة حول أسماء الله تعالى, وما يجوز إطلاقه منها على الله تبارك وتعالى, وما لا يجوز, ولهم في ذلك تفصيلات وتدقيقات وتشقيقات, لا نريد أن ندخل فيها, ونتوسع ونحن نكتب إضاءات لهذا البحث.

---

[1] - هو الحديث رقم 3507، الذي رواه الترمذي في أبواب الدعوات. وقال الترمذي عقبه: هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح: وهو ثقة عند أهل الحديث.
وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.
وقد روى آدم بن أبي إياس، هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح.

وحسبنا أن نذكر هنا شيئًا مما ذكره العلماء الكبار المحقِّقون في تفسير قوله تعالى: **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأعراف:180]. ففي هذه الآية تنبيه للمؤمنين على اختصاص الله تعالى بالأسماء الحسنى, فيجب عليهم أن يدعوه تعالى بها, كما قال الإمام الغزالي وغيره من أن الأسماء الحسنى هي الكاملة. فالحسنى: تأنيث الأحسن, أفعل تفضيل, ومعنى ذلك: أنها أحسن الأسماء, وأجلَّها, لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

{فَادْعُوهُ بِهَا} من الدعوة بمعنى: التسمية, كقولهم: دعوت ابني زيدًا أو عَمْرًا. أو من الدعاء بمعنى النداء: كقولهم: دعوت زيدًا أي: ناديته.

ثم قال تعالى: **{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}** (والإلحاد في أسمائه سبحانه أن يسمى بما لا توقيف فيه، أو بما يوهم معنى فاسدًا، كما في قول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سخي.. ونحو ذلك، فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به، على زعمهم، لا أسماؤه تعالى حقيقة.

ومن فسَّر الإلحاد في الأسماء بما ذُكِر، ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية، يُراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه، وإن صحَّ معناه.

وبهذا صرح أبو القاسم القشيري في (مفاتيح الحجج ومصابيح النُّهَج).

وفي (أبكار الأفكار) للعلامة الآمدي: ليس مأخذ جواز تسميات الأسماء الحسنى دليلًا عقليًّا، ولا قياسًا لفظيًّا، وإلا لكان تسمية الرب تعالى فقيها عاقلًا، مع صحة معاني هذه التسميات في حقه، وهي العقل والفقه؛ أولى من تسميته سبحانه وتعالى بكثير مما يشكل ظاهره، بل مأخذ ذلك إنما هو الإطلاق والإذن من الشارع، فكل ما ورد الإذن به منه، جوَّزناه، وما ورد المنع منه، منعناه، وما لم يوجد فيه إطلاق ولا منع، فقد قال بعض أصحابنا بالمنع منه، وليس القول بالمنع مع عدم وروده أولى من القول بالجواز مع عدم وروده؛ إذ المنع والجواز حكمان، وليس إثبات أحدهما مع عدم الدليل أولى من الآخر، بل الحق في ذلك هو الوقف، وهو أنَّا لا نحكم بجواز

ولا منع، والمتَّبع في ذلك كله الظواهر الشرعية، كما هو المتَّبع في سائر الأحكام، وهو أن يكون ظاهرًا في دلالته، وفي صحته، ولا يشترط فيه القطع، كما ذهب إليه بعض الأصحاب، لكون المنع والجواز من الأحكام الشرعية، والتفرقة بين حكم وحكم في اشتراط القطع في أحدهما دون الآخر، تحكم لا دليل عليه. انتهى)[1].

ونكتفي في مقدمة كتابنا بهذا القدر، ونكمل الموضوع كله في الكتاب الذي بين أيدينا، وإن كنا لا نريد أن نوسع القول فيه، على ما يريده بعض إخواننا، فإن مجال القول ذو سعة، وحسبنا أن نتوسط ونقتصر، ولا نطيل الطول المُمِلَّ، كما لا نقتصر الاقتصار المُخِلَّ.

وندعو الله تبارك وتعالى، أن يهدينا إلى المنهج السليم، والصراط المستقيم.

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

جمادى الأولى 1436هـ.

مارس 2015م.

[1] - روح المعاني الآلوسي.

(1)

بحوث وإضاءات حول أسماء الله تعالى الحسنى

ما ذكره ابن كثير:

قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ِ{ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [الأعراف:180].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وَتْر يحب الوتر"[1].

أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه.

ورواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد به.

وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: "يحب الوتر": "هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفَّار، القهَّار، الوهَّاب، الرزَّاق، الفتَّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزُّ، المُذِلُّ، السميع، البصير، الحَكَم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور"[2].

1

2

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد رُوِي من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء، إلا في هذا الحديث.

ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق صفوان، به.

وقد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعًا، فسرد الأسماء، كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عوَّل عليه جماعة من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مُدْرَج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم: أنهم قالوا ذلك. أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي، والله أعلم.

ثم ليُعْلَمْ أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أصاب أحدًا قطُّ هَمٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكْمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب اللهُ همَّه وحُزنَه، وأبدله مكانه فرحًا". فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: "بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها"[1].

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البُسْتي في صحيحه بمثله[2].

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر ابن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: (الأحوذي في شرح الترمذي): أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم)[3].

1

2

3 - تفسير القرآن العظيم، صـ 965، 966.

وقد نقل الآلوسي أنه قال بعد ذلك: وهذا قليل. قال: وهو كما قال. قال الآلوسي: وعن بعضهم: أنها أربعة آلاف. وعن بعض الصوفية: أنها لا تكاد تحصى[1].

كلام ابن الوزير حول أسماء الله الحسنى:

بعد أن أنهى الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير الحسني اليمني الصنعاني: القسم الأول من كتابه (إيثار الحق على الخلق): شرع في القسم الثاني وتحدث فيه عن (المهم من المسائل العقدية التفصيلية)، ومنها ما يتعلق بالأسماء الحسنى،

قال: (المهم الأول: مقام معرفة كمال هذا الرب الكريم، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى.

وذلك من تمام التوحيد الذي لا بد منه؛ لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ونعوتها الشريفة، ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم، ولذلك عُدَّ مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها من أعظم مكايدهم للإسلام؛ فإنهم عكسوا المعلوم عقلًا وسمعًا، فذمُّوا الأمر المحمود، ومدحوا الأمر المذموم، القائم مقام النفي والجحد المحض، وضادُّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة، قال الله جل جلاله: **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}** [الأعراف:180]. وقال سبحانه وتعالى: **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الإسراء:110]. فما كان منها منصوصًا في كتاب الله وجب الإيمان به على الجميع، والإنكار على من جحده، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه، وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صِحَّتَه، وما نزل عن هذه المرتبة أو كان مختلَفًا في صِحَّته، لم يصح استعماله، فإن الله أجلُّ من أن يُسمَّى باسم لم يُتحقَّق أنه تسمَّى به.

وعادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء، ولا ينبغي ترك شيء منها، ولا اختصاره، فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم، ولو كان منها شيء لا ينبغي اعتقاده ولا ذِكْره، ما ذكره الله تعالي في القرآن العظيم.

---

[1] - روح المعاني ( )

وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها، مع الاختلاف الشهير في صحَّته[1]، وحَسْبُكَ أن البخاري ومُسلمًا تركا تخريجه مع رواية أوله[2]، واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العِلَّة فيه[3]، كما أوضحته في (العواصم)[4]، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرُّضًا لفضل الله العظيم في وعده من أحصاها بالجنة- كما اتُّفِق على صحته- وليس يستيقن إحصاؤها بذلك، إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء. فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تُحصى، بطل اليقين بذلك، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله، وما اتُّفِق على صحته بعد ذلك، وهو النادر، كما يأتي.

وقد ثبت أن أسماء الله تعالي أكثر من ذلك المروي بالضرورة والنص: أما الضرورة، فإن في كتاب الله أكثر من ذلك- كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى- وأما النص، فحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول صلى الله عليه وسلم)[5].

ابن الوزير يختار من الأسماء الحسنى مائة وخمسة وخمسين بالنص الصريح:

قال ابن الوزير: (وثبت أن حصر الأسماء التسعة والتسعين لا يُنال إلا بتوفيق الله تعالى، كساعة الإجابة يوم الجمعة؛ لأنها مُجمَلة في أسماء الله، فلنذكر هنا ما وجدناه منصوصًا من الأسماء في كتاب الله باليقين من غير تقليلد؛ فإنها أصحُّ الأسماء وأحبها إلى الله تعالى، حيث اختارها في أفضل كُتُبه لأفضل أنبيائه.

والذي عرفت منها إلى الآن بالنص صريحًا دون الاشتقاق في القرآن: مائة وخمسة وخمسون، غير الممادح السلبية- كما سيأتي- وفيها اسم واحد بالمفهوم المعلوم، وهو الأعز، ذكره ابن حجر في تلخيصه، ولم أجده بنصه، فذكرته فيها، ولم أحسِبه في العدد المذكور، وهو أَخَذَه من قوله تعالى: {وَلله الْعِزَّةُ

1 - انظر: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر 172/4. فقد استوفى الكلام على هذا الحديث.
2 - انظر: صحيح البخاري كتاب التوحيد 169/8، وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء 2063/4.
3 - قال في المستدرك عند إيراده للحديث: هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله، وذكر الأسامي فيه، ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة؛ فإني لا أعلم اختلافا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب.
4
5 - إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، للوزير الصنعاني صـ 395-397.

وَلِـرَسُولِـهِ وَلِـلْمُؤْمِـنِـيـنَ} [المنافقون:8]، جوابًا على قول المنافقين: {لَـيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِـنْـهَـا الْأَذَلَّ} [المنافقون:8].

وهي هذه، وهي الاعتقاد متى سألَ عنه سائلٌ:

هو الله، الذي لا إله إلا هو إلا هو، الإله، الصمد، الواحد، الأحد، الرحمن، الرحيم، ذو الرحمة الواسعة، أرحم الراحمين، خير الراحمين، العفو، الغفور، الغافر، الغفار، واسع المغفرة، أهل التقوى وأهل المغفرة، خير الغافرين، الحاكم، الحَكَم، الحكيم، الأحكم، أحكم الحاكمين، خير الحاكمين، العالم، العليم، الأعلم، علَّام الغيوب، الرب، البرُّ، الواسع، الموسِع، الملك، المليك، المالك، مالك الملك، الرازق، الرزاق، خير الرازقين، الخالق، الخلَّاق، أحسن الخالقين، الناصر، نعم النصير، خير الناصرين، الحافظ، الحفيظ، خير الحافظين، القوي، الأقوى، ذو القوة، المتين، العليّ، الأعلى، المتعال، القادر، القدير، المقتدر، نعم القادر، العزيز، الأعز، الشاكر، الشكور، قابل التوب، التواب، المجيب، القريب، الأقرب، الحي، القيوم، القائم على كل نفس بما كسبت، الفاعل، الفعَّال لما يريد، الوارث، خير الوارثين، الكريم، الأكرم، فالق الإصباح، فالق الحب والنوى، العظيم، الأعظم، الولي، نعم المولى، الشاهد، الشهيد، الكبير، الأكبر، القاهر، القهَّار، نعم القادر، نعم الماهد، الكفيل، نعم الوكيل، المستمع، السميع، البصير، البديع الرؤوف، الحليم، الرشيد، السريع، المبين، الخبير، المُبْرِم، الغني، الحميد، المجيد، الوهاب، الجامع، المحيط، الكافي، الحسيب، الحاسب، المُقيت، الرقيب، كاشف الضر، الفاطر، الكاتب، المبتلي، اللطيف، الصادق، الحق، الودود، الحفيُّ، المستعان، الفاتح، الفتَّاح، نور السماوات والأرض، الهادي، رفيع الدرجات، الرافع، المنتقِم، الزارِع، المُنْزِل، المنشئ، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، القدوس، السلام، المؤمن، المهيْمن، الجبَّار، المتكبِّر، البارئ، المصوِّر، مُخْرِج الحيِّ من الميت، ومخرج الميت من الحي، جاعل الليل سكنًا، المنذر، المرسل، خير الفاصلين، أسرع الحاسبين، خير المنزلين، عدو الكافرين، ولي المؤمنين، خير الماكرين، المتمُّ نورِه، الغالب على أمره، البالغ أمرِه، ذو الطَّوْل، ذو المعارج، ذو الفضل، العظيم، ذو العرش العظيم، ذو الانتقام، ذو الجلال والإكرام.

انتهى ما عرفته من الأسماء الحسنى، نفعنا الله بها وببركاتها، وهي مائة ونيف وخمسون).

أقول (القرضاوي): لم يذكر: عالم الغيب والشهادة، العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، الذي له الأسماء الحسنى، الذي خلق الأرض والسماوات العلا، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرَى.

حرص ابن الوزير على تركه التكرار:

قال ابن الوزير: (وقد تركت التكرار، فاكتفيتُ باسم الرب عن رب كل شيء، ورب العالمين، ورب العزة، ورب العرش العظيم، ورب الملائكة والروح، واكتفيت بالواسع عن واسع المغفرة، وواسع كل شيء رحمة وعلمًا.. ونحو ذلك.

وتركت ما كان من صفات أفعاله وأسمائه؛ مثل شديد العقاب، وسريع الحساب.. ونحو ذلك؛ لأنه لم يسمِّ نفسه بها، ولا علمتُ أحدًا عدَّها في أسمائه، بل عُدَّت في أفعاله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قوله: **{ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** [المائدة:2، الحشر:7]، وبين قوله: **{ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }** [الحج:2]. فتأمل ذلك.

وذكر الغزالي في المقصد الأسنى: أن ما كان يُطلق على العباد من أسمائه تعالى على جهة الحقيقة مثل الزارع والكاتب؛ لم يطلق على الله مجردًا، بل يطلق حيث أطلقه على لفظه، مع ما يتعلق به من السياق، وهذا حيث يُخاف اللبس والتشبيه واجبٌ، وحيث يُؤمَنُ أدبٌ حسنٌ واحتياط جيد، والله سبحانه أعلم)[1].

ثم قال رحمه الله تعالى: (ومما ينبغي تلاوته لمن تعرض لرحمة الله سبحانه في فضل إحصاء التسعة والتسعين اسمًا: الحروف المقطعة في أوائل السُّوَر احتياطًا؛ لأنه قد قيل: إنها أسماء الله تعالي، أو رمز إلى أسماء شريفة[2]. ولم يصح، وليس هذا موضعها، لعدم صحة ذلك، وإنما ذكرتُ ذلك إرشادًا لمن يحب الفائدة.

ما صح من الأسماء في السنة:

---

[1] - إيثار الحق صـ399-402.

[2] - انظر ذلك في تفسير القرطبي 155/1 وما بعدها ، ط دار الكتب.

وليس في الصحيحين مما ليس في كتاب الله تعالى، إلا المقدِّم والمؤخِّر، في حديث ابن عباس في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم حين يقوم من الليل والوتر[1].

منهما أيضًا من حديث أبي هريرة الذي سُرِدَت الأسماء الحسني في آخره[2].

وزاد ابن حزم مما ادَّعى صحتَه: السيد، السُّبُّوح، الحق، الوتر، الدهر، المسعِّر، المحسن، المِحْسَان، الجميل، الرفيق، الشافي، المعطي. ولم ينسبها إلي حديث أبي هريرة، لكن تتبعها من أحاديث متفرقة[3]، وكذلك الطبيب خرَّجه أبو داود[4] والترمذي[5] والنسائي، بإسناد علي شرط الشيخين، لكن قال الترمذي: إنه غريب من حديث عبد الله بن إياد عن أبي رِمْثة الصحابي مرفوعًا.

ومنها: مقلِّب القلوب. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُقسم به[6]. وزاد الترمذي في الحديث المختلَف فيه ممَّا لم أجده بنصه في القرآن خمسة وعشرين اسما، وهي: القابض، الباسط، الخافض، المعز، المذل، العدل، الجليل، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الواجد– بالجيم– الماجد، المقدِّم، المؤخر، الوالي، المقسط، المغني، المانع، الضار، النافع، الباقي، الرشيد، الصبور[7].

وزاد ابن ماجه علي الترمذي في حديث أبي هريرة هذا: الراشد، البرهان، الواقي، القائم، الناظر، السامع، الأبد، العالم، المنير، التامّ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد[8].

وفي إطلاق بعض هذه نظر، مع عدم صحة الإسناد.

وزاد الحاكم علي الترمذي في المستدرك في هذا الحديث المختلَف فيه بعينه: الحنَّان، المنَّان، الدائم، الجميل، القديم، الوتر، المدبِّر، الشاكر، الرافع. وزاد عليه

---

[1] - انظر: صحيح البخاري: كتاب الدعوات 148/7، وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين 536/1.

[2] - الحديث رواه الترمذي في سننه في كتاب الدعوات 173/9 ط مطابع الفجر. وقد ذكر في الحاشية أنه تفرد به الترمذي. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب، حدثنا بع غير واحد عن صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث .

[3] - انظر: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر 173/4، فقد ذكر ذلك.

[4] - سنن أبي داود: كتاب الزينة 140/8 ط المطبعة المصرية، ولكنه ذكر أول الحديث فقط.

[5] - لم يورد الحديث الترمذي، وإنما ذكر حديث: "غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود" وفي الباب عن الزبير وابن عباس وجابر وابي ذر وأنس وأبي رمثة. وفي الحاشية ذكر أن الحديث رواه أبو داود والنسائي، ولم يذكر أن الترمذي رواه.

6 - رواه البخاري في كتاب التوحيد (169/8)، والترمذي في كتاب النذور (113/4)، وابن ماجه في الكفارات (676/1)، ورواه الإمام مالك في الموطأ: في كتاب النذور (480/2)، ورواه أحمد (26/2). وحديث البخاري: عن عبد الله قال: أكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحلف: "لا ومقلب القلوب".

[7] - سنن الترمذي، كتاب الدعوات (173/9) ط مطابع الفجر.

[8] - انظر: سنن ابن ماجه كتاب الدعاء 1270/2. وسنن الترمذي كتاب الدعوات 530/5.

أيضًا مما في القرآن: الإله، الرب، الفاطر، المليك، المالك، الأكرم[1]. وذكرتُ الرفيع فيها؛ إذ لم يجعله، مثل رفيع الدرجات.

وفي حديث آخر: "إن الله المسعِّر"[2]. رواه الخمسة إلا النسائي، وصحَّحه الترمذي من حديث أنس[3]، ذكره صاحب (المنتقي) في التسعير[4].

وفي البخاري ومسلم منها: الوتر، المقدم، المؤخر[5].

وفي مسلم منها: الرفيق[6].

وصحَّح ابن ماجه منها: السيِّد، السُّبُّوح، الجميل، المِحْسان، المسعِّر، القابض، الباسط، الشافي، المعطي، الدهر[7]. قال ابن ماجه بعد سردها: ثم قال زهير: وبلغنا عن غير واحد من أهل العلم أن راويها يفتتح بقول: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى.

وأكثر هذه أو كثير منها صحيح المعنى بالإجماع، فلا بأس بإلحاق المجمع عليه منها بما في القرآن، لما تقدم في حديث ابن مسعود من قوله صلى الله عليه وسلم: "أو علَّمتَه أحدًا من خلقك".

الأسماء المشتقات من الأفعال الربانية الحميدة:

وأما المشتقات من الأفعال الربانية الحميدة، فلا تُحصى، وقد جمع بعضهم منها ألف اسم، مثل: كاتب الرحمة على نفسه، المحمود، العادل، المعبود، المُحْكِم، المُنْعِم، متمُّ النِّعْمة، المُطعِم، المقدِّر، القاضي، المدبِّر، الحق، الشافي، الباري، الماحي، المُثَبِّت، المؤيِّد، الكافي، القاسم، العاصم، القاصم، الدافع، المُدافع، المُمْلِي، الآخِذ، المُجير، المُزَكِّي، الموفِّق، المصرِّف، المُمَكِّن، مقلِّب الليل والنهار، الصانع، الواقي، المتكلِّم، المريد، المرجوُّ، المَخُوف، المَخْشِيّ، المرهوب، السابق، الديَّان،

---

[1] - المستدرك للحاكم (17/1) ط المطبوعات الإسلامية.

[2] - رواه ابن ماجه في كتاب التجارات (741/2). ورواه أبو داود في كتاب البيوع 244/2 من حديث أنس ط الحلبي، ورواه الدرامي في كتاب البيوع 165/2. وقال في تخريج الدارمي في نفس الكتاب: رواه أيضا أحمد وأبو داود والترمذي وصححه ابن ماجه والبزار وأبو يعلى وإسناده على شرط مسلم وصححه ابن حبان. انظر: المنتقى من أخبار المصطفى، لابن تيمية 353/2، حيث قال رواه الخمسة إلا النسائي وصححه الترمذي.

[3] - سنن الترمذي 352/2، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

[4] - المنتقى من أخبار المصطفى صلى الله عليه وسلم، للمجد ابن تيمية 352/2، 353 ط المكتبة التجارية، مصر.

[5] - انظر: صحيح البخاري كتاب التهجد 42/2، والدعوات 169/2، وصحيح مسلم كتاب الذكر 2063/4، 2078.

[6] - صحيح مسلم كتاب الإسلام 1722/4. ورواه البخاري في كتاب المرض 10/7.

[7] - انظر سنن ابن ماجه كتاب الدعاء 1269/2 ط دار إحياء الكتب.

المُستجار، المستعاذ، المَعاذ، المَلْجأ، المُنْجِي، المُنَجِّي. ولو ذكر منها ما كان من خواص الربوبية كان حميدًا، وذلك مثل: المحيي المميت، خاصة ما جاء في القرآن صلة للذي ونحوه؛ كقول الخليل عليه السلام: **{وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}** [الشعراء:81]؛ لأن الموصول وصِلَتُه في حكم الواحد. والله أعلم.

وأما أنواع الثناء من غير اشتقاق من ألفاظ القرآن فلا تُحصَى، مثل: قديم الإحسان، دائم المعروف، المستغاث، المأمول.. وأمثال ذلك، ممَّا لا منع لما أُجْمِع عليه منه، والظاهر جواز هذين النوعين؛ لأنهما من الأخبار الصادقة، والله أعلم، وذلك فيما كان مُجمعًا عليه على أنه حسنٌ لا قبح فيه، وثناء جميل لا ذمَّ فيه، ولا تمثيل، ولا تشبيه، وإلا فالاقتصار على المنصوصات عند الاختلاف لازم، وهو موضوع الكتاب.

الممادح السلبية في شأنه تعالى:

وأما الممادح السلبية في كتاب الله تعالى، فاعتقادها لازم، وإن لم تكن أسماء في عُرْف أهل العربية، لكنها نعوت حق واجبة بنص القرآن لله تعالى، وذلك مثل قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى:11]. **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [الإخلاص:4]. وليس له سَمِيٌّ، فإنه معلوم من قوله تعالى: **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}** [مريم:65]. وأنَّ العباد **(لا يحيطون به علمًا)**، كما قال في سورة طه[1]، بل **{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}** [البقرة:255]. وإنما استثنى في معلوماته المخلوقة، وأما في ذاته المقدسة العزيزة، فأطلق النفي، ولم يستثنِ أحدًا ولا شيئًا، ولو كان يريد أن يختص أحدًا بذلك، لاستثناه كما استثنى من الإحاطة بعلمه عز وجل.

ومن ذلك أنه **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}** [الأنعام:103]. وأنه **{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}** [البقرة:255]. وأنه **{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}** [البقرة:255]. وأنه خلقهما في ستة أيام وما مسَّه من لغوب[2]، وأنه **{لَيْسَ**

---

[1] - يعني قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} **[طه:110].**

[2] - كما في الآية 38 من سورة ق، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} .

بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [آل عمران:182]. وأنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها[1].. وما في معناها، ولا يريد بنا العسر[2]، وما جعل علينا في الدين من حرج[3]، وأنه لا يجوز عليه اللعب والعبث وخلو أفعاله عن الحكمة، لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [الدخان:38]. وقوله: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:191]. وأمثال هذه الآيات في حكمته في خلق الأرَضَين والسماوات، وأنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر[4]، ولا يحب الفساد[5]، ولا يُبدَّل القولُ لديه تبديلًا قبيحًا[6]، بخلاف التبديل الحسن، لقوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} [النحل:101]. ولآيات النسخ، وأنه لا يخلف الميعاد، وأنه تعالى يجير ولا يجار عليه، ويطعم ولا يطعم، وأنه لا شريك له في الملك، ولا ولي له من الذل. وأن هذه الآيات دلَّت على ما أجمعت عليه الأمة إجماعًا ضروريًّا، وعُلِم من الدين علمًا ضروريًّا: أنه تعالى منزَّه عن كل نقص وعيب، مما يقع في أسماء المخلوقين، سواء كان من أسماء الذم لهم، كالظلم واللعب والجهل، أو من أسماء النقص فيهم، كالفقر والضعف والعجز، وسائر ما يجوز على الأنبياء والأولياء وأهل الصلاح.

وأما أسماء المدح التي تطلق على العباد على وجوه تستلزم النقص، وتطلق على الله تعالى على وجوه تستلزم الكمال، وهي صفات العلم والقدرة والرحمة والحياة.. ونحو ذلك، فإنها تطلق على الله تعالى على جهة الكمال، كما أطلقها مجردة عن نقائص المخلوقين التي تعرض فيها بأسباب تخصهم دونه تعالى، فهذا هو اعتقادنا، واعتقاد أهل الحق، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله رب العالمين)[7].

الاختلاف بين الاسم والمسمَّى:

---

[1] - كما في الآية 286 من سورة البقرة، {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}
[2] - كما في الآية 185 من سورة البقرة، {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}
[3] - كما في الآية 78 من سورة الحج، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}
[4] - كما في الآية 7 من سورة الزمر، {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}
[5] - كما في الآية 205 من سورة البقرة، {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}
[6] - كما في الآية 29 من سورة ق، {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}
[7] - إيثار الحق صـ 399 – 412.

قال القرطبي في تفسيره لآيةِ {وَللّه الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا . . } [الأعراف:180]: (اختلف العلماء من هذا الباب في الاسم والمسمَّى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك في (الكتاب الأسنى)[1].

قال ابن الحصار: وفي هذه الآية وقوع الاسم على المسمَّى ووقوعه على التسمية. فقوله: {وَللّه} وقع على المسمَّى، وقوله: {الأَسْمَاء} وهو جمع اسم واقع على التسميات. يدل على صحة ما قلناه قوله: {فَادْعُوهُ بِهَا}. والهاء في قوله: {فَادْعُوهُ} تعود على المسمَّى سبحانه وتعالى، فهو المدعوُّ. والهاء في قوله: {بِهَا} تعود على الأسماء، وهي التسميات التي يدعى بها لا بغيرها، هذا الذي يقتضيه لسان العرب.

ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد.." الحديث[2]. وقد تقدَّم في البقرة شيء من هذا. والذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمَّى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية.

كلام ابن العربي:

قال ابن العربي عند كلامه على قوله تعالى: {وَللّه الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا . . }: فيه ثلاثة أقوال:

الأول: قال بعض علمائنا: في ذلك دليل على أن الاسم هو المسمَّى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى.

الثاني: قال آخرون: المراد به التسميات؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع.

قلت: ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعًا من المتأولين لا يجوز غيره[3]. وقال القاضي أبو بكر في كتاب التمهيد[4]: وتأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة"[5]. أي: إن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق

1

2 - رواه أحمد 16734، والبخاري 3532، ومسلم 2354، من حديث جبير بن مطعم.

3 - المحرر الوجيز 480/2.

4 - تمهيد الأوائل صـ 263.

5

به، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هي هو، وما تعلق بصفة له فهي أسماء له. ومنها صفات لذاته. ومنها صفات أفعال. وهذا هو تأويل قوله تعالى: **{وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا..}** أي: التسميات الحسنى.

الثالث: قال آخرون منهم: ولله الصفات.

وسمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى؛ لأنها حسنة في الأسماع والقلوب، فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله. والحُسنى مصدر وُصِفَ به. ويجوز أن يقدَّر الحسنى (فُعْلى)، مؤنث الأحسن، كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبَر والحُسَن.

وعلى الأول أُفْرِد كما أُفْرِد وصفُ ما لا يعقل، كما قال تعالى: **{مَآرِبُ أُخْرَى}** [طه:18]. و **{يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ}** [سبأ:10].

دعاء الله بأسمائه الحسنى:

وقوله تعالى: **{فَادْعُوهُ بِهَا}** أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم، ارحمني. يا حكيم، احكم لي. يا رازق، ارزقني. يا هادي، اهدني. يا فتَّاح، افتح لي. يا توَّاب، تُب عليَّ.. هكذا.

فإن دعوتَ باسم عام، قلتَ: يا مالك، ارحمني. يا عزيز، احكم لي. يا لطيف، ارزقني. وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت: يا الله. فهو متضمن لكل اسم. ولا تقول: يا رزاق، اهدني. إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير.

قال ابن العربي: وهكذا، رتِّب دعاءك تكن من المخلصين... والحمد لله.

وأدخل القاضي أبو بكر بن العربي عدة من الأسماء في أسمائه سبحانه، مثل متم نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيب، والمعلم، وأمثال ذلك[1][2].

الإلحاد في أسماء الله تعالى والتحذير منه:

---

[1] - في أحكام القرآن 2/796-797، 799، 408. ولم نقف على ذكر المعلم من أسمائه تعالى. ولعله في كتاب (الأمد الأقصى) الذي أشار إليه في أحكام القرآن 2/803. وهو مأخوذ من قوله تعالى: **{عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}** [العلق:4]. وقوله: **{عَلَّمَ الْقُرْآنَ}** [الرحمن:2]. وقوله: **{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}** [النساء:113]. وقوله: **{وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}** [المائدة:110].

[2] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 392-394، بتصرف يسير

قال القرطبي: (قوله تعالى: **{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأعراف:180]. فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: **{يُلْحِدُونَ}**. الإلحاد: الميل وترك القصد. يقال: ألحد الرجل في الدين، وألحد إذا مال، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه في ناحيته. وقرئ **{يَلْحَدُونَ}**[1]. لغتان.

والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: بالتغيير فيها، كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسمُّوا بها أوثانهم، فاشتقوا (اللات) من (الله)، و(العُزَّى) من (العزيز)، و(مناةَ) من (المنان). قاله ابن عباس وقتادة[2].

الثاني: بالزيادة فيها.

الثالث: بالنقصان منها، كما يفعله الجهَّال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما يَذكُر من أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يليق به.

قال ابن العربي: فحذارِ منها، ولا يدعُوَنَّ أحدكم إلا بما في كتاب الله والكتب الخمسة، وهي البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي، فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو أصل التصانيف، وذروا ما سواها، ولا يقولَنَّ أحدُكم أختار دعاءَ كذا وكذا، فإن الله قد اختار له، وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم[3].

الثانية: معنى الزيادةِ في الأسماء: التشبيهُ، والنقصانِ: التعطيلُ. فإن المشبِّهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطِّلة سلبوه ما اتصف به، ولذلك قال أهل الحق: إن ديننا طريق بين طريقين، لا بتشبيه ولا بتعطيل. وسئل الشيخ أبو الحسن البوشنجي عن التوحيد، فقال: إثبات ذات غير مشبَّهة بالذوات، ولا معطَّلة من الصفات.

---

1 - قرأ بها حمزة. انظر السبعة صـ297، والتيسير صـ114.

2 - تفسير البغوي 218/2، وأخرجه الطبري 597/10.

3 - أحكام القرآن 805/2.

وقد قيل في قوله تعالى: **{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ}**: معناه اتركوهم، ولا تحاجوهم، ولا تعرضوا لهم.

وقيل: معناه الوعيد لهم، كقوله تعالى: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}** [المدثر:11]. وقوله: **{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا}** [الحجر:3]. وهو الظاهر من الآية، لقول تعالى: **{سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** والله أعلم)[1].

مناسبة الآية لما قبلها:

قال أبو حيان في البحر المحيط يبيِّنُ مناسبة الآية للآيات قبلها: (ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمَّا ذكر أنه ذرأ كثيرًا من الجن والإنس للنار، ذكر نوعًا منهم، وهم الذين يلحدون في أسمائه، وهم أشد الكفار عتيًّا، أبو جهل وأضرابه.

وأيضًا لمَّا نبَّه على أن دخولهم جهنم هو للغفلة عن ذكر الله، والمخلِّص من العذاب هو ذكر الله؛ أمر بذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، والقلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في الحرص، وانتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظُلمة إلى ظلمة، وقد وجدنا ذلك بالذَّوْق، حتى إن أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاء في وقت واحد، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى تخلص من آفات الغفلة، وامتثل ما أمره الله به، واجتنب ما نهى عنه.

وقيل: (الحسنى) مصدر وُصِف به. قال ابن عطية: والأسماء هاهنا: بمعنى التسميات إجماعًا من المتأولين، لا يمكن غيره. انتهى.

قال أبو حيان: ولا تحرير فيما قال؛ لأن التسمية مصدر، والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تعالى، وهي الأوصاف الدالة على تغايُر الصفات، لا تغاير الموصوف، كما تقول: جاء زيد الفقيه الشجاع الكريم. وكون الاسم الذي أمر تعالى أن يُدعى به حسنًا هو ما قرره الشرع، ونص عليه في إطلاقه على الله، ومعنى **{فَادْعُوهُ بِهَا}** أي: نادوه بها؛ كقولك: يا الله، يا رحمن، يا مالك.. وما أشبه ذلك.

[1] - الجامع لأحكام القرآن 395-396.

وقال الزمخشري: فسمُّوه بتلك الأسماء[1]. جَعَلَه من باب: دعوتُ ابني عبدَ الله. أي سميتُه بهذا الاسم.

واختُلف في الاسم الذي يقتضي مدحًا خالصًا، ولا تتعلق به شبهة ولا اشتراك، إلا أنه لم يَرِدْ منصوصًا، هل يطلق ويسمى الله تعالى به؟

فنص القاضي أبو بكر الباقلَّاني على الجواز، ونص أبو الحسن الأشعري على المنع، وبه قال الفقهاء والجمهور، وهو الصواب.

وفي بعض دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا حنَّان يا منَّان"[2]. ولم يردا في جامع الترمذي.

وقد صنَّف العلماء في شرح أسماء الله الحسنى؛ كأبي حامد الغزالي، وابن الحكم بن بُرجان، وأبي عبد الله الرازي، وأبي بكر بن العربي، وأبي عبد الله القرطبي.. وغيرِهم.

وقيل: معنى قوله: **{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}**: اتركوهم ولا تحاجُّوهم ولا تعرضوا لهم. قاله ابن زيد، فتكون الآية على هذا منسوخة بالقتال.

أقول (القرضاوي القائل): ولا حاجة لنا إلى القول بالنسخ. وهو خلاف الأصل المقرر، أن إعمال النصوص أولى من إهمال شيء منها.

وقد قيل: معناه الوعيد؛ كقوله: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}** [المدثر:11]. وقوله: **{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا}** [الحجر:3].

وقال الزمخشري: واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى، نحو أن يقولوا: يا الله. ولا يقولوا: يا رحمن. وقيل: معنى الإلحاد في أسمائه تسميتهم أوثانهم اللات، نظرًا إلى اسم الله تعالى، والعُزَّى، نظرًا إلى العزيز. قاله مجاهد، ويسمون الله أبًا، وأوثانهم أربابًا، ونحو هذا.

وقال ابن عباس: معنى يلحدون: يكذبون.

1

2

وقال قتادة: يشركون.

وقال الخطابي: الغلط في أسمائه، والزيغ عنها إلحاد.

وقرأ حمزة: **{يَـلْحَدُونَ}** بفتح الياء والحاء، وكذا في النحل والسجدة، وهي قراءة ابن وثّاب، والأعمش وطلحة وعيسى، وقرأ باقي السبعة بضم الياء وكسر الحاء فيهن، و **{سَيُجْزَوْنَ}** وعيد شديد. واندرج تحت قوله: **{مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**. الإلحاد في أسمائه وسائر أفعالهم القبيحة)[1].

تفسير {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} ووجوب تنزيه اسمه تعالى:

قال الإمام القرطبي: (يستحب للقارئ إذا قرأ **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** [الأعلى:1] أن يقول عَقِبَه: سبحان ربي الأعلى. قاله النبي صلى الله عليه وسلم[2]، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين.

وقال ابن عباس والسدي: معنى **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**: أي عظِّم ربَّك الأعلى. والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمَّى، كما قال لبيد:

إلى الحَوْل ثم اسمُ السلامِ عليكما[3]

وقيل: نزِّه ربَّك عن السوء، وعمَّا يقول فيه الملحدون.

وذكر الطبري أن المعنى نزِّهْ اسمَ ربِّك عن أن تُسمِّي به أحدًا سواه[4].

وقيل: نزِّهْ تسميةَ ربِّك وذكرَك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع مُعَظِّم، ولذِكْرِه محترِم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية[5]، والأولى أن يكون الاسم هو المُسَمَّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقلْ على اسمِ الله، فإنَّ اسم الله هو الأعلى[6].

وروى أبو صالح عن ابن عباس: صلِّ بأمر ربك الأعلى[7].

قال: وهو أن تقول: سبحان ربي الأعلى. ورُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم: أنهم

---

1 - البحر المحيط، لأبي حيان 429-430، بتصرف.
2
3 - وعجزه: ومن يبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذر. وهو في ديوان لبيد ص79.
4 - ينظر تفسير الطبري 311/24.
5 - تفسير الطبري 310/24-311، وتفسير البغوي 475/4.
6 - أخرجه ابن أبي شيبة 384/3-385.
7 - تفسير البغوي 475/4، وذكره أبو الليث 469/3 عن الكلبي.

كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربي الأعلى[1]. امتثالًا لأمره في ابتدائها. فيُختار الاقتداء بهم في قراءتهم، لا أن (سبحان ربي الأعلى) من القرآن، كما قاله بعض أهل الزيغ.

وقيل: إنها في قراءة أُبَيٍّ: (سبحان ربي الأعلى). وكان ابن عمر يقرؤها كذلك. وفي الحديث: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال: "سبحان ربي الأعلى"[2].

قال أبو بكر الأنباري: حدثني محمد بن شهريار، قال: حدثنا حسين بن الأسود، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حماد قال: حدثنا عيسى بن عمر، عن أبيه قال: قرأ علي بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**، ثم قال: سبحان ربي الأعلى. فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى. قال: لا، إنما أُمِرْنَا بشيء، فقُلْته[3].

وعن عقبةَ بنِ عامر الجهني قال: لما نزلت **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجعلوها في سجودكم"[4].

وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى.

وقال الحسن: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** أي: صلِّ لربك الأعلى. وقيل: أي صلِّ بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمُكَاء والتصدية.

وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تغلبَ كلَّما   سَبَح الحجيجُ وكبَّروا تكبيرًا[5])[6].

وكذلك وجدنا القرآن يأمرنا في سُوَره بتسبيح اسم الله تعالى, كاسمه (العظيم)، واسمه (الأعلى) كما في قوله تعالى في سورة الواقعة مرتين: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** [الواقعة:74 , 96]. وقال: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ**

---

1 - انظر: مصنف ابن أبي شيبة 508/2-509، والطبري 309/24-310.
2
3 - ذكره السيوطي في الدر المنثور 338/6 وعزاه لابن الأنباري في المصاحف وللفريابي وابن ابي شيبة وعبد الحميد.
4 - أخرجه أحمد (17414)، وأبو داود (869)، وابن ماجه (887)، وسلف عند تفسير الآية (96) من سورة الواقعة.
5 - النكت والعيون 251/6، والتاج (سبح). وهو في ديوان جرير 52/1 غير أن عجز البيت هكذا: شَبَح الحجيج وكبروا إهلالا.
6 - تفسير الطبري /219-222 مختصرا.

الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى:1-3].

وقد علم الرسول الكريم المسلمين: أن يسبحوا باسم ربهم العظيم في ركوعهم, وباسم ربهم الأعلى في سجودهم, وأصبح ذلك معلومًا لكل مسلم ومسلمة في الصلاة. وأصبح من المتفق عليه بينهم: أن يقولوا في ركوعهم: سبحان ربي العظيم. وفي سجودهم: سبحان ربي الأعلى.

وكذلك وجدنا القرآن يأمر المسلمين: أن يذكروا اسم الله في مختلف شؤونهم وأحوالهم, غدوة وعشية, وبكرة وأصيلًا, كما قال تعالى: **{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [الإنسان:25].

ويطلب القرآن من المسلمين أن يذكروا اسم الله تعالى على ما أكلوا من لحوم الأنعام, ومثلها كل ما يذبح ويؤكل من الطيور والدواجن ونحوها. قال تعالى: **{فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ}** [الأنعام:118-119]. وقال تعالى: **{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}** [الأنعام:121].

ومعنى **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ}**: أي: نزِّهْ عن النقائص اسم ربك.

قال أبو حيان في البحر المحيط: (الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم، أي: نزِّهْهُ عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له: رب أو إله. وإذا كان قد أمر بتنزيهه اللفظ أن يطلق على غيره فهو أبلغ، وتنزيه الذات أحرى)[1].

كلام الآلوسي في التنزيه:

قال العلامة الآلوسي في تفسير **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}**: (أي نزِّه أسماءَه عز وجل عمَّا لا يليق، فلا تؤول مما ورد منها اسمًا من غير مقتضٍ، ولا تبقه على ظاهره، إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعالى، ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلًا، إذا كان مختصًّا، كالاسم الجليل، أو على وجه يشعر بأنه تعالى والغير فيه سواء، إذ لم يكن مختصًّا، فلا تقل لمن أعطاك شيئًا – مثلًا–: هذا رازقي.

1

على وجه يشعر بذلك، وصُنه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به، كالخلاء، وحالة التغوط، وذِكْرِه لا على وجه الخشوع والتعظيم، وربما يعد مما لا يليق ذِكْره عند من يكره سماعه من غير ضرورة إليه.

وعن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا لم يجد ما يعطي السائل يقول: ما عندي ما أعطيك، أو ائتني في وقت آخر.. أو نحو ذلك. ولا يقول نحو ما يقول الناس: يرزقك الله تعالى، أو يبعث الله تعالى لك، أو يعطيك الله تعالى.. أو نحوه. فسئل عن ذلك، فقال: إن السائل أثقلُ شيء على سمعه وأبغضه إليه، قول المسئول له ما يفيده رده وحرمانه، فأنا أُجِلّ اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه، ولو في ضمن جملة. وهذا منه رضي الله تعالى عنه غاية في الورع.

وما ذكر من التفسير مبنيٌّ على الظاهر من أن لفظ (اسم) غير مقحم، وذهب كثير إلى أنه مقحم، وهو قد يقحم لضرب من التعظيم على سبيل الكناية، ومنه قوله لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما.

فالمعنى نزِّه ربك عما لا يليق به من الأوصاف.

واستُدِلَّ لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهني، قال: لما نزلت **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** [الواقعة:74]، قال لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "اجعلوها في ركوعكم". فلما نزلت **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال: "اجعلوها في سجودكم"[1].

ومن المعلوم أن المجعول فيهما: سبحان ربي العظيم، وسبحان ربي الأعلى.

وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال: "سبحان ربي الأعلى"[2].

1

2

وروى عبدُ بن حُمَيد وجماعة: أن عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه قرأ ذلك، فقال: سبحان ربي الأعلى. وهو في الصلاة، فقيل له: أتزيد في القرآن؟ قال: لا، إنما أُمِرنا بشيء، ففعلتُه[1].

وفي الكشاف: تسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني، التي هي إلحاد في أسمائه سبحانه، كالجبر والتشبيه مثلًا، وأن يصان عن الابتذال، والذِكْرِ لا على وجه الخشوع والتعظيم.

فجعل المعنيَيْن على ما قيل راجعين إلى الاسم، وإن كان الأول بالحقيقة راجعًا إليه عز وجل، لكن كما يصح أن يقال: نزِّه الذات عما لا يصح له من الأوصاف. يصح أن يقال أيضًا: نزِّه أسماءه تعالى الدالَّة على الكمال عما لا يصح فيه من خلافه.

وليس المعنى الأول مبنيًّا على أن لفظ اسم مقحم، ولا على أن المراد به المسمَّى إطلاقًا لاسم الدال على المدلول، نعم قال به بعضهم هنا، وهو إن كان للأخبار السابقة- كما في دعوى الإقحام- فلا بأس، وإن كان لظنِّ أن التسبيح لا يكون للألفاظ الموضوعة له تعالى، فليس بشيء، لفساد هذا الظن، بظهور أن التسبيح يكون لها، كما سمعتَ.

وقد قال الإمام: إنه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لذلك عن الرفث وسوء الأدب.

ومن هذا يعلم ما في التعبير عنه تعالى شأنه بنحو لَيْلَى ونُعْمَ كما يُدَّعى ذلك في قول ابن الفارض:

أَبَرْقٌ بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع؟

وقوله:

إذا أنعمَتْ نُعْمٌ عليَّ بنظرة ... فلا أسعدت سُعْدَى، ولا أجملت جُملُ!

إلى غير ذلك من أبياته، وقد عاب ذلك بعض الأجلَّة، وعدَّه من سوء الأدب، ومخالفًا لقوله تعالى: **{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا..}** [الأعراف:180] الآية).

1

وقد حاول بعضهم أن يجيب على ذلك بما استطاع من تعليلات ومجادلات، والأولى ألا يُلْجَأ إلى ذلك لما فيه من تكلُّف وإِعْنَات.

قال الآلوسي: (وقال جمع: الاسم بمعنى التسمية. والمعنى نزِّه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له سبحانه معظِّم، ولذكره جل شأنه محترِم، وأنت تعلم أن هذا يندرج في تسبيح الاسم كما تقدم.

وعن ابن عباس أن المعنى صلِّ باسم ربك الأعلى، كما تقول: ابدأ باسم الله تعالى. وحُذِفَ حرفُ الجر. حكاه في البحر، ولا أظن صحته.

وقال عصام الدين: لا يبعد أن يراد بالاسم الأثر، أي: سبح آثار ربك الأعلى عن النقصان، فإن أثره تعالى دال عليه سبحانه، كالاسم، فيكون منعًا عن عيب المخلوقات، أي من حيث إنها مخلوقة له تعالى، على وجه ينافي قوله تعالى: **{مَا تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** [الملك:3]. ولا يخفى بعده، وإن كان فيما بعد من الصفات، ما يستأنس به له.

وأنا أقول: إن كان **{سَبِّحِ}** بمعنى نزِّه، فكلا الأمرين من كون اسم مقحمًا وكونه غير مقحم، وتعلق التسبيح به على الوجه الذي سمعت؛ محتمل غير بعيد، وإذا كان معناه: قل: سبحان. كما هو المعروف فيما بينهم، فكونه مقحمًا متعيِّنٌ؛ إذ لم يُسمع سلفًا وخلفًا من يقول: سبحان اسم ربي الأعلى. أو سبحان اسم الله. والأخبار ظاهرة في ذلك، وحمل ما فيها على اختيار الأخصر المستلزم لغيره، كما ترى. ويؤيد هذا قراءة أبيِّ بن كعب– كما في خبر سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن جبير–: سبحان ربي الأعلى.

وأما ما قيل من أن الاسمَ عَيْنُ المُسَمَّى، واستُدِلَّ عليه بهذه الآية ونحوها، فهو مما لا يعوَّل عليه أصلًا، وقد تقدم الكلام أول الكتاب، فارجع إليه إن أردته.

{والْأَعْلَى} صفة للرب، وأريد بالعلو القهر والاقتدار، لا بالمكان، لاستحالته عليه سبحانه، والسلف وإن لم يؤولوه بذلك، لكنهم أيضًا يقولون باستحالة العلو المكاني عليه عز وجل، وجُوِّز جعْلُه صفةً لـ(اسم)، وعلوُّه ترفعه عن أن يشاركه اسم في حقيقة معناه)[1].

[1] - روح المعاني، للآلوسي /102-1103.

الله جل جلاله

أعظم حقائق الوجود وأجلاها هي: وجود الله تعالى. هذه هي الحقيقة الأولى، والحقيقة الكبرى، والحقيقة العليا، والحقيقة الفاعلة، التي منها وعنها نشأت كل حقيقة أخرى نعلمها.

فنحن البشر الذين نعيش في هذه الأرض، وبدأنا نحاول أن نعرف ما حولنا وما فوقنا وما يحيط بنا من سماوات وكواكب لها صلة بأرضنا، مثل الشمس والقمر والمريخ وغيرها.

هؤلاء البشر بملياراتهم الثمانية- وما يزيد عليها- إنما هم بعض فعل الله تعالى وخلقه. هؤلاء البشر الذين تعلموا وتفوقوا، إنما يعيشون في جزء صغير جدًّا من الكون، أشبه بغرفة في مدينة كبيرة.

ولكن لهذا الكون الكبير الذي نعيش فيه- أو في جزء صغير منه- وتطلع علينا شمسه في النهار, ويطلع لنا قمره في الليل, وتبدو نجومه التي تظهر لنا صغارًا, وعلماء الفلك الذين يرقبونها بأدواتهم المقرِّبة والمكبِّرة يرونها كبيرة جدًّا, ويقول الشاعر العربي عنها:

إن الكواكب في علو محلها لتُرى صغارًا وهْي غيرُ صغار

لهذا الكون ربٌّ خلقه كله، بكل من فيه، وكل ما فيه، ودبَّر أمره، وأحسن فيه كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، هذا الرب الذي خلق وأنشأ، وصوَّر وصنع وأحسن، هو (الله): **{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}** [الأنعام:102].

قال الإمام الغزالي في المقصد الأسنى: (فأما قوله: (الله) فهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي، فإن كل موجود سواه غير مستحق الوجود بذاته، وإنما استفاد الوجود منه. فهو من حيث ذاته هالك، ومن الجهة التي تليه موجود. فكل موجود هالك إلا وجهه. والأشبه

أنه جار في الدلالة على هذا المعنى مجرى أسماء الأعلام، وكل ما ذكر في اشتقاقه وتعريفة تعسف وتكلف)[1].

قال الإمام الغزالي: (اعلم أن هذا الاسم (الله) أعظم أسماء الله عز وجل التسعة والتسعين؛ لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها، حتى لا يشذ منها شيء، وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني، من علم أو قدرة أو فعل أو غيره؛ ولأنه أخص الأسماء؛ إذ لا يطلقه أحد على غيره، لا حقيقة، ولا مجازًا, وسائر الأسماء قد يسمى به غيره, كالقادر والعليم والرحيم.. وغيره, فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء).

ثم بيَّن الغزالي هنا مسألة فقال: (معاني سائر الأسماء يُتَصوَّر أن يتصف العبد بشيء منها حتى ينطلقَ عليه الاسم، كالرحيم والعليم والحليم والشكور وغيره، وإن كان إطلاق الاسم عليه على وجه آخر يباين إطلاقه على الله عز وجل، وأما معنى هذا الاسم فخاصٌّ خصوصًا لا يُتصوَّر فيه مشاركة، لا بالمجاز، ولا بالحقيقة؛ ولأجل هذا الخصوص يوصف سائر الأسماء بأنها اسم الله عز وجل، ويعرّف بالإضافة إليه، فيقال: الصبور والشكور والملك والجبار من أسماء الله عز وجل, ولا يقال: الله من أسماء الشكور والصبور؛ لأن ذلك من حيث هو أدلُّ على كنه المعاني الإلهية وأخص بها, فكان أشهر وأظهر, فاستُغْنِيَ عن التعريف بغيره, وعُرف غيره بالإضافة إليه)[2].

عرفنا أن لهذا الكون ربًّا يدبره:

إن لهذا الكون بكل من يعيش فيه مِنَّا بني الإنسان, وكل ما يعيش فيه من غير بني الإنسان, مما يعقِل, وما لا يعقل, من الجماد والنبات والحيوان، والطير والحشرات والزواحف، والأسماك والحيتان، وكل ما في البحر، وما في البر، وما فوقنا، وما تحتنا, ما يرى وما لا يرى: خالقًا بارئًا مصورًا، أنشأ هذه الكائنات من عدم، وأبرزها في الوجود.

---

[1]- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد الغزالي، نشر دار السلام بالقاهرة.
[2]

وقد قال علماء الكون: إننا لا نرى بأعيننا ومكبراتنا إلا ثلاثة في المائة من محتويات هذا الكون المادية: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** [الحاقة:38-40]. الأمر لا يحتاج إلى قَسَم, فهو في غاية الوضوح لمن لديه العقل السليم, والفطرة السوية, وهذا أوسع ما جاء من القَسَم في القرآن؛ ما نبصره وما لا نبصره.

من يتأمل في هذا الكون الكبير الذي لا نعرف إلا القليل منه, سيجده يدلنا من خلال النظر في آفاقه, والتدبر في آياته, والاستماع إلى بيِّناته, يجد هذه كلها وغيرها تقول لنا: إن من وراء هذا الكون، خالقًا لكل ما فيه، ومن فيه، يدبر أمره، ويرفع بناءه، إلهًا لهذا الإنسان, يحييه ويهديه، وإن لكل الأحياء والأشياء في هذا الكون ربًّا خلقه ودبَّره, وربَّاه ويسَّره, خلق فسوَّى, وقدَّر فهدى, وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

عرفنا الله بالعقل:

عرفنا بالعقول التي ركبها الله فينا, وعن طريق المعارف البدهية المغروسة في كياننا, لم يُلقها إلينا مُلْقٍ, ولم يُلقِّنها لنا معلِّم عرفنا: أن كل مخلوق لا بد له من خالق, وكل مربوب لا بد له من رب, وكل حركة لا بد لها من محرك, وكل نظام لا بد له من منظِّم. عرف الناس ذلك ببداهة عقولهم حين لم تكن لديهم مدارس ولا جامعات, وعرفوا ذلك بعد أن اتسعت دائرة المعارف والمعلومات, وكثُر المتعلِّمون والمعلمون, ووصلوا إلى مستويات في معرفة الحقائق, وخصوصًا بالنسبة للكون والإنسان والحياة والأحياء, إلى نسبة لم يحلم بعُشر معشارها- ولا بواحد في الألف منها- الأقدمون, وما زالوا يتقدمون في معارفهم يومًا بعد يوم. وقد قال الله تعالى لرسوله: **{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}** [طه:114]. وخاطب الناس فقال: **{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}** [الإسراء:85].

سُئِل الأعرابيُّ في البادية: بم عرفت الله؟ أو: ما دليلك على وجود الله؟ فقال: البعرة تدلُّ على البعير, وخطُّ السير يدل على المسير, فكيف بأرض ذات فجاج, وبحار ذات أمواج، وسماء ذات أبراج, وكواكب نورها وهّاج؟ أفلا يدل ذلك على العلي القدير؟!

وعرفنا الله بالفطرة:

وهذا هو الذي يعبر عنه العلميُّون والفلاسفة بقانون السببية والعِلِّيَّة, وكل مخلوق كبُر أو صغُر, له عِلَّة هي التي أدت إلى خلقه, فما العلة الفاعلة لهذا الكون؟ لا شيء إلا الله تعالى, **{فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}** [يونس:32].

هذا الخالق دلَّت عليه الفِطَر السليمة, التي لم تفسد بفساد الناس الذين يلوثون فطرهم بأيديهم, مع أن الإنسان لو ولد في العراء وحده, ربما لم يجد من يُعلِمه بوجود الخالق أو الإله العظيم، سينتهي بفطرته إلى ما انتهى إليه إنسان ابن الطفيل، في رسالته (حي بن يقظان)؛ إلى وجود الله. **{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}** [الأنعام:164]. **{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ}** [الأنعام:14].

وقد علم نبي الإسلام محمد: أن هذه الدلالة على وجود الله, يولد الناس مفطورين عليها, لو لم تتدخل عوامل مفسدة لهذه الفطرة؛ قال عليه الصلاة والسلام: "كل مولود يولد على الفطرة, فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه". ثم تلا قوله تعالى: **{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}** [الروم:30][1].

وعرفنا الله بالكون الدال على المكوِّن:

هذا الخالق العظيم, له صفات اتَّصف بها, دلَّ عليها عمله وتنظيمه، ودقته وإحكامه، وروعته وإتقانه، في إدارة هذا الكون الواسع, كما قال تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [الذاريات:47-49].

1

وبهذه الآية القرآنية الواضحة عرفنا أن كل شيء خلقه الله تعالى يقوم على قاعدة الزوجية, الذكورة والأنوثة في الإنسان والحيوان وغيرهما, والسالب والموجب في الفلزات وغيرها, والإلكترون والبروتون في عالم الذرة, كل شيء يقوم على الزوجية, قال تعالى: **{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}** [يس:36]. أما الذي يقوم على الفردية المطلقة فهو الله تبارك وتعالى: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [الإخلاص:1].

بمنطق العقل ناقشنا الملاحدة فأفحمناهم:

وكما دلَّت الفطرة السوية على وجود هذا الخالق, دلَّت عليه كذلك: العقول الرشيدة, التي استحال عليها أن تجد كونًا ولا مكوِّنَ له, ونِظامًا ولا منظِّم له, ومُحْكَمًا ولا مُحكِم له, ومتحرِّكًا ولا محرِّك له, وهذا الكون يسير على أبدع قواعد السير, دون خلل ولا اضطراب ولا تناقص, آلاف السنين, وملايين السنين, وعشرات الملايين من السنين, وما شاء الله من الأزمنة المتطاولة, دون أن يرتطم بعضه ببعض, أو يفلت بعضه من بعض, أو ينقض بعضُه بعضًا.

قال تعالى يناقش الملاحدة: **{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** [الطور:35-36]. هذه الأسئلة التي أثارها القرآن وقف أمامها الملحدون مبهوتين, ما جوابهم عليها؟ طبعًا لم يخلقوا من غير شيء؛ لأن هذا ينكره النظر والعقول؛ إذ لا خَلق إلا بخالق, ولا يوجد خلق من غير شيء, أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ وهذا مستحيل, فالشيء لا يخلق نفسه؛ لأنه قبل أن يخلق كان عدمًا, فكيف يخلُق العدمُ الوجودَ؟ ولهذا لم يدَّعِ أحدٌ أنه خلق ذاتَه.

{أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وإذا كانوا لم يخلقوا أنفسهم, فهل ادَّعوا أنهم خلقوا السماوات التي فوقهم تظلهم, والأرض التي تحتهم تُقِلُّهم, وخلقوا ما فيهما من كائنات وجمادات ونباتات وأحياء متنوعة, عاقلة وغير عاقلة, ناطقة وغير ناطقة؟

لم يدَّعِ أحد من منكري الألوهية, أو حتى ممن ادَّعوا الألوهية كذبًا على الناس: أنهم هم الذين خلقوا السماوات وما فيها, والأرض وما عليها؛ لأنهم لو قالوا هذا لكذَّبهم الناس العقلاء من حولهم, في مشارق الأرض ومغاربها.

كيف يزعمون أنهم خلقوا السماوات أو الأرض, وهما مخلوقتان من قبل أن يُخلق هذا الإنسان, وقبل أن يُخلق أبواه وأجداده وأجداد أجداده؟ فهذه مخلوقة من زمن قديم طويل لا يعلمه إلا الله تعالى، كما قال تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [الكهف:51].

وهذا الخالق العظيم دلَّت عليه مخلوقاته نفسها؛ فهذه الأرض والسماوات, وهذه الجبال والبحار والمحيطات, وهذه الشمس والقمر, وهذه النجوم المنيرة, ما نراها وما لا نراها, كلها آيات دالة على من أوجدها بإحكام, وسخرها بإبداع ونظام, لا يعتريه خلل, ولا يداخله زلل, ولا يحتاج إلى شيء ليمضي مستمرًّا في طريقه, وهو آية, بل آيات من الله لعباده, تدل على وجوده وقدرته, وإرادته وعلمه وحكمته, كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:90-91]. وقال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت:53].

اتفاق موكب الرسل الداعين إلى الله طوال التاريخ:

وهذا الخالق العظيم, دلَّ على وجوده وبالغ قدرته, وواسع علمه, وعظيم حكمته, وواسع رحمته: موكب الرسل والنبيِّين, الذين بعثهم الله تعالى هداة إلى خلقه, ودعاة إلى حقه, وقائمين بقسطه, ومبشرين ومنذرين للناس, بما عند الله من مثوبة لمن صدَّقهم، وأطاع الله بطاعتهم, وما عنده من عقوبة لمن كذَّبهم، وعصى الله بعصيانهم, {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:165].

وقد جاءت رسل الله تعالى- وخاتمهم محمد عليهم السلام- بتحديد صفات الله تعالى, التي سمَّاها القرآن أسماء لله تعالى، وكل اسم منها يتضمن صفة من صفاته العلا، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:180]. {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر:22-24]. فكل اسم من هذه الأسماء يستلزم صفة من الصفات اللائقة بكماله سبحانه.

ومن الآيات التي أنزلت على محمد خاتم الأنبياء، ودلَّت على عظمة الله تعالى وعلو شأنه: آية الكرسي الشهيرة, وهي قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة:255].

ومن ذلك أول سورة الحديد: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الحديد:1-6].

هذا الموكب الذي ابتدأه الله بنبيه آدم, ثم كان أولُّ الرسل إلى من أشركوا بالله نوحًا عليه السلام, وختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم, وكلهم جاءوا لإقامة الحق والعدل في الأرض للناس جميعًا, كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد:25].

فهذا الموكب الحافل بالرسل الكبار, الذين اشتهروا في الناس, وأقام الله الحُجَج على ما معهم من حق, وأهلك أعداءهم الذين كذبوهم, ووقفوا في طريقهم, وآذوهم ومن آمن بهم، من قوم نوح, وعاد وثمود, وقوم إبراهيم وقوم شعيب, والذين كذبوا موسى وعيسى, فأخذهم الله بذنوبهم, وسجَّل التاريخ عليهم فرارهم من نور الحق, واستمرارهم على الباطل, كما قال تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم:9-12].

وفي سورة هود نجد أهل مدين يجادلون نبيَّهم شعيبًا, فيقولون: {أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [هود:87].

ولكن منطق رسل الله كان قويا واضحا مضيئا؛ لأنه ينطق بالحق، ويجهر بالعدل، لا يحيد إلى الباطل، ولا يميل إلى الحيف، ولا يتبع الهوى، فيضل عن سبيل الله، {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم:10].

الله لا إله إلا هو

(التوحيد)

{هُوَ ٱللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر:22].

لم يعن القرآن كثيرًا، بقضية إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، فهذه قضية شبه متفق عليها، لم ينكرها إلا القليل من الملحدين، الذين كانوا ضد جماهير الناس، الذين عرفوا الله تعالى، بفطرتهم وبدانة عقولهم، ولكن الذي ضلل البشرية حقا هو: الشرك بالله تعالى، فمنهم من عبد الشمس أو القمر أو النجوم، أو مصادر الخير للناس، كالأنهار أحيانا، وكالبقر في الهند، ومنهم من عبد الجن أو الشيطان، أو غير ذلك. ولهذا كان إرسال رسل الله تعالى إلى الأقوام والأمم بالتوحيد الخالص، فقال كل رسول لقومه: {يَاقَوْمِ اعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، نطق بها الرسل الذين بعثهم الله لهداية العباد من ضلالتهم، وتعليمهم من جهالتهم، وردهم إلى الصراط المستقيم: نوح عليه السلام، ومن بعده هود، وصالح، ومن بعدهم إبراهيم ولوط وبنو إسرائيل، وشعيب، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام، كلهم دعوا أقوامهم إلى ترك الشرك، وإلى عبادة الله وحده، كلهم قالوا: باللفظ وبالمعنى: {يَاقَوْمِ اعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}.

وقال الله تعالى لنبيه محمد في قرآنه: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا ٱللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[النحل:36]، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء:25].

وقال الله لموسى في أول خطاب له: { إِنَّنِي أَنَا ٱللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي }[طه:14]، وقال تعالى عن عيسى ومن جعلوه ابنا لله: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ

عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا }[مريم:88-95].

كل الأنبياء من آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد، أجمعوا على أنه لا إله إلا الله، ولا يعبد أحد غير الله، وأن التوحيد هو غاية الوجود، ودعوة الرسل جميعا، وثمرته: أن يتجرد العباد في الدنيا من الخضوع لأي جهة أو طائفة أو مجموعة أو فرد غير الله وحده، وأن يسعدوا في الآخرة برضا الله تعالى والنظر إليه، { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }[القيامة:22-23].

اسم الله الواحد:

وقد جاء في القرآن قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[ص:65]. وقال تعالى: {قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد:16]. وقال تعالى على لسان يوسف: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف:39].

و(اسم الله (الواحد) جاء في الكتاب والسُّنَّة, وأجمع عليه علماء الأمة.

وهو من أعظم أسمائه الحسنى, وأولاها بالاختصاص به, وعدم المشاركة فيه. قال الله تعالى: { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } [النساء:117]. وقال: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة:163]. وقال تعالى يرد على النصارى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ} [المائدة:73]. وقال: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [ص:65].

ولا يجوز إجراؤه على غير الله إلا مجازًا في المعقول, إذ لا يجوز في المعقول وجود حادث مفرد؛ لأنه إن كان جوهرًا يستحيل وجوده عاريًا عن الأعراض, ولو كان عارضًا لاستحال وجوده قائمًا بنفسه في غير محله, فكل موجود سوى الله يجوز وصفه بأنه أحد, ولكنه في حقيقة المعقول تجوُّز لا حقيقة له، وإنما الحقيقة لله الواحدُ

الأوّل الأحدُ, والذي لا ثاني لـه، ولا شريك، ولا مثل، ولا نظير, لم يسبقه في أزلـه شيء, تبارك وتعالى وعزَّ وجلَّ عما يقول الظالمون.

ولذلك يقول أصحاب العدد: إن الواحد ليس بعدد؛ لأن العدد إنما يتركب من أرقام إذا إضيف بعضه إلى بعض, والواحد لم يتركب من ضم شيء إلى شيء، فيكون عددًا, فكأنه مادة العدد. فالله سبحانه واحد من حيث إن ذاته لا يجوز عليها التكثُّر بغيرها. وهذه إشارة إلى أنه ليس بجوهر ولا عرض؛ لأن الجوهر قد يتكثَّر بالانضمام إلى جوهر مثله، فيتركب منهما جسم, وقد يتكثر بالعرض الذي يحِلُّه, والعرض لا قِوام له إلا بغيرٍ يحلُّه.

والجوهر في اصطلاح المتكلمين عبارة عن المتحيز الذي لا ينقسم, وإنما سمِّيَ متحيزًا؛ لأن له تحيزًا وحيزًا، فحيِّزُه عبارة عن جزئيته التي يمانع بها مثله على حيِّزه, والحيز في اصطلاحهم (عبارة) عن الفارغ الذي يشغله ذات الجوهر, وذات الجسم. سواء قدّرته: صاعدًا أو نازلًا أو معتدلًا, لا تنفكُّ ذاته عن حيز يشغله. وليس المراد بالحيز: الجهة والناحية في اصطلاح المتكلمين. ولا يراد به أيضًا ما يستقرُّ عليه الجسم. وإنما مرادهم به ما قدمناه.

والعرض: عبارة عن المعنى القائم بالجوهر, وسُمِّيَ عرضًا؛ لأنه يعرض في الجسم والجوهر, ويقوم به فيتغير به من حال إلى حال. والجسم هو المجتمِع على ما تقدم, وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان.

فالله تعالى متعالٍ عن أن يشبه شيئًا من الحادثات, أو يمازجه شيء من الكائنات, بل هو بذاته متفرد عن جميع المخلوقات, وأنه ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم, خلافًا للنصارى والمجسمة تعالى الله عن قولهم وتسميتهم, وأنه لا تحِلّه الكائنات ولا تمازجه الحادثات، ولا له مكان يحويه, ولا زمان هو فيه, أولٌ لا قبل له, آخرٌ لا بعد له، **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى:11]. فهو سبحانه واحد من حيث إنه لا شريك له, فيجري عليه لأجله حكم العدد, وتبطل وحدانيته.

وقد نبَّه سبحانه على هذا بقوله: **{لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ}** [النحل:51]. فنبه على أن الإله الحق لا يتعدد, وأن كل من يتعدد فليس بإله؛ ولذلك

اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفي التعديد. والشركة عبارة عن التعاون على الفعل لعدم استقلال أحد الشريكَيْن بالفعل, فلو قُدِّرَ شريك يكون إلهًا، وقُدِّر جرمٌ ما، فأراد تحريكه أحدهما والآخر تسكينه، فإما أن تنفذ إرادتهما معًا، أو لا تنفذ، أو تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر.

الأول: محالٌ لقيام الحركة والسكون بمحَلٍّ واحد.

والثاني: يدل على عجزهما وخلو المحل.

فبقي الثالث: فمن نفذت إرادته فهو القادر، والثاني عاجز، والعجز لا يكون إلا عن معجوز عنهم. فتفهَّمْ هذا، فهو دليل التوحيد, وهو المسمى بدليل التمانع.

فإن قيل: ما المانع أن يتفقا؟ قيل له: يجوز أن يختلفا, سلمنا الاتفاق، لكن العالم جواهر وأعراض؛ فمن وجد منه التأثير فهو الإله, والثاني مستغًنى عنه, كما ذكرنا أن مقدورَيْن قادِرَيْن محال.

وإذا تقدر هذا فاعلم: أن أهل اللغة قالوا: الواحد في كلام العرب له معنيان:

أحدهما: مُفتتَح الوجود.

والثاني: أنه الذي لا نظير له، ولا مثل, كقولهم: فلان واحدُ قومِه في الشرف والكرم والشجاعة. قال الشاعر:

يا واحدَ العربِ الذي   ما في الأنام له نظير
لو كان مثلَك آخَرُ   ما كان في الدنيا فقير

يريد أنه رئيسهم وعمدتهم, فالله تعالى هو الواحد لا نظير له، وهو الذي يعتمده عباده ويقصدونه, ولا يتكلون إلا عليه جل وعز. يُقال: رجلٌ وحدانيٌّ: متفرِّد. قال النابغة:

كأن رحلي وقد زال النهار ربَّنا   بذي الجليل على مستأنس وحدي

والوحدة: الانفراد, والواحد: المنفرد. وله تسعة أبنية: واحد, أحد, وحيد, وحِد بكسر الحاء من غير ياء, وحَد, بفتحها, وحْد بإسكانها, موحد على وزن مَفْعَل, أُحاد, أَوْحد ذكرها ابن العربي(1).

1

وقال الجوهري: يجمع الواحد وُحْدَان وأُحدان، ورجلٌ وَحَدٌ ووَحِدٌ ووحيد أي: منفرد، وتوحد برأيه: تفرد به[1]. واختلف الناس في الوحيد فمنهم من قال: إن البارئ تعالى لا يوصف به؛ لأنه ورد مورد الذم, قال الله تعالى: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}** [المدثر:11]. يعني منفردًا فقيرًا، لا مال له، ولا ولد، ثم خلقت له المال والولد, ومنهم من قال: إن قوله: **{وَحِيدًا}** وصف راجع إلى البارئ تعالى والتقدير, ذرني ومن خلقت وحدي لن يشاركني فيه أحد, فأنا أتولى عذابه يوم القيامة كما توليت خلقه.

قال ابن العربي: وحقيقة العبارة فيه على ألسنة العربية أن قوله: **{وَحِيدًا}** على التأويل الأول حال من قوله: (مَنْ) الذي يعود عليه ضمير المفعول المحذوف، والتقدير: ذرني ومن خلقته وحيدًا.

وعلى التأويل الثاني يكون وحيدًا حالًا من ضمير الفاعل، وهو التاء في قوله: **{خَلَقْتُ}**. وهذا منهج ضعيف، لا تثبت بمثله أسماء البارئ وأوصافه، والذم عليه أغلب، وفيه أظهر[2].

وقال أهل العلم باللسان: إن الواحد يختص بالذات، وأحد مختص بالصفات.

وقال الأزهري: إن الأحد بُنِيَ لنفي ما يذكر معه من العدد, والواحد اسم لمُفتَتَح العدد، تقول: ما أتاني منهم أحد، وجاءني منهم واحد[3].

وقيل: إن أحدًا يستعمل فيما يعقل خاصة، وواحد يستعمل فيهما، فواحد في صفة الله معناه نفي المثيل والنظير والنِّدّ.

قال أبو المعالي: معناه نفي التبعيض، فهو سبحانه لا جزء لذاته، ولا بعض، وليس بمؤلَّف جل وتعالى[4].

قال الإسفراييني: وتحقيق الواحد أنه لا يتبعَّض في الوهم، ولا يتجزأ بالفعل، وتفسير الأحد لا يشبه شيئًا من المخلوقات، وتحقيقه أنه لا يُتَصَوَّر في الوهم، وما دونه يقبل هذه الصفة، فيجب على كل مكلَّف اعتقاد هذا.

1
2
3
4

ثم يجب عليه أن يطلب حقيقة معنى التوحيد ويتعرفها بالمداومة على الاستدلال بالآيات التي نصبها شواهد على ذلك، من خلق السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته، وليدًان له بالتوحيد.

إنما الله إله واحد:

كما أن من أسمائه تعالى وصفاته: أنه الواحد الأحد, الذي لا شريك له, ولا ند له, ولا ضِدَّ له, دلَّت على ذلك كل الدلائل العقلية والنقلية؛ كما قال تعالى: **{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** [البقرة:163]. وقال تعالى: **{إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}** [النساء:171]. وكل رسل الله من عهد نوح إلى خاتمهم محمد جاؤوا يدعون إلى التوحيد الخالص, الذي لا تشوبه شائبة من الاثْنَيْنية التي كانت عند المجوس, الذين قالوا بإلهين للخير والشر, أو للنور والظلمة, وأنكر القرآن ذلك حين قال: **{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}** [النحل:51]. ومن التثليث الذي اشتهر عند الهنود القدماء, وأخذه عنهم النصارى, كما قال تعالى: **{ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [التوبة:30].

قد حكم الله عليهم بالكفر في ذلك, كما قال تعالى: **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [المائدة:73].

وبعض النصارى عبدوا المسيح وأمه إلهين من دون الله, كما قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا**

أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة:116-117].

وبعض النصارى اتخذوا المسيح ابنًا لله، كما أن بعض اليهود اتخذوا عُزَيْرًا ابنًا لله، وقد رفض القرآن ذلك، فإن الأبوة المجازية ثابتة للبشر جميعًا، كما جاء في الحديث: "الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله"[1].

ووقف الأنبياء جميعًا يعلنون دعوتهم إلى التوحيد, وبراءتهم من الشرك, كما في قوله تعالى في سورة هود: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [هود:25-34].

وكذلك تحدثت سورة هود عن عاد قوم هود, وعن ثمود قوم صالح, وسائر المرسلين.

1

وكذلك جاء ذكر هؤلاء المرسلين في سورة الأعراف, وفي سورة الأنبياء، وفي سورة الشعراء، وفي سورة الصافات، وإنكارهم على قومهم شركهم، وضياع دين التوحيد من قومهم, واتخاذهم من دون الله آلهة لا يغنون عنهم من الله شيئًا.

ذكَّر هؤلاء الرسلُ أقوامَهم بربهم, ودعوهم إلى توحيده, فلا يعبدون غير الله ربًّا, ولا يتخذون من دون الله وليًّا, ولا يبتغون غير الله حكمًا.

فهناك ثلاثة أنواع من التوحيد لا بد منها كلها:

1- توحيد الربوبية أو الخالقية:

الأول: توحيد الربوبية, أو قل: توحيد الخالقية, بمعنى أنه لا رب للكون, ولا رب للإنسان إلا الله, فلا بد للناس أن يفرد الله تعالى بالربوبية, وإن وردت بعض الأحاديث فسرت الربوبية بمعنى التشريع للناس, والتحليل لهم، والتحريم عليهم, كما جاء في تفسير قوله تعالى عن اليهود والنصارى: **{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ﷲ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** [التوبة:31]: أنهم أشركوا بالله شركًا من نوع خاص, أحلَّ أحبارهم ورهبانهم الحرام, فاستحلُّوه, وحرَّموا عليهم الحلال فحرَّموه, ولهذا آثرنا أن نضيف إلى كلمة (الربوبية) كلمة (الخالقية).

وهذا التوحيد اعترف به مشركو العرب, ولم ينكروه, بل ذكر القرآن إجاباتهم في ذلك, فكانت جلية واضحة, كما قال تعالى: **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ﷲ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [الزخرف:87]. **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}** [الزخرف:9].

2- توحيد الإلهية أو العبادة:

والنوع الثاني للتوحيد, هو: توحيد الإلهية, أو توحيد العبادة, فهناك آلهة كثيرة اتخذها الناس, ليعبدوها من دون الله, أو ليعبدوها مع الله, فمنهم من عبد الشمس, كأهل اليمن أيام الملكة بلقيس قبل أن تسلم مع سليمان لله رب العالمين. وقد حدث

الهدهد نبي الله الملك سليمان بذلك حين قال: **{إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [النمل:23-25].

وهناك من عبدوا القمر, وهناك من عبدوا النجوم.

وهناك من عبدوا البقر, ومنها العجول, كما عبد المصريون القدماء (عجل أبيس). وما زال الهنود إلى اليوم- وهم أمة بأتباعها وممثليها في البلاد الأخرى تقارب المليار- يعبدون البقرة الأنثى, أما قرينها الثور, وهو أضخم منها جثة, وأشد قوة, ليس أهلًا لأن يعبد. قال بعضهم: لأن الثور لا يؤخذ منه اللبن. قلنا: هناك الجاموس الذي هو قرين البقر وصنوه، ومع هذا لا يُعبد, مع أنه أكثر إنتاجًا للبن من البقرة, وأكثر الناس يفضلون لبن الجاموس على لبن البقر.

ومن الناس من يعبد القرد.

ومن الناس من يعبد الشيطان.

ومن الناس من يعبد الفرج.

ومنهم من يعبدون ما لا يخطر لك على بال, وقد جاء رسل الله تعالى وأنبياؤه يحاربون هذا النوع من الشرك أشد المحاربة, وأعلنوا جميعا: أنه (لا إله إلا الله) فهذه كلمة النجاة من الشرك, وبالتالي من عذاب الله الدائم في النار.

نادى الأنبياء جميعًا بالتوحيد, كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** [النحل:36]. فهكذا كلهم دعوا إلى عبادة الله وحده, وإلى اجتناب كل ما يعبد ويعظم من دون الله, وهو مصدر كل جبروت وطغيان.

وقال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء:25].

وفي سورة الفاتحة, التي يقرأها المسلم في صلواته المفروضة كل يوم سبع عشرة مرة, يقرأ المسلم: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [الفاتحة:4] أي: يا

رب لا نعبد إلا إياك, ولا نستعين أحدًا سواك. وهذا هو التوحيد الحقيقي: أن يفرد الله تعالى بالعبادة والاستعانة. **{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}** [هود:88, الشورى:10].

وبهذا يتحرر المسلم من كل عبوديته لغير الله تعالى, فلا عبودية للناس, لا للكبراء, ولا للصلحاء, ولا للملوك, ولا للشيطان, ولا للمال, ولا للشهوات, ولا لأي من الآلهة المكشوفة والمستورة, التي يتخذها الناس آلهة مع الله أو من دونه.

والله تعالى يريد المسلم الحق عبدًا له وحده، لا عبدًا لأحد غيره, لا إنسًا ولا جنًّا, ولا ملَكًا ولا شيطانًا, وقد عاب الله على بعض الناس أنهم **{اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}** [الأعراف:30]. وقال تعالى: **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}** [يس:60-61].

رفض الإسلام كل الأرباب المصنوعة, والآلهة المتخذة, وأعلن الوحدانية لله لا شريك له, كما قال تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** [الأنعام:162-163].

3- توحيد الحاكمية:

وهناك توحيد ثالث: أعلنته سورة التوحيد, التي سماها الرسول سورة الأنعام, قال تعالى: **{أَفَغَيْرَ ٱللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}** [الأنعام:114].

ذلك أن الله تعالى هو الحَكَم، وهو الحاكم, كما قال تعالى: **{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف:40]. جاء ذلك على لسان يوسف عليه السلام.

وقد جاء ذلك في القرآن الكريم الذي يقول: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [القصص:88]. وقال سبحانه: **{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}** [الأنعام:57]. وقال تعالى: **{وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}** [الحج:68-69]. وقال تعالى: **{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}** [يونس:109]. وقال سبحانه: **{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}** [التين:7-8]. وقال: **{قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}** [الأنبياء:112]. وقال: **{ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [الممتحنة:10].

هذه الآيات كلها تعطينا دلالة مؤكدة: أن الحكم لله وحده, لا ينبغي أن ينازعه أحد فيه, ولا غرو في ذلك؛ فهو وحده خالق الخلق, ومالك الملك, ومانع الحياة, ومعطي الرزق, ومهيئ كل الأسباب للناس, ما علموا منها، وما لم يعلموا؛ فلا عجب أن يكون الحكم كله لله.

ولكن ما معنى أن يكون الحكم لله تبارك وتعالى؟

الحكم هنا له معنيان أصليان: الحُكْم الخَلْقي, والحكم الأَمْري, كما قال تعالى: **{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف:54]. وأحيانا يعبر عنه بـ(الحكم الكوني) و(الحكم التشريعي), وكلا الحكمين لله لا لغيره.

فمن الحكم الأول: أن الأمور كلها لله, وفي يده وحده, يصرفها كيف يشاء, يعطي ويمنع, ويخفض ويرفع, ويصل ويقطع, ويعز ويذل, ويهدي ويضل, يوسِّع على من شاء, ويضيِّق على من شاء, فما يجري به القدر على الإنسان من خير أو شر, من نعيم أو بؤس؛ فهو حكم الله القدري التكويني, كما قال سيدنا يعقوب لأبنائه: **{يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}**

[يوسف:67]. وقال أكبر أبنائه حين لم يعودوا بأخيهم: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف:80].

فهذا حكم الله القدري في الخلق, وهو يجري كما قدر الله, وفق سنته الماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

والنوع الثاني من الحكم, هو : الحكم الأَمْري التشريعي, الذي يُرجَعُ فيه إلى ما أنزل الله على رسله من الآيات البينات, والأحكام الشرعيات, ومن الأوامر والنواهي, ومن التحليلات والتحريمات, ومن المستحبات والمكروهات, فعلى الناس هنا أن يخضعوا لحكم الله تعالى وتشريعه, وأن يقولوا عندما يسمعون حكم الله: سمعنا وأطعنا. ولا يجوز لمؤمن أن يسمح لنفسه أن يقف معارضا لحكم الله تعالى, أو متوقِّفًا فيه، أو متشككا في تبنيه.

اسمع إلى قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:60-64].

بينت هذه الآيات موقف المنافقين من حكم الله التشريعي ومحاولة التخلص منه, ولكن الله تعهدهم بمحكم كتابه, وبآياته المستفيضة التي لا محيص لهم عنها.

ويقول تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ

إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور:47-54].

كان النداء الأول لكل رسول هو قوله تعالى: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف:59, 65,73, 85, هود:84, المؤمنون:33].

ودارت بين الرسل وقومهم محاورات في الشرك والتوحيد, كما ذكر القرآن نقاش عاد لنبيهم هود: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [الأعراف:70-71].

قال الله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة:163-164])[1].

الله أحد، الله الصمد:

ومما اهتم به القرآن: إبراز اسمي (الأحد) و(الصمد). وهما يثبتان صفتي الأحدية والصمدية لله عز وجل، فهو سبحانه (الأحد)، وهو جل

1

شأنه (الصمد)، وقد نزلت في ذلك سورة الإخلاص التي كان يتلوها الرسول ويرددها، ويعلن أنها ثلث القرآن[1].

روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، انسُب لنا ربك. فأنزل الله تعالى: **{قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ * ٱللهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** (الإخلاص:1-4)[2].

وروى البخاري، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ**{قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ}**، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟". فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله تعالى يحبه"[3].

وروى البخاري، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم لأصحابه: "أيعجِز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟". فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن"[4].

قال مفسرو السلف: لما قال من قال: نحن نعبد عزيرًا ابنَ الله. وقال من قال: نحن نعبد المسيح ابن الله. وقال من قال: نحن نعبد إله الخير، وإله الشر. وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان. أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: **{قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ}** يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا شبيه ولا عديل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله،

1
2
3
4

وقوله تعالى: {اللَّهُ الصَّمَدُ} يعني الذي يصمد إليه الخلائقُ في حوائجهم ومسائلهم. قال ابن العباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

وقوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، وهذا كما قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام:101]. أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه، قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم:88-95]، وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء:26-27]. وقال تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات:158].

وفي صحيح البخاري: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم"[1].

1

وقال صاحب (الظلال) رحمه الله في تعليقاته العذبة الندية التي يعلو فيها ويحلق في سماء القرآن بغير جناح، إلا جناح المؤمن الأديب الشاعر المفسر الموهوب، الذي يفيض الله عليه بما يفيض، يعلق على الأحدية التي أعلنتها سورة الإخلاص، يقول: (هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة.

وقد تضمنت سورة الإخلاص أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة.

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.. وهو لفظ أدق من لفظ (واحد)؛ لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه، وأن ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي من ثَمَّ أحدية الفاعلية، فليس سواه فاعلًا لشيء، أو فاعلًا في شيء، في هذا الوجود أصلًا.

وهذه عقيدة في الضمير، وتفسير للوجود أيضًا.

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلُص القلب من كل غاشية، ومن كل شائبة، ومن كل تعلُّق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود، وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود- إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلًا!- فلا حقيقة لوجود، إلا ذلك الوجود الإلهي، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية، فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة، فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهاق. يتحرر من الرغبة، وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة، وهي أصل قيود كثيرة، وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئًا متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئًا في الكون إلا الله؛ لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب، وردُّ كلِّ شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت، وهذه هي الحقيقة التي عُنِيَ القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني، ومن ثَمَّ كان ينحِّي الأسباب الظاهرة دائمًا، ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: **{وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمى}** [الأنفال:17].

{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ} [آل عمران:126- الأنفال:10].. **{وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ}** [الإنسان:30- التكوير:29]، وغيرها كثير.

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتَّجَهَ الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود! وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها،

ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوِّمَاتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله، وأن لا وجود إلا وجوده، وأن لا فاعلية إلا فاعليته.

ولا يريد طريقًا غير هذا الطريق! من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير، وما يُشِيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات:

منهج لعبادة الله وحده. الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته[1].

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة، في السراء والضراء، في النعماء والبأساء، وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودًا حقيقيًّا، وإلى غير فاعل في الوجود أصلًا؟! ومنهج للتلقي عن الله وحده، تلقي العقيدة والتصور، والقيم والموازين، والشرائع والقوانين، والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد، فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير.

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده، ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعًا إلى الخلاص من الحواجز المعوِّقة، والشوائب المضلِّلة، سواء في قرارة النفس، أو فيما حولها من الأشياء والنفوس، ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود! ومنهج يربط – مع هذا – بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب.

فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها، والهروب من مزاولتها، فكلها خارجة من يد الله وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

---

[1]- حاول بعض المتشددين من دعاة السلفية المتطرفة، اتهام صاحب (الظلال) رحمه الله، بأنه في أحاديثه عن الأحدية، يدعو إلى وحدة الوجود! وهو اتهام باطل لم يبن على قراءة كل ما كتبه سيد قطب رحمه الله. ومن يقرأ كلامه كله، لا يتصور أن يصل إليه ذرة من شك في سلامة عقيدة التوحيد وثباتها ووضوحها عند مفسرنا، وفي ظل كتابه وكتبه كلها رحمه الله، وتقبل منه.

وهو منهج رفيع طليق، الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية، ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب، إنما معناه المحاولة المستزة، والكفاح الدائم، لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها، ومن ثَمَّ فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. كما أسلفنا.

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير، ولكن الإسلام لا يريده؛ لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص، إنه طريق أشق، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان. أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه.. وهذا هو الانطلاق، انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية، وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم)[1].

إن هذه الأحدية تنطق بها فطرة كل إنسان من أعماقه مهما يتراكم على هذه الفطرة صدأُ الشبهات أو غبار الشهوات. وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء. وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئًا يقوم وحده، ويستغني عن الله!! بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول. فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه، ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعيًا ربه وحده، منيبًا إليه، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء:67].

1

ما لي– وقد فرَّطت في أمري– سِوى ربٍّ إلى نفحاته أتعرَّض
ما كان من عذر لتقصيري سوى نفس تقاد إلى الجنان فتُعرِض
كسْلَى عن الخيرات جِدُّ ثقيلةٍ وهي الجَواد إلى البطالة يركُضُ
نامت وأهل الجِد قُوّام, ولم تَنْفُض غُبار النوم فيما يُنفَض
لم تحذ حذو الصادقين، وظهرها من زحمة الأوزار أوشك ينقض
قعدت، ولم تبذل كما بذلوا، ولم تسمع دعاء الله: "من ذا يُقرضُ؟"
أشهدتَها، ربي: "ألست بربكم؟" قالت: بلى، فلما تحيد وتنقض؟
ودنوتَ منها بالعطاء تحبُّبًا يا ويحها، بالجهل، منك تبغّض!
يا رب, في الأولى سترتَ نقائصي فأتمَّ سِتْرك يوم عندك أُعرَض
ما لي سواك إذا الخطوب تفاقمت أمري إليك على الداوم مُفوَّض
لو كان لي رب سواك رجوته فلمن أمد يدي ومن أستقرض؟ [1]

---

[1]- من قصيدتي (مناجاة) في ديواني (نفحات ولفحات).

الله بكل شيء عليم

ومن أسماء الله تعالى الحسنى التي نطق بها القرآن العظيم، وأكدتها السنة المشرفة، وأجمعت عليها الأمة كافة: اسم (العليم)، الذي يوجب لله تعالى صفة العلم، فهو العليم بكل شيء, مما صغُر أو كبُر, مما دقَّ أو جَلَّ, مما خفي أو ظهر, مما هو منظور وما هو غير منظور, من عالم الأفلاك والسموات، التي بينها وبين بعض نجومها ملايين السنوات الضوئية. ومن عالم الجمادات والأفلاك والأرَضِين النباتات وعوالم الحيوانات البريَّة والبحريَّة, والزواحف والوحوش والحشرات وغيرها, ومن عالم الإنس الذي يُرى, وعالم الجن الذي لا يُرى, ومن العوالم العاقلة كعالم الملائكة, ومن كل ما غاب عن الإنسان بحكم تكوينه, والذي يسمى (عالَم الغيب). يعلم هذه الأشياء كلها؛ لأنه خالقها، ومدبِّر أمرِها, ومُجرِي رزقها لمن يحتاج إلى الرزق منها, كما قال تعالى: **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [الملك:14]، **{هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** [الحشر:22].

وهو جل شأنه يعلم ما كان, وما هو كائن, وما سيكون؛ كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: **{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}** [إبراهيم:38]. ويقول تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}** [المجادلة:7]. ويقول عز وجل: **{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [يونس:61]. ويقول سبحانه: **{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}** [غافر:19]. ويقول: **{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا**

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة:255]. {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم:32].

كل المخلوقات في السماوات، أو في الأرض، لها علم محدود, فتستطيع أن تنميه وتوسعه، وتضيف إليه، وتعدِّل منه, كلما جاءها جديد تصحح به القديم، أو تزيده وتعمقه، أو تنقصه وتغيره إلى ضده. وتستطيع أن تقول في بعض ما تُسأل عنه: لا أعلم، أو لا أدري. كما يفعل كثير من أئمة العلم؛ فقد سئل مالك عن اربعين مسألة، فقال في ست وثلاثين منها: لا أدري. وقال ابن عباس: لا أدري نصف العلم. وقال سيدنا موسى حين سأله فرعون: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه:51-52]. وكما قالت الملائكة حين سألها الله عن أسماء بعض الأشياء: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:32]. وقال الله تعالى عن البشر: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:85]. وقال لخاتم رسله محمد: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:114]. وقال تعالى على لسان الملائكة: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر:7]. وقال تعالى على لسان عبده ورسوله المسيح: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة:116].

والإنسان وإن اتسع علمه, وعلت مداركه, وحصل على أعلى الشهادات, وأرقى الدرجات في الرتب العلمية, لا تزالُ تأخذُ عليه غفلاتٍ, وتستدرك عليه هفواتٍ, وتكتب عليه أخطاءً.

وقد رأينا الكنيسة الغربية ارتكبت مجازر بشرية ضد العلماء المفكرين, والمكتشفين لحقائق جديدة, ضد الخرافات التي كان علماء العصر الوسيط في أوربا يتعلمونها ويعلمونها, فمن اكتشفوا كروية الأرض حكم عليهم بالإعدام- في حين كان المسلمون

يقررونها في كتبهم الدينية المطولة[1]- وأقيمت محاكم التفتيش لإعلان الحرب على هؤلاء الذين يزعمون أنهم مجددون.

وللجهل وللخطأ عند الإنسان أسباب كثيرة, منها نقصه الذاتي, وأن من طبيعته النسيان, كما قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيِه   وما القلب إلا أنه يتقلبُ

وقال رفيق موسى: { إِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ } [الكهف:63]. كما أن الإنسان قد يخطئ في القضايا الاجتهادية التي تحتمل أكثر من رأي, لا بد أن يكون واحد منها صوابًا, والباقي خطأ, وفي القضايا العلمية التي يتعرض العلماء المتبحرون للحكم فيها بالاجتهاد: من أصاب فله أجران, ومن أخطأ فله أجر واحد.

وقال الرسول المعلِّم: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[2].

وعلمنا الله في آخر آية في سورة البقرة أن نقول: { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة:285]. وجاء في صحيح مسلم أنه تعالى أجاب الدعاء.

وكثير من الأشياء التي يطلب الإنسان معرفتها يجدها فوق طاقته, وكثيرا ما تبحث المجامع في مسائل ضاق عنها علم الأفراد, وما زال في كل عصر علم جديد, غاب عن الأولين, والتقطه الآخرون. وكم من ألغاز وقف الناس جميعًا فيها حيارى, وكم من عالم انتقل من علم إلى علم آخر, من اللغة إلى الفقه, أو من التفسير إلى الحديث, أو من مذهب إلى مذهب آخر, مالكي يصبح شافعيًّا, أو العكس, أو شافعي يصبح حنفيًّا, كأبي جعفر الطحاوي. وكم من متدين يصبح فاسقًا, وهو نادر, وكم من فاسق يصبح صالحًا وهو الأكثر, وكم من مسلم قد يصبح كافرًا, وهو نادر جدا، ولا بد لذلك من سبب، ولكنه قد يقع، وهو أمر مشاهد معروف، وكم كافر يصير مسلمًا, وهو الأصل. وكل المسلمين كانوا في أول الأمر منتقلين من وثنية أو

[1] - مثل كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسي المتوفى سنة 456هـ.

[2]

مجوسية أو يهودية أو نصرانية. وكم من بلاد كاملة، انتقلت من ديانة إلى ديانة، مثل جزيرة العرب، التي انتقلت من الوثنية إلى الإسلام. والله سبحانه وتعالى يعلم تغير هؤلاء الناس, ومراحل هذا التغير, ويكتب لكل منهم ما يستحق ثوابًا وعقابًا.

والعلماء يختلفون أيضًا, فمنهم من يميل إلى الظاهر والحرفية, ومنهم من يتأول, ومنهم من يهتم بمقصد النص, ولا يتشبث باللفظ وحده, وعرف هذا الفقه وأصوله.

ومنهم من آتاه الله بصيرة فيما وراء الظواهر, ومنهم من لم يؤت كل ما أوتي ذلك, ولعل من أمثلة هؤلاء، الذين لكل منهم طريقته، ويجب أن يتعرف على طريقة الآخر: سيدنا موسى ورفيقه سيدنا الخضر عليهما السلام, اللذان ذكر الله قصتهما في سورة الكهف، حيث قال عن موسى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ

وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف:65-82].

علم الله ليس كعلم البشر, في كثير من أوصافه:

علم الله تعالى ليس كعلم خلقه من البشر، في كثير من أوصافه وخصائصه ومقوماته. فعلم الله ثابت لا يتغير, فما علمه الله عن شيء فهو يعلمه على حقيقته وصفته, كمًّا وكيفًا، ولونًا وعدًّا, ولو كان سيتغير لعلم الله أنه سيتغير، وكيف يتغير، وكم يتغير، ومتى يتغير، وإلى أي مدى يتغير.

ثم إن علم الله من ذاته, لا يحتاج إلى معلِّم, ولا إلى أداة, ولا إلى وقت، فهو يعلم ما يشاء، متى يشاء، كيف يشاء.

وكذلك علم الله لا يعتريه نقص أو تغيير أو اختلاط بمرور الأزمان والأعصار وملايين السنين, وما جاء في القرآن وغيره أن الله يبتلي الناس بالمحن والبلايا ليختبرهم، فلا يعني ذلك: أنه يجهل حالهم, ولكن يعاملهم كمعاملة المختبِر، وهو أعلم بهم منهم. كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد:31]. {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة:143].

فهو سبحانه صاحب العلم المحيط المستوعِب لكل شيء, في عالم الخلق والتكوين, أو في عالم الأمر والتشريع, كما قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:54].

ألا يعلم من خلق؟:

وهو الذي كشف لخلقه بعضَ ما أودعه في مخلوقاته, وأجَّل بعضه فأظهر كثيرا منه فيما توالى من العصور, وما زال بعضه يظهر إلى اليوم, كما قال تعالى في المركوبات: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:8]. فأخفى عنا كثيرًا من

وسائل الحمل وأدوات النقل, التي أظهر لنا كثيرًا منها في عصورنا الأخيرة, وما زال ينكشف لنا الكثير {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:8].

ما يتعلمه الناس عن طريق المشافهة, وما يتعلمونه عن طريق الكناية, وما يتعلمونه عن طريق الفكر, وما يتعلمونه عن طريق الحس, وما يتعلمونه عن طريق الحفظ, وما يتعلمونه عن طريق الجوارح, وما يتعلمونه عن طريق الخيال, كل ذلك قطرة في جانب بحر علم الله الواسع, الذي لا يحيط به شيء، وهو يعلم ما أظهروه وما أخفوه, وما يمكن أن يظهروه، لا يغيب عنه سر ولا علانية, ولا يخفى عليه خافية, كما قال تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:13-14] {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد:3].

علام الغيوب:

ويدخل في هذا الاسم (العليم)، أو هذه الصفة (العلم)؛ ما جاء في وصفه تعالى بقوله: {عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة:109، 116]. وقوله تعالى: {هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر:22].

وكل ما يبين من جهات العلم ما يوسِّع من شأن هذه الصفة، ويعلي من قدرها وعمقها واتساعها بين الناس، فهذا مما نرحب به، وهو لا يصف شيئا جديدا إلى الله، تباركت آلاؤه، وتقدَّست أسماؤه.

الله فعَّال لما يريد

كما أن الله تعالى على كل شيء قدير, لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء, فهو سبحانه الفعال لما يريد, كل ما في الكون بإرادته, وما يصدر عن الخلائق من خير أو شر, من طاعة أو معصية, فهو بمقتضى مشيئته, لا يقع شيء في كونه إلا بمشيئته التامة, كما قال تعالى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [الإنسان:30]. فمشيئتنا الإنسانية هي جزء من مشيئة الله العامة في الكون, فلسنا نعمل رغم مشيئة الله تعالى أو ضد مشيئة الله تعالى, ولكن بعض ما يشاء, سبحانه يرضيه ويحبه, وبعضه يقع بإرادته ومشيئته, ولكن لا يرضاه ولا يحبه, كما قال تعالى: **{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}** [الزمر:7]. فهو سبحانه يُمضي الكون وفق سننه التي يرعاها، وهي سنن عامة وثابتة، كما قال: **{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}** [فاطر:43].

وقال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}** [المائدة:1].

لا يستطيع أحد أن يُكرِه الله تعالى على شيء، لا يريد أن يقع أو لا يكون, ومن هذا الذي عنده القدرة على أن يُكرِه اللهَ جل جلاله على ما لا يريد؟ وكل من في الكون عُلوِيِّه وسُفلِيِّه هم عباده, وهم مخلوقون له, مسخرون بأمره ولأمره, ولو أراد أن يميتهم جميعًا في لحظة واحدة لفعل, ولكنه سبحانه وتعالى رتَّب هذا الكون ترتيبًا بديعًا وفق حكمته, على ما مضت به مشيئته, فالمشيئة هنا موافقة للحكمة, لا تنفصل عنها, فكل ما يطلب من القادر على كل شيء, الفعَّال لما يريد, المعطي والمانع لما يشاء ومن يشاء, لا بد أن يقع وفق حكمة الرب العليم الحكيم, الذي لا يفعل شيئًا اعتباطًا, ولا يخلق شيئًا باطلًا, ولا يترك شيئًا سدى، وإنما تقع مراداته عز وجل في هذا الكون وفق سنن ماضية, تسير المخلوقات كلها تبعًا لها, مرتبة بعضها على بعض, تبعًا لنظام حكيم, وترتيب متقن, **{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ**

شَيْءٍ} [النمل:88], {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [السجدة:7], وهي سنن عامة ثابتة, كما قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [آل عمران:137]، وكما ذكرنا قوله تعالى: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر:43].

ولذلك كانت أفاعيله تعالى في خلقه, وبلاياه بين خاصة عباده, تقع في هذه الدائرة, وقد يظن القائلون أنها وقعت عن غفلة, ولكن العارفين بمقام الله تعالى وسِعَة علمِه, وعُمْقِ حِكمتِه, يعرفون كل شيء له قدره المقدور, لا يُعلَم إلا في حينه.

انظر إلى ما جرى ليوسف عليه السلام في صغره من محن، ربما رآها الناس كثيرة على هذا الطفل الصغير الجميل البريء, الذي فقد أمه، ولكن الله كان يهيئه لأمر عظيم، لإنقاذ أقطار من الأرض من محنة اقتصادية، كادت ترديهم وتهلكهم، لولا وجود يوسف في مصر, وفي الموقف الذي يمكنه أن ينقذهم منه، فجلَّ من لا يعلم حكمته إلا هو.

الله يريد, والإنسان يريد, فكيف تكون للإنسان إرادة مع إرادة الله؟ هذا هو الذي جعل بعض الناس يصعَدون ويهبطون, ويقبضون ويبسطون, ويوسِّعون ويضيِّقون. فقد نظروا إلى أمر, ونسوا أمرًا آخر, وضيَّقوا في ناحية، ووسعوا في أخرى.

فالواقع أنَّ على العاقل أن يأخذ الأمر بكل ما فيه, وأن ينظر إليه باعتدال وتوازن, وأن يعطي كلَّ ذي حق حقه، ويسلِّم فيما لم يصل إليه علمه إلى من يعلمه ولا يخفى عليه.

فالله هو الخالق القادر على كل شيء, الفعال لمَّا يريد, العادل الذي لا يظلِم أبدًا, ولا يعاقب إنسانًا بغير ما فعل, ولا يضيع ثوابَ إنسان على ما فعله.

والإنسان هو المخلوق المربوب لخالقه, الذي يفعل بإرادته, والذي أعطاه الله الإرادة من عنده, كما أعطاه القدرة والعلم. فهو يدبِّر أعماله بإرادته في ضوء الإرادة الإلهية, ويتحمل نتيجة عمله الاختياري الذي ليس فيه إكراه ولا إجبار, ولو دخل فيه إجبار أو إكراه فلا إثم عليه, حتى الكفر يكره عليه لا عبرة به، {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل:106].

وكذلك من ألجأته الضرورة إلى الحرام, فلا إثم عليه, ولذا قال تعالى لمن أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو ما أُهِّلَ لغير الله به: **{فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [البقرة:173].

الله على كل شيء قدير

كما أن الله بكل شيء عليم, فهو على كل شيء قدير, فالقدرة من صفاته، والقدير من أسمائه الحسنى، وقد نطق بذلك القرآن العظيم، وأكدته السنة النبوية، وأجمعت على ذلك الأمة، كما قال تعالى: **{إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [البقرة:20، 106، 109، 148، 259]، وهو المقتدر أيضا كما قال تعالى: **{وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}** [الكهف:45]. وهو القادر أيضًا، كما في قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}** [الأنعام:65].

وهذه غير ما جاء في قوله تعالى: **{فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}** [المرسلات:23] فهذا من قَدَرَ اللهُ الشيءَ, أي: قدره, فهي من التقدير وليست من القدرة.

إنه لا يعجِز عن شيء من خلقه, من العقلاء أو غير العقلاء, ممن في الأرض أو في السماء, فكلهم عاجزون ضعفاء أمام قدرته, ومن تتمة هذه القدرة: أنه خلق كل بني آدم، كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}** [المؤمنون:12-16]. فخلق الإنسان الأول- وهو آدم عليه السلام- من طين، وفي الآيات: **{مِنْ تُرَابٍ}** [آل عمران:59]. وفي بعض الآيات: **{مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}** [الرحمن:14]. أو: **{صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}** [الحجر:26]. وكله صنف واحد: تراب انضم إليه ماء، فصار طينًا، ثم تحول الطين إلى ما تحول إليه، ثم سوَّى ذلك كله، ونفخ فيه من روحه، وبهذا تكوَّن

الإنسان الذي أراده الله خليفة في الأرض، كما قال تعالى في سورة الحجر: **{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}** [ص:71].

لا يَعجِز الله تعالى عن شيء أراد أن يخلقه أو يسويه ويكمله, كما قال تعالى: **{يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ}** [الزمر:6]. **{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}** [الشورى:31]. ويقول تعالى: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** [آل عمران:26–27].

ولهذا أعجب القرآن من إنكار المشركين عودة الحياة إلى الإنسان بعد موته, واستبعدوا قدرة الله على ذلك، وقدر رد الله تعالى عليهم فأفحمهم وأسكتهم: **{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [يس:77–83]. وقال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** [الروم:27]. وقال: **{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}** [ق:15].

بين الله تعالى للناس: أن الذي خلق الناس أول مرة, قادر على أن يعيدهم مرة أخرى, بل هو أهون عليه, وكل شيء هين عليه.

كما أن الذي خلق الأكوان العظيمة التي لا يعلم عظمها ولا اتساعها, ولا ما فيها من كواكب وملائكة ومخلوقات إلا الله: الذي خلق هذه الأكوان المنظمة البديعة, لا

يعجز أن يخلق الإنسان على ضعفه, كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر:57].

ثم إن الله تعالى لا يخلق بأدوات كأدواتنا, ولا بمحاولات كمحاولاتنا, بل أمره كما أخبرنا عن نفسه بين الكاف والنون: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82]. ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحج:5-6].

(والقدير اسمه, والقدرة صفته, والاقتدار فعله.

قال الحليمي: (القدير) المُظْهِر قدرتَه بفعلِ ما يقدر عليه, وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه, وإن كان يقدر على أشياء كثيرة لم يفعلها, ولو شاء لفعلها. فاستحق بذلك أن يسمى مقتدرًا.

وقال الخطابي: (المقتدر) هو التام الذي لا يمتنع عليه شيء, ولا يحتجز عنه شيء بمَنَعة وقوة. ومقتدر: وزنه مفتعل من القدرة, إلا أن الاقتدار أبلغ وأعمُّ؛ لأنه يقتضي الإطلاق, والقدرة قد يدخلها نوع من التضمين بالمقدور, فهو المقتدر يظهر بقدرته على المقدورات؛ ويعلو عليها فيغلبها. قال الله عز وجل: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [الرحمن:54-55]. فوصف سبحانه نفسَه بأنه الملك المقتدر عند البلوغ من مراده من عباده, وأشعرَ ذلك بدوام اقتدار إلى ما لا نهاية. وكذلك قوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف:45], مُشعِر بالأوائل والأواخر.

فالقدير: التام القدرة الذي لا يلابس قدرته عجز بحال, وهو الله عز وجل، فقدرته سبحانه لإيجاد الموجودات من الممكنات, وقوته وأمره لاستغنائه عن الاكتساب والمحاولات, واستعمال الجوارح والآلات, التي يمس من يستعملها في الاكتساب التعب والنصب واللغوب والضجر، فالقادر يدل على من له قدرة وتتضمن الحياة وجميع صفات الأفعال.

وأجمعت الأمة من أهل السنة: أن الله قادر على كل شيء مقدور عليه، موجودًا كان أو معدومًا, خيرًا كان أو شرًّا, حسنًا كان أو قبيحًا, لم يشركه في خلق ذلك شريك, ولم يستظهر عليه بظهير, وما كان جلَّ جلالُه ليتخذ المضلين عضُدًا, بل هو الغنيُّ الحميد, خلق القادرين سواه, المتصفين بالقدرة، وخلق قُدَرهم, فهو سبحانه الموصوف بالقدرة على الإبداع كله, والإيجاد كله, والخلق كله, والقادرون سواه غير موصوفين بالقدرة على شيء من ذلك كله, إلا على مقدور يسمى: الكسب. وكل ذلك مقدور للقادر الحق, خلقهم وخَلَق قُدَرَهم وعملهم وما يعملون, على هذا انعقد إجماع المهتدين, وأصفق عليه إصفاق العالمين[1].

ثم خَرَقَ الإجماعَ عقلٌ قاصر, وذهن خاسر, فقالوا بخلق أفعالهم من أنفسهم، بقدرة يحدثها الله تعالى لهم. (وهو ما قاله المعتزلة).

قال ابن العربي: والخلاف بيننا وبينهم في أصل واحد, وهو أن الله تعالى خالق أعمال العباد عندنا بقدرته, خيرها وشرها, وهم يقولون: إن الله قدَّر الخير والشر, ولكنه لم يخلقه ولا أوجده, وإنما خلق للعباد قدرة يخلقون بها ما يشاؤون, ولهذا سمُّوا قدرية؛ لأنهم جعلوا القدرة والخلق لأنفسهم. ويقولون كما نقول: آمنتُ بالقدر خيره وشره. وعِلْم الله للأشياء عندهم، وخلقه لها عندنا. أما علمه بها فاتفاق منا ومنهم. وأرادها عندنا, ولم يردها عندهم.

فالخلاف بيننا وبينهم في تعلق القدرة والإرادة بالشرور والمعاصي, تعالى الله عن قولهم، فأثبتوا له شركاء، قالوا: الله يخلق وهم يخلقون، تعالى الله عما يصفون، قال الله تعالى: **{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }** [القمر:49]. وقال:

[1] - قال صاحب اللسان (صفق): أصفقوا على الأمر: اجتمعوا عليه.

{وَّالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات:96]. وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق:1-2].

فيجب على كل مكلَّف أن يعلم: أن الله سبحانه قادرٌ له قدرة واحدة, بها فعل ويفعل ما يشاء من المقدورات، على وَفْق علمه واختياره, كما هو يعلم المعلومات بعلم واحد, ويريد المرادات بإرادة واحدة, وليس من صفاته قصور, ولا في أسمائه نقص ومَيْن[1]. البريء من كل عيبٍ وشَيْن.

ثم يجب عليه أن يعلم: أن للعبد قدرةً يكتسب بها ما أقدره الله عليه على مجرى العادة, قال الله تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف:72]. {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف:39]. إلا أن قدرة أحدهم ناقصة, تشغل قدرة أحدهم مقدورًا واحدًا, وكذلك يشغل علمه معلومًا واحدًا, وإرادته مرادًا واحدًا, وهي مع ذلك طارئة على محلها لا يوجدها القادر الحق للقادر بها الذي هو محلها، إلا وقت ما يفعل، لا قبل ذلك، ولا بعده، وهي عرض من الأعراض لا تبقى.

تعامل العبد العاجز مع ربه القادر:

وإذا علم العبد أن ربه عز وجل قادر، وأنه لا يعجزه مقدور، ولا يجوز أن يخرج مقدور عن قدرته، فيخاف عذابه، وأنه قدير على أنواع العذابات والعقوبات فلا يأمنه، وكذلك فلا ييئس من رحمته. وارجُه رجاءَ من يُعلَم أنه قادر على توصيل كل مرجوٍّ، وإنالة كل محبوب، على أحسن المآخذ، وألطف المسالك، واسألْه يملأْ قلبك رجاءً له، ومخافة منه)[2].

---

[1] - المَيْن: الكذب. انظر اللسان (مين).
[2]

الله الرحمن الرحيم

{هُوَ ٱللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر:22].

من أسماء الله تعالى الحسنى الدالة على صفاته العليا: الرحمن الرحيم, وهما الاسمان الكريمان للذات الإلهية, اللذان أصبحا جزءًا من (البسملة) الإسلامية المحفوظة, التي يفتتح بها المسلمون أعمالهم، حتى إذا أكلوا أو شربوا، والتي ابتدأ بها القرآن الكريم الفاتحة أولى سُوَرِه, والتي وُضعَتْ في أول كل سورة من القرآن, إلا سورة التوبة؛ لأنها سورة جاءت تلغي عهود الكفار، وتنذرهم بقتال ضَارٍ لا توقف فيه, فلا مجال للتسمية في هذه السورة بذكر هذين الاسمين: الرحمن الرحيم.

وقد تكرر هذان الاسمان واقترنا كثيرًا في السنة النبوية الصحيحة، وأجمعت عليهما الأمة.

وهما قد وردا في فاتحة الكتاب, وتكررا معًا مرات, في كل بسملات القرآن وفي غيرها، وذكر اسم الرحمن وحده في القرآن 57 مرة, وذكر اسم الرحيم 94 مرة معرَّفًا ومنكَّرًا, وذُكر مرة واحدة منكَّرًا وصفًا للرسول محمد {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:128]. وذكر القرآن (رحيمًا) في حالة النصب 20 مرة.

والرحمن هو اسم من أسماء الذات الإلهية كاسم الله, ولذا قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا ٱللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء:110]. وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان:60]. وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن:1-4].

كما ترى يتعامل القرآن مع اسم (الرحمن) كما يتعامل مع اسم (الله) مفردًا وحده، في آيات كثيرة, كما في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:5]. {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا}

[مريم:85]. {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم:93]. وقال تباك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم:96].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أحب الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله وعبد الرحمن". يحث المسلمين على أن يسموا أبناءهم باسم عبد الله، واسم عبد الرحمن، ويقاس عليها سائر الأسماء المنصوص عليها.

رحمة الله ورحمة الإنسان:

والرحمة في الإنسان, هي: الرقة في القلب التي تبعث للرفق بالضعيف والمغلوب، والتجاوب مع مواقف الحق ونصرة المستضعفين.

ولكن الرحمة بالنسبة إلى الله تعالى: هي من صفاته الثبوتية، التي توجب تعامل الله مع عباده بالحلم والمغفرة واللين والسماحة, فلا يعاجلهم بالعقوبة, بل يعفو ويصفح، ويغفر ويمهل, ويتوب على من تاب, ويقبل القليل من الطاعة, ويعفو عن الكثير من المعصية, ومن استتر بذنبه ولم يجاهر به كان أقرب إلى عفو الله. وهي التي بها يرزق الله الناس والدواب والطير والأسماك والحشرات {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود:6]. {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [الشورى:25-26].

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:53].

وصف القرآن الله تعالى بأنه أرحم الراحمين, وأنه خير الراحمين, كما قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام حين قال لأبنائه: {فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف:64].

وقال يوسف عليه السلام لإخوته حين قالوا له: {لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف:91-92].

وقال موسى عليه السلام: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف:151].

وقال القرآن على لسان أيوب: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء:83].

وقال تعالى على لسان المؤمنين: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} [المؤمنون:109].

وقال الله تعالى في ختام السورة لرسوله محمد، ولكل من يصلح للخطاب بعده: {وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} [المؤمنون:118].

ومما تحدث به القرآن: وصف هذه الرحمة التي اتصف الله تعالى بها بالسعة المطلقة, التي تسع كل شيء بهذا الإطلاق: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف:196].

وقال تعالى على لسان الملائكة الذين يدعون في سماواته لعباده المؤمنين في الأرض من بني آدم: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر:7].

وجاء في آثار سعة الرحمة الإلهية لكل شيء, وسعتها لغضب الله الحديث القدسي الذي يرويه النبي عن ربه عز وجل: "قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي"[1].

ومما نراه من آثار ذلك: أن {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

1

وَهُمْ لَا يُظْلَمُـــونَ} [الأنعام:160]. فالسيئة تجزى بسيئة مثلها، أو يعفو الله عنها، أو يتوب العبد منها، أو يشفع له الملائكة أو الأنبياء أو المؤمنون فيها.

وأن السيئة إذا أقبل عليها الإنسان ثم غلب عليه خوف الله وحساب الآخرة, فتركها, تكتب في ميزان حسناته.

وأن الحسنة يمكن أن تضاعف أكثر من عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله, كما قال تعالى في وصف الصدقة في سبيل الله: {مَثَلُ الَّـــذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:261].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًـــا} [النساء:40]. وما يصفه الله جل شأنه بالعظمة، فهو شيء فوق تصورنا للعظمة.

فالله لا يضيع ثواب الحسنة يقدمها الإنسان الصالح، وإن كانت مثقال ذرة, أو مثقال حبة خردل، ويضاعف له أجرها, بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما هو أكثر, ثم يزيد على ذلك ليؤتى من لدنه أجرًا عظيمًا.

وهكذا ترى في مجال الحسنات يُعامِل بغَيْرِ ما يعامل به السيئات؛ الحسنات تضاعف وتزداد: بالنية, وبدعاء الصالحين, أو بمصاب المصابين، وبأسباب كثيرة, ولكن السيئة لا تضاعف ولا تزداد على المكلَّف, بل إن الله تعالى بأدنى الأشياء يزيلها, ولو بشفاعة الشافعين, أو بدعاء الصالحين, أو بفضله ورحمته، وهو أرحم الراحمين.

قال الإمام الغزالي عن الرحمن والرحيم: (الرحمن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة, والرحمة تستدعي مرحومًا, ولا مرحوم إلا وهو محتاج, والذي ينقضي بسببه حاجة المحتاج من غير قصد وإرادة, وعناية بالمحتاج؛ لا يسمى رحيمًا, والذي يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها, فإن كان قادرًا على قضائها لم يُسَم رحيمًا؛ إذ لو تمت الإرادة لَوَفَّى بها, وإن كان عاجزًا فقد يسمى رحيمًا باعتبار ما اعتوره من الرقة, ولكنه ناقص.

وإنما الرحمة التامة: إفاضة الخير على المحتاجين، وإرادته لهم؛ عناية بهم، والرحمة العامة هي التي تتناول المستحق وغير المستحق, المؤمن والكافر، ورحمة الله عز وجل تامة وعامة؛ أما تمامها, فمن حيث إنه أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها, وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق, وعمَّ الدنيا والآخرة, وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنهما, فهو الرحيم المطلق حقًّا.

أثر الرحمة في مجتمعات المسلمين:

وكل من يتأمل في الأمة المسلمة، وفي المجتمعات الإسلامية، المتأثرة بالعقيدة الإسلامية، والمفاهيم الإسلامية، والمشاعر الإسلامية، وباسمي الرحمن الرحيم، وآثار وصف الله تعالى بالرحمة التي وسعت كل شيء، وبأنه أرحم الراحمين، وخير الراحمين، وبأن رحمته سبقت غضبه، وبأنه الغفور الرحيم.. من يتأمل هذه المعاني كلها في المسلمين، لا شك أنه سيجد آثارها في تعاطف الناس بعضهم مع بعض، وفي رحمة القوي بالضعيف، والغني بالفقير، والقادر بالعاجز، ويرى آثار الأوقات الإسلامية، والزكاة الإسلامية، والصدقات الإسلامية في كل مكان. وسيعلم أن هذا التراحم بركات تعلق المسلمين باسمي الرحمن الرحيم، وعملهم ما استطاعوا بموجب ما ينبغي أن يعملوه حفاظًا عليهما، وعلى مقتضى أثرهما في الأمة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[1].

رحمة الله غير رحمتنا:

ذكر الغزالي هنا: (دقيقة) مهمة فقال: (الرحمة– أي: بالنسبة للإنسان– لا تخلو عن رقة مؤلمة تعتري الرحيم, فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم. والرب سبحانه وتعالى منزه عنها, فلعلك تظن أن ذلك نقصان في معنى الرحمة, فاعلم أن ذلك كمال، وليس بنقصان في معنى الرحمة.

أما أنه ليس بنقصان فمن حيث إن كمال الرحمة بكمال ثمرتها, ومهما قُضيت حاجة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حظ في تألم الراحم وتفجعه, وإنما تألم الراحم

1

لضعف نفسه ونقصانها, ولا يزيد ضعفها في غرض المحتاج شيئًا, بعد أن قُضِي كمال حاجته.

وأما أنه كمال في معنى الرحمة, فهو أن الرحيم عن رقة وتألم يكاد يقصد بفعله دفع ألم الرقة عن نفسه, فيكون قد نظر لنفسه وسعى في غرض نفسه, وذلك ينقص عن كمال معنى الرحمة، بل كمال الرحمة أن يكون نظره إلى المرحوم لأجل المرحوم، لا لأجل الاستراحة من ألم الرقة.

الرحمن أخص من الرحيم:

ثم ذكر الإمام الغزالي (فائدة) فقال: (الرحمن أخص من الرحيم؛ ولذلك لا يسمى به غير الله عز وجل، والرحيم قد يطلق على غيره، فهو من هذا الوجه قريب من اسم الله تعلى الجاري مجرى العَلَم, وإن كان هذا مشتقًّا من الرحمة قطعًا، ولذلك جمع الله عز وجل بينهما, فقال: **{قُلِ ادْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الإسراء:110]. فيلزم من هذا الوجه, ومن حيث منعنا الترادف في الأسماء المحصاة, أن يفرق بين معنى الاسمين.

فبالحري أن يكون المفهوم من الرحمن نوعًا من الرحمة هي أبعد من مقدروات العباد, وهي ما يتعلق بالسعادة الأخروية, فالرحمن هو العطوف على العباد, بالإيجاد أولًا, وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانيًا, وبالإسعاد في الآخرة ثالثًا, والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعًا.

حظ العبد من اسم (الرحمن) واسم (الرحيم):

قال (تنبيه آخر): (حظ العبد من اسم الرحمن: أن يرحم عباد الله الغافلين, فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله عز وجل, بالوعظ والنصح, بطريق اللطف دون العنف, وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإزراء, وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة له في نفسه, فلا يألو جهدًا في إزالتها بقدر وُسْعه, رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله ويستحق البُعْد من جواره.

وحظه من اسم الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته, ولا يترك فقيرًا في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره, إما بماله, أو جاهه, أو السعي في

حقه بالشفاعة إلى غيره, فإن عجز عن جميع ذلك, فيعينه بالدعاء, وإظهار الحزن بسبب حاجته, رقة عليه وعطفًا, حتى كأنه مُساهِم له في ضُرِّه وحاجته).

الله أرحم الراحمين:

بيَّن القرآن الكريم سَعة رحمة الله تعالى, فإنه تعالى أرحم الراحمين, وخير الراحمين, فقال تعالى: **{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [الأعراف:156]. وقال على لسان الملائكة: **{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}** [غافر:7]. وقال على لسان نبيه يعقوب وهو يوصي أبناءه: **{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [يوسف:64]. ويقول سبحانه على لسان يوسف وهو يحدث إخوته: **{قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [يوسف:92]. ويقول على لسان موسى: **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [الأعراف:151]. وعلى لسان أيوب: **{إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [الأنبياء:83]. وقد أمر خاتم النبيين محمدًا أن يقول: **{رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}** [المؤمنون:118]. وعلَّم أتباعَه المؤمنين أن يقولوا: **{رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}** [المؤمنون:109].

الغزالي يسأل ويجيب:

قال رحمه الله: (لعلك تقول: ما معنى كونه تعالى رحيمًا, وكونه أرحم الراحمين؛ والرحيم لا يَرى مبتلًى ومضرورًا ومعذَّبًا ومريضًا, وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته, والرب سبحانه وتعالى قادر على كفاية كل بلية, ودفع كل فقر وغُمَّة, وإماطة كل مرض, وإزالة كل ضرر, والدنيا طافحة بالأمراض والمحن والبلايا, وهو قادر على إزالة جميعها, وتاركٌ عبادَه ممتَحنين بالرزايا والمحن؟

(فجوابُك): إن الطفل الصغير قد ترقُّ له أمه فتمنعه عن الحجامة, والأب العاقل يحمله عليها قهرًا, والجاهل يظن أن الرحيم هي الأم دون الأب, والعاقل يعلم أن إيلام

الأب إياه بالحجامة من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته, وأن الأم له عدو في صورة صديق, فإن الألم القليل إذا كان سببًا للَّذة الكثيرة, لم يكن شرًّا؛ بل كان خيرًا.

والرحيم يريد الخير للمرحوم لا محالة, وليس في الوجود شر إلا وفي ضمنه خير, لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذي في ضمنه, وحصل ببطلانه شر أعظم من الشر الذي يتضمنه, فاليد المتآكلة قطعُها شر في الظاهر, وفي ضمنه الخير الجزيل, وهو سلامة البدن, ولو تُرِكَ قطعُ اليد لحصل هلاك البدن, ولكان الشر أعظم.

وقطع اليد لأجل سلامة البدن شر في ضمنه خير, ولكن المراد الأول السابق إلى نظر القاطع السلامةُ التي هي خيرٌ محض, ثم لما كان السبيل إليه قطع اليد, قصد قطع اليد لأجله, فكانت السلامة مطلوبةً لذاتها أولًا, والقطع مطلوبًا لغيره ثانيًا, لا لذاته, فهما داخلان تحت الإرادة, ولكن أحدهما مراد لذاته والآخر مراد لغيره.

والمراد لذاته قبل المراد لغيره؛ ولأجله قال الله عز وجل: "سبقت رحمتي غضبي". فغضبه إرادته للشر, والشر بإرادته, ورحمته إرادته للخير, والخير بإرادته. ولكن إذا أراد الخير للخير نفسه, وأراد الشر لا لذاته ولكن لما في ضمنه من الخير؛ فالخير مقضيٌّ بالذات والشرُّ مقضيٌّ بالعَرَض, وكلٌّ بقدرٍ, وليس في ذلك ما ينافي الرحمة أصلًا.

فالآن؛ إن خطر لك نوع من الشر لا ترى تحته خيرًا، أو خطر لك أنه كان تحصيل ذلك الخير ممكنًا لا في ضمن الشر, فاتَّهم عقلك القاصر في أحد الخاطرَيْن.

أما في قولك: إن هذا الشر لا خير تحته, فإن هذا مما تقصرُ العقول عن معرفته, ولعلك فيه مثل الصبي الذي يرى الحجامة شرًّا محضًا, أو مثل الغبي الذي يرى القتل قِصاصًا شرًّا محضًا؛ لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول؛ لأنه في حقه شر محضٌ, ويذهَلُ عن الخير العام الحاصل للناس كافة, ولا يدري أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض لا ينبغي للغير أن يهمله.

أو اتهم عقلك في الخاطر الثاني, وهو قولك: إن تحصيل ذلك لا في ضمن ذلك الشر ممكن, فإن هذا أيضًا دقيق غامض, فليس كل محال وممكن مما يُدرك إمكانه

واستحالته بالبديهة ولا بالنظر القريب؛ بل ربما عُرِف ذلك بنظر غامض دقيق يقصر عنه الأكثرون.

فاتَّهم عقلك في هذين الطرفَيْن, ولا تشكنَّ أصلًا في أنه أرحم الراحمين, وفي أنه سبقت رحمته غضبه, ولا تَستَرِيبَنَّ في أن مريد الشر للشر لا للخير غير مستحق لاسم الرحمة, وتحت هذا الغطاء سرٌّ مَنَع الشرع عن إفشائه, فاقنع بالإيماء، ولا تطمع في الإفشاء, ولقد نُبِّهْتَ بالرمز والإيماء, إن كنت من أهله، فتأمل.

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا   ولكن لا حياةَ لمن تنادي

هذا حكم الأكثرين، وأما أنت أيها الأخ المقصود بالشرح, فلا أظنك إلا مستبصرًا بسِرِّ الله عز وجل في القَدَر، مستغنيًا عن هذه التحويمات والتنبيهات)[1].

1

الله الملك القدوس

1-المَلِك:

اسم (الملك) واسم (القدوس) من أسماء الله الحسنى, التي تكررت في القرآن, وصحت في السُّنَّة, وأجمعت عليها الأمة، فأحيانا يجمع بينهما القرآن كما قال تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}** [الحشر:23]. **{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [الجمعة:1]. وأحيانا يفرد الله تعالى المَلِك بالذكر، كما قال تعالى: **{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}** [المؤمنون:116]. والملك هو: المالك لجميع الأشياء في السماوات والأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، بلا ممانعة ولا مؤاخذة. وأحيانًا يذكر اسم الملك وحده كما قال عز وجل: **{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ}** [طه:114].

وقد أعطى الله المُلك في القرآن لبعض الناس الذين يُسَمَّوْن باسم الملوك, ولكنه ملك ناقص؛ لأنه يملك الظاهر، ولا يملك الباطن, يملك أن يقيد يدك، ولا يملك أن يقيد فكرك، وهو يملك بعض الناس، ولا يملك البعض الآخر, ولأنه مُلك محدود، ثم يزول عنه الملك, أو يزول هو عن المُلك, ولو بقي لغيره ما وصل إليه. قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}** [البقرة:258]. قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا}** [البقرة:247]. وقال تعالى: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران:26]. وقد حكي عن هارون الرشيد، الذي كان يعتبر أعظم ملوك الدنيا في عصره، أنه حين قرُب من الاحتضار كان يقول: **{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}** [الحاقة:28-29]. وعن المأمون بن هارون الرشيد أنه كان يقول وهو على فراش الموت: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه!

وكثيرًا ما رأينا الملوك المتجبرين في الأرض، وهم في ذل أحقر الناس وأضعفهم حينما ينزل بهم مرض الموت.

وقال سليمان: **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** [ص:35]. فكان له الملك الذي سُخِّرَ له فيه الجن والإنس والطير, وسُخِّرت له الريح, وعُلِّم كلام الطيور والحشرات, وهذ المُلك الظاهر لبعض الناس إنما هو شيء يسير ومحدود في هذه الدنيا, ثم يصبح المُلك كله يوم القيامة لله, فلا ينازعه أحد, **{ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}** [طه:93]. **{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [غافر:16]. حين يقول الله في ذلك اليوم العظيم: لمن الملك اليوم؟ لا يستطيع أحد أن يتكلم أو يدعي أن له مُلْكًا أو كان له ملك, فيرد الله تعالى: لله الواحد القهار.

ونقرأ في فاتحة الكتاب في الثناء على الله تعالى: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [الفاتحة:3] قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة, فهو الملك وحده في هذا اليوم.

والقراءة الأخرى: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**، وهي قراءة بقية القُرَّاء السبعة، وهو في الحقيقة: الملك والمالك, كما قال تعالى: **{رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ}** [الناس:1–3]. وقال: **{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** [الانفطار:19].

قال الإمام الغزالي في شرح معنى (الملك): (هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود, ويحتاج إليه كل موجود؛ بل لا يستغني عنه شيء في شيء, لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في وجوده ولا في بقائه؛ بل كل شيء فوجوده منه، أو مما هو منه, فكل شيء سواه هو له مملوك في ذاته وصفاته, وهو مستغن عن كل شيء, فهذا هو المَلِك مطلقًا).

هل للإنسان شيء من الملك؟

ثم أورد تنبيهًا قال فيه: (العبد لا يتصور أن يكون مَلِكًا مطلقًا, فإنه لا يستغني عن كل شيء, فإنه أبدًا فقير إلى الله تعالى، وإن استغنى عمَّن سواه. ولا يتصور أن يحتاج إليه كل شيء, بل يستغني عنه أكثر الموجودات, ولكن لما تُصُوِّر أن يستغني عن بعض الأشياء ولا يستغني عنه بعض الأشياء, كان له شوب من المُلْك.

فالمَلِك من العباد هو الذي لا يملكه إلا الله تعالى, بل يستغني عن كل شيء سوى الله عز وجل, وهو مع ذلك يملك مملكته بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه, وإنما مملكته الخاصة به قلبه وقالبه، وجنده شَهْوَته وغضبه وهواه، ورعيته لِسَانه وَعَيناهُ ويداه وَسَائِر أَعْضَائِهِ، فَإِذا ملكهَا وَلم تملكه، وأطاعته وَلم يطعها، فقد نَالَ دَرَجَة الْملك فِي عالمه، فَإِن انْضَمَّ إِلَيْهِ استغناؤه عَن كل النَّاس، وَاحْتَاجَ النَّاس كلهم إِلَيْهِ فِي حياتهم العاجلة والآجلة، فَهُوَ الْملك فِي عَالم الأَرْض.

وَتلك رُتْبَة الْأَنْبِيَاء صلوَات الله عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ، فَإِنَّهُم استغنوا فِي الْهِدَايَة إِلَى الْحَيَاة الْآخِرَة عَن كل أحد، إِلَّا عَن الله عز وَجل، وَاحْتَاجَ إِلَيْهِم كل أحد، ويليهم فِي هَذَا الْمُلك الْعلمَاء الَّذين هم وَرَثَة الْأَنْبِيَاء، وَإِنَّمَا ملكهم بِقدر قدرتهم على إرشاد الْعباد، واستغنائهم عَن الاسترشاد.

وبهذه الصِّفَات يقرب العَبْد من الْمَلَائِكَة فِي الصِّفَات، ويتقرب إِلَى الله تَعَالَى بهَا، وَهَذَا الْملك عَطِيَّة للْعَبد من الْملك الْحق الَّذِي لَا مثنوية فِي ملكه).

القدوس:

و(القدوس) اسم من أسماء الله الحسنى المذكور بوضوح مع جملة من الأسماء مقترنًا باسم (المَلِك) في أواخر سورة الحشر, كما قال تعالى: **{هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ}** [الحشر:23]. وهو مذكور كذلك في سورة الجمعة[1]، ومذكور – أيضًا – في السنة، وأجمعت عليه الأمة.

وهو على وزن (فُعُّول) من مادة أو فعل (قَدُس). فهو المقدَّس أو المنزه أو المتقدس أو المتنزه عن كل ما لا يليق بكماله وجماله وجلاله, ولذا قال بعض

1

السلف: القدوس بمعنى الطاهر، أي من كل عيب ودنس. وقال بعضهم: المبارك، كما في القرآن: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان:1]. وتكررت كلمة (تبارك) لله تعالى عدة مرات. وقال بعضهم: القدوس من تقدّسه الملائكة الكرام. ولم يجئ في القرآن اسم على هذه الصيغة (فُعُّول) إلا اسم القدوس. وجاء في السنة اسم: السُّبُّوح، على وزن القدوس، كما جاء في تسبيح الرسول صلى الله عليه وسلم في الركوع: "سُبُّوح قدوس، رب الملائكة والروح"[1].

قال الغزالي: (هو المنزه عن كل وصف يدركه حس, أو يتصوره خيال, أو يسبق إليه وهم, أو يختلج به ضمير, أو يفضي به تفكر. ولست أقول: منزه عن العيوب والنقائص, فإن ذكر ذلك يكاد يقرُب من ترك الأدب, فليس من الأدب أن يقول القائل: ملك البلد ليس بحائكٍ ولا حجَّام, فإن نَفْيَ الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود, وفي ذلك الإيهام نقص)[2].

بل أقول: القدوس هو المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال الذي يظنه أكثر الخلق كمالًا في حقه؛ لأن الخلق أولًا نظروا إلى أنفسهم وعرفوا صفاتهم, وأدركوا انقسامها إلى ما هو كمال, ولكنه في حقهم, مثل علمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وكلامهم وإرادتهم واختيارهم, ووضعوا هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني, وقالوا: إن هذه هي أسماء الكمال. وإلى ما هو نقص في حقهم, مثل جهلهم وعجزهم وعماهم وصممهم وخرسهم, فوضعوا بإزاء هذه المعاني هذه الألفاظ.

ثم كان غايتهم في الثناء على الله تعالى ووصفه أن وصفوه بما هو أوصاف كمالهم, من علم وقدرة وسمع وبصر وكلام, وأن نَفَوْا عنه ما هو أوصاف نقصهم, والله سبحانه وتعالى منزَّه عن أوصاف كمالهم, كما أنه منزَّه عن أوصاف نقصهم؛ بل كل صفة تُتَصور للخلق, فهو منزَّه ومقدس عنها، وعما يشبهها ويماثلها, ولولا ورود الرخصة والإذن بإطلاقها لم يجز إطلاق أكثرها.

1

2

ومما ينبغي أن نؤكده هنا من التقديسات الواجبة لله تعالى: أنه سبحانه وتعالى فوق كل إدراكاتنا, ولا يستطيع أن يصل تصورنا في معرفة كمالاته التي لا تتناهى, فأولى ما نقوله أن نقول ما اعترف به رسولنا المعلِّم, حين قال: "سبحانك لا أحصي ثناء عليك, أنت كما أثنيت على نفسك"[1].

والقدوس هو الذي تقدسه الخلائق كلها: تقدسه الملائكة في السماوات وتنزهه {يُسَبِّحُوْنَ الْلَّيْلَ وَالْنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء:20]. وتقدسه الأنبياء والرسل، وأتباعهم من المؤمنين, الذين يقدسون الله وينزهونه بعقولهم وقلوبهم وألسنتهم، كما كان يقول رسول الله في ركوعه: "سبوح قدوس.." –الحديث الذي ذكر آنفًا– وكما تعلمه منه المسلمون، وقالوه في صلواتهم، وذكرهم ودعائهم, ويقدسه الجنُّ المؤمنون, كما حكى القرآن: {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} [الجن:3]. والله جل شأنه قبل هؤلاء جميعًا, وبعد هؤلاء كلهم – يقدِّس نفسَه, ويسبِّح نفسَه, وكفى بتسبيحه تسبيحًا، وبتقديسه تقديسا.

حظ العبد من اسم القدوس:

ومما نبَّه عليه الغزالي هنا قوله: (قُدْسُ العبدِ [أي: في هذا المقام] في أن ينزه إرادته وعلمه؛ أما علمه فينزهه عن المتخيلات والمحسوسات والموهومات، وكل ما يشاركه فيه البهائم من الإدراكات؛ بل يكون تردد نظره وتطواف علمه حول الأمور الأزلية الإلهية المنزهة عن أن تقرُب فتدرك بالحس, أو تبعد فتغيب عن الحس؛ بل يصير متجردًا في نفسه عن المحسوسات والمتخيلات كلها, ويقتني من العلوم ما لو سلب آلة حسه وتخيله بقي ريَّانًا بالعلوم الشريفة, الكلية الإلهية, المتعلقة بالمعلومات الأزلية الأبدية, دون الشخصيات المتغيرة المستحيلة.

وأما إرادته, فينزهها عن أن تدور حول الحظوظ البشرية التي ترجع إلى لذة الشهوة والغضب, ومتعة المطعم والمشرب والمنكح والملبس والملمس والمنظر, وما لا يصل إليه من اللذات إلا بواسطة الحس والقلب؛ بل لا يريد إلا الله عز وجل, ولا يبقى له حظ إلا فيه, ولا يكون له شوق إلا إلى لقائه، ولا فرح إلا بالقرب منه, ولو

1

عُرضت عليه الجنة وما فيها من النعيم لم تلتفت همته إليها، ولم يقنع من الدار إلا برب الدار.

وعلى الجملة, الإدراكات الحسية والخيالية تشارك البهائم فيها, فينبغي أن يترقى عنها إلى ما هو من خواص الإنسانية, والحظوظُ البشرية الشهوانية يزاحم البهائمَ أيضًا فيها, فينبغي أن يتنزَّه عنها, فجلالة المُريدِ على قدر جلالة مُراده، ومَنْ هِمَّتُه ما يدخل في بطنه, فقيمته ما يخرج منه, ومن لم يكن له همة سوى الله عز و جل, فدرجته على قدر هِمَّته, ومن رقَّى عِلْمَه عن درجة المتخيَّلَات والمحسوسات, وقدَّس إرادته عن مقتضى الشهوات, فقد نزل بَحْبوحة حظيرة القدس)[1].

1

الله السلام المؤمن المهيمن

يقول تعالى: {هُوَ ٱللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[الحشر:23].

1- السلام:

من أسمائه تعالى الحسنى, التي جاء بها القرآن والسنة, وأجمعت عليها الأمة: اسما: السلام والمؤمِن, وهما من الأسماء التي وردت في أواخر سورة الحشر. فما معنى السلام؟ وما معنى المؤمن؟

السلام مصدر من: سَلِمَ يَسْلَم, إذا لم يصبه أذًى أو ضررٌ أو شررٌ, ماديٌّ أو معنويٌّ. والله تعالى هو السالم من جميع العيوب والنقائص والأدناس؛ لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، السالم من كل نقص أو عيب، أو أذى يمكن أن يوجِّهه إليه ملحد أو كافر، بل هو السلام نفسُه, وقد سمَّى نفسه السلام, وانتسب الناس إليه، فسموا أبناءهم عبد السلام, والجنة دار السلام، على معنى أنها: دار الله تعالى، أو السلامة التامة، {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنعام:127]. {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا} [مريم:62]).

قال الغزالي في شرح اسم (السلام): (هو الذي تسلَمُ ذاتُه عن العيب، وصفاتُه عن النقص، وأفعالُه عن الشر, حتى إذا كان كذلك, لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت مَعْزِيَّة إليه, صادرةً منه, وقد فهمتَ أن أفعاله تعالى سالمة عن الشر, أعني الشر المطلق المراد لذاته, لا لخير حاصل في ضمنه أعظم منه, وليس في الوجود شر بهذه الصفة- كما سبق الإيماء إليه[1]- إلا لله سبحانه)[2].

ولهذا كان الإسلام دين السلام للبشر كلهم, قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة:208].

قال الغزالي: (كل عبدٍ سَلِم عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبُه, وسلمت عن الآثام والمحظورات جوارحُه, وسلِمَ عن الانتكاس والانعكاس صفاتُه, فهو الذي

1

2

يأتي الله تعالى بقلب سليم، وهو السلام من العباد, القريب في وصفه من السلام المطلق الحق، الذي لا مثنوية في صفته.

وأعني بالانتكاس في صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه، إذ الحق عكسه, وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه, فإذا انعكس فقد انتكس, ولا سلامة حيث يصير الأمير مأمورًا، والمَلِك عبدًا, ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده، فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه؟!)[1].

2- المؤمن:

والمؤمن: اسم فاعل من (آمَنَ) على وزن (أَفْعَلَ) بزيادة همزة التعدية, وهو مشتق من فعل (أَمِن) يأمَن أمنًا، كما قال تعالى: **{ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** [قريش:4]. فالمؤمن هو الذي يؤمِن الخائفينَ, وهو الذي يهب لهم الأمن من عنده, فلا يستطيع مخلوق أن يدخل عليهم القلق والرعب والخوف. قال تعالى: **{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاَّلله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}** [آل عمران:151]. فرعب القلوب هنا إنما هو بسبب الإشراك بالله, أما المؤمن فلا يرعبه شيء ما دام محصَّنًا بالإيمان بالله تعالى. كما قال تعالى في مدح أوليائه من العلماء الربانيين: **{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ّالله وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ّالله وَكَفَى بِاَّلله حَسِيبًا}** [الأحزاب:39]. كما قال تعالى في وصف عباده المؤمنين: **{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}** [الأنعام:82]. وقد ظن بعض الصحابة أن الظلم المعني في الآية هو المعصية، فأهمهم النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد به الشرك، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه: **{يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاَّلله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}**

1

[لقمان:13](1). وبهذا يكون معنى الآية واضحًا تمامًا: أنهم لم يلوِّثوا إيمانهم بأي شرك بالله تعالى، بل وحدوا ربهم غاية التوحيد.

وبهذا وقف إبراهيم أمام قومه وقفة المؤمن القوي الذي لا يخاف أحدًا غير الله: **{كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [الأنعام:81].

قال الإمام الغزالي: (المؤمن: هو الذي يُعزَى إليه الأمن والأمان, بإفادته أسبابَه, وسده طرق المخاوف, ولا يُتصور أمن وأمان إلا في محل الخوف, ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك, والمؤمن المطلق هو الذي لا يُتصور أمنٌ وأمان إلا ويكون مستفادًا من جهته, وهو الله عز وجل.

وليس يخفى أن الأعمى يخاف أن يناله هلاك من حيث لا يرى, فعينه البصيرة تفيده أمنًا منه, والأقطع يخاف آفة لا تندفع إلا باليد, فاليد السليمة أمان منها, وهكذا جميع الحواس والأطراف, والمؤمِن خالقُها ومصوِّرُها ومقوِّيها.

ولو قدَّرنا إنسانًا وحده، مطلوبًا من جهة أعدائه, وهو ملقًى في مَضْيَعَة، لا تتحرك عليه أعضاؤه لضعفه, وإن تحركت فلا سلاح معه, وإن كان معه سلاح لم يقاوم أعداءه وحده، وإن كان له جنود لم يأمن أن تنكسر جنوده، ولا يجد حصنًا يأوي إليه, فجاء من عالج ضعفه فقوَّاه, وأمدَّه بجنوده وأسلحته, وبنى حوله حصنًا حصينًا, فقد أفاده أمنًا وأمانًا، فالأحرى أن يُسمَى مؤمنًا في حقه.

والعبد ضعيف في أصل فطرته, وهو عرضة الأمراض والجوع والعطش من باطنه, وعرضة الآفات المُحْرِقة والمُغْرِقة والجارحة والكاسرة من ظاهره, ولم يُؤمِنه من هذه المخاوف إلا الذي أعدَّ الأدوية نافعة ورافعة لأمراضه, والأطعمة مزيلة لجوعه, والأشربة مميطة لعطشه, والأعضاء دافعة عن بدنه, والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته, ثم خَوْفه الأعظم من هلاك الآخرة, ولا يُحَصِّنه عنه إلا كلمة التوحيد.

1

والله عز وجل هاديه إليها ومرغبه فيها, حيث قال: "لا إله إلا الله حصني, فمن دخل حصني أمن عذابي"[1]. فلا أَمْنَ في العالم، إلا وهو مستفاد بأسباب هو متفرد بخلقها, والهداية إلى استعمالها؛ فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فهو المؤمن المطلق حقًّا)[2].

وللمؤمن معنى آخر، إذا فسرناه من آمَن– على وزن (فَاعَلَ) الرباعي– يؤمِن إيمانًا، فهو بمعنى (التصديق)، مثل إيمان المؤمنين بالله تعالى، وبالرسل الذين يرسلهم الله إلى الناس، ومعنى الإيمان بهم: التصديق بما جاؤوا به، وأوله الإيمان بالله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، والإيمان بلقائه في الآخرة.

أما معنى (إيمان الله تعالى) فهو: أنه يصدِّق أنبياءه بإظهار آياته ومعجزاته الخارقة على أيديهم، وكأن الله تعالى يقول: صدق رسلي فيما يبلغون عني. أو أن تصديقه لهم أن جعل أمة محمد– وهي الأمة الكبرى، والأمة الأخيرة– تشهد لهم كما قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [البقرة:143]. ثم إن الله تعالى صدَّقهم في هذه الشهادة، وكفى بالله شهيدًا.

وقال بعض مفسري السلف: المؤمن: الذي آمَنَ خلقَه من أن يظلمهم. ومعنى هذا أن كل واحد منهم آمِنٌ كل الأمان من أن يعاقَب بغير ذنب، أو بذنب غيره، أو بعقوبة أكبر من ذنبه. وآمِنٌ أيضًا من أن يهضم حقه، فلا يُجزى بعمله الذي أحسنه مهما يكن صغيرًا، **{إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}** [النساء:40]. وبهذا آمَنَ المؤمنَ من كل ناحية من النواحي، كما قال تعالى: **{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}** [طه:112].

حظ المكلف من اسم المؤمن:

1
2

قال الغزالي: (حظُّ العبد من هذا الاسم والوصف أن يأمن الخلقُ كلهم جانبه, بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه, في دينه ودنياه, كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمنْ جارُه بوائقه"[1]. وأحق العباد باسم المؤمن من كان سببًا لأمن الخلق من عذاب الله, بالهداية إلى طريق الله عز وجل, والإرشاد إلى سبيل النجاة, وهذه حرفة الأنبياء والعلماء؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم تتهافتون في النار تهافت الفَراش, وأنا آخذ بحجزكم"[2]).

قال الغزالي: (خيال وتنبيه: لعلك تقول الخوف على الحقيقة من الله تعالى فلا مخُوف إلا إياه, فهو الذي خوَّف عبادَه, وهو الذي خلق أسباب الخوف, فكيف ينسب إليه الأمن؟

(فجوابك): إن الخوف منه، والأمن منه, وهو خالق سبب الأمن والخوف جميعًا, وكونه مخُوفًا لا يمنع كونه مؤمِنًا, كما أن كونه مذِلًّا لم يمنع كونه معِزًّا, بل هو المعزُّ والمذِلُّ, وكونه خافضًا لم يمنع كونه رافعًا, بل هو الخافض الرافع, فكذلك هو المُؤمِن المَخُوف, لكن المُؤمِن ورد التوقيفُ به خاصة دون المَخُوف)[3].

ومن هنا امتنَّ الله على عباده الذين خلقهم بنعمة الأمن, كما قال تعالى: **{ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}** [يوسف:99]. ومن هنا تميزت الجنة التي وعد الله بها المؤمنين في الدار الآخرة, بأنها دار أمان مطلق لأصحابها, **{لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** [يونس:62]. كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** [الأحقاف:13]. واعتبر القرآن الأمن من أعظم نعم الله في الدنيا, كما قال عن سبأ في أيام عِزِّهم: **{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ}** [سبأ:18].

1
2
3

واعتبر من أشد العقوبات الإلهية للأقوام المنحرفين عن خطوط الاستقامة الشرعية عقوبة الجوع والخوف, كما قال تعالى: **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}** [النحل:112].

وأمر قريشا أن يتجهوا إليه وحده بالعبادة؛ لأنه رب البيت (الكعبة)، وهو **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}**[قريش:4].

3- المهيمن:

المهيمن من الأسماء الحسنى لله تبارك وتعالى التي جاءت في خواتيم سورة الحشر: اسما المهيمن والعزيز, كما قال تعالى: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}** [الحشر:23].

والمهيمن لغة, اسم فاعل من فعل هيمن يهيمن. ومعنى هَيْمَن, كما في المعجم الوسيط: قال: آمين. وهيمن على الشيء: أي: سيطر عليه وراقبه وحفظه, وهمين الطائر على فراخه: رفرف عليها. قال: و(المهيمن): من أسماء الله تعالى, بمعنى الرقيب المسيطر على كل شيء, الحافظ له. وفي التنزيل: **{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا}** [المائدة:48] وهذا حديث عن القرآن وموقفه من الكتب السابقة عليها, فهو مصدِّق لها ومهيمن عليها.

قال ابن عباس وغير واحد: المهيمن أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم. بمعنى رقيب عليهم, كقوله تعالى **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** [البروج:9]. قوله: **{ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ}** [يونس:46]. وقوله: **{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** [الرعد:33].

ووصف الله تعالى المهيمن معناه أنه: المسيطر على كل شيء, والرقيب عليه, والحافظ له, فلا يخرج عن سلطانه وحكمه وتصرفه ورقابته وحفظه: مخلوق, حي أو جامد, في سماء أو أرض, لا صغير ولا كبير, ولا دقيق ولا جليل, ولا ظاهر ولا خافٍ, في دنيا أو في آخرة, مما يعقل وما لا يعقل, مما يرى ومما لا يرى, من العالم المنظور, ومن العالم غير المنظور, من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم ربهم

بالليل والنهار لا يفترون, في السماوات والأرض, ومن الجن الذين يرون الناس, والناس لا يرونهم, منهم المؤمنون, ومنهم الكافرون, وعلى رأسهم إبليس, الذي أمره الله أن يسجد لآدم أبي البشر, فأبى واستكبر, وكان من الكافرين.

ومن بني آدم, أبي البشر, الذي خلقه الله بيديه, ونفخ فيه من روحه, وأسجد له ملائكته, وجعله من بعد ذلك في الأرض خليفة, وجعل ذريته خلفاء في الأرض من بعده, وبعث إليهم رسله, وأنزل عليهم كتبه, ليعرفوه ويعبدوه, ويعمروا أرضه, ويقيموا فيها الموازين بالقسط, ورتَّب على حياتهم الدنيا وحياة الجن: حياتهم في الآخرة من السعادة والشقاء, ودخول الجنة أو النار, حسب الإيمان والعمل.

هناك عالم الأفلاك والسماوات العُلى, وما فيها من مجَّرات هائلة, تنتشر فيها النجوم المتكاثرة, التي قد يصل إلينا ضوؤُها بعد ملايين السنين الضوئية, ونحن نعيش في مكان صغير جدًّا, إذا نظرنا إلى سعة هذه المجرات الفسيحة الهائلة, ومنها مجرتنا التي يسمونها (سكة التَّبَّانة)، أي: طريق الذين يحملون التِّبْن, وهو ما يخرج بعد درس القمح بالنوارج, وتذرية القمح من التبن, وسكة التبانة ينتشر فيها التبن عن يمين وشمال, بما لا يقدر بالملايين, وملايين الملايين، فكذلك النجوم اللامعات في سكة التبانة, التي فيها الملايين من المجموعات الشمسية, التي مجموعتنا الشمسية, والتي نسكن في جزء منها إحدى مجامعيها.

وهنالك الأرض بما فيها من بحار ومحيطات تكاد تبلغ ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية, وهناك الجزء الجامد من الأرض, وفيه الجبال الراسيات, والأراضي الصالحة للزراعة والإنبات, وهي التي ينزل الله عليها الماء من السماء, أي من جهة السماء, وأصله من الأرض، خرج منها وعلا وارتفع, ثم نزل إليها, كما قال الشاعر العربي:

كالبحر يمطره السحاب وما له   فضل عليه؛ لأنه من مائه!

وهناك ماء ينفجر من الأرض, في صورة عيونه, وكذلك الآبار. وكل الماء أصله من الأرض كما قال الله تعالى: **{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}** [النازعات: 30-31]. يخرج الله من الأرض المنبِتة أنواعًا من الزراعات والمحصولات والأزهار والأشجار, وفصائلها تعد

بالملايين, كما يقول الأساتذة المتخصصون في الزراعة، **{مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ}** [يونس:24].

وهناك الملايين من أنواع الحيوانات والوحوش والطيور الجارحة وغير الجارحة, والحشرات, والزواحف والأسماك والحيتان والأحياء المائية, والحيوانات الصغيرة, والصغيرة جدًّا, ومنها ما لا يرى بالأعين المجردة, وإنما بالمكبِّرات (المكيروسكوبات).

كل هذه المخلوقات وغيرها مما قد يخفى علينا, لا يخفى شيء منها على من خلقها وسواها ودبَّر أمرها, فالله جل شأنه, يسيطر عليها, ويعرف سرَّها, ويعطي كل شيء منها خلقه, ويكفيه ما يطلبه بلسان مقاله, أو لسان حاله. وبعض هذه المخلوقات, لا يعرفه أحد من البشر, فضلًا عن أن يسيطر عليه, فالله سبحانه هو الذي خلقه, وهو الذي يهديه, وهو الذي سواه, وهو الذي يعطيه ما يحتاج إليه من غذاء ومن شفاء, ومن دواء إن احتاج إلى دواء, كما قال سيدنا موسى: **{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه:20].

لم يجئ في القرآن كلمة (مهيمن)، إلا في سورة الحشر اسما لله تبارك وتعالى, وهو اسم نطق به القرآن, وجاءت به السُّنة, وأجمعت عليه الأمة. ولم يجئ في القرآن بعد ذلك, إلا وصفًا للقرآن نفسه, في قوله تعالى مخاطبًا لرسوله: **{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}** [المائدة:48]. فالقرآن هو المهيمن على كل الكتب المنزلة الأخرى, وهو المهيمن والمسطير عليها؛ لأن الله لم يتولَّ أن يحفظها كما قال في القرآن: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [الحجر:9]. فلا غرو أن أصابها ما أصابها من الضياع والنسيان، والتحريف المعنوي بسوء التأويل, والتحريف اللفظي بتغيير بعض الكلمات, أو حذفها أو كتمانها, مما تسبب لهذه الكتب أن تحتاج إلى كتاب آخر تحتكم إليه عند الخلاف, وترجع إليه في تفصيلات الأمور, ومن كان إنزال القرآن, ليكون مرجعًا مضمونًا محفوظًا من الله للناس أجمعين.

الله العزيز الجبار المتكبر

من الأسماء الحسنى لله تبارك وتعالى التي جاءت في خواتيم سورة الحشر: أسماء العزيز الجبار المتكبر.

العزيز:

قال الغزالي في شرح اسم (العزيز): (هو الخطير الذي يقل وجود مثله, وتشتد الحاجة إليه, ويصعب الوصول إليه, فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز, فكم من شيء يقل وجوده, ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه, لم يُسم عزيزًا، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره, ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه, لم يُسم عزيزًا. كالشمس مثلًا, فإنه لا نظير لها؛ والأرض كذلك, والنفع عظيم في كل واحد منهما, والحاجة شديدة إليهما, ولكن لا يوصفان بالعزة؛ لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما، فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة.

ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان, والكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد؛ إذ لا أقل من الواحد, ويكون بحيث يستحيل وجود مثله, وليس هذا إلا الله تعالى, فإن الشمس, وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان, فيمكن وجود مثلها في الكمال والنفاسة, وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته, وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل.

والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه, على معنى الإحاطة بكنهه, وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل. فإنا قد بينا أنه لا يعرف الله إلا الله، فهو العزيز المطلق الحق, لا يوازيه فيه غيره).

واسم الله العزيز، جاء في الكتاب والسنة, وأجمع عليه علماء الأمة, واقترن مع أسمائه تعالى الأخرى في أواخر سورة الحشر **{هُوَ ٱللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}** [الحشر:23].

(وجاء معرَّفًا ومنكرًا في غيرِ ما آية, ولا خلاف في جواز إجرائه على غير الله تعالى, كما قال في كتابه: **{قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}** [يوسف:51]. ويحتمل أن يكون وصفًا.

قال ابن الحصار: ولا أعلم خلافًا في جواز التسمي به منكرًا, وإجرائه وصفًا، ولا أجيزه مُعرَّفًا؛ لأن الألف واللام في أسماء الباري تعالى؛ إما للحصر فيما لا مشاركة فيه, وإما للمزية.

يقال منه: عزَّ يعُزُّ – برفع العين في المستقبل– فهو عزيز, إذا غلب, ومنه قول الحق: **{وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}** [ص:23] أي غلبني, والمعازّة المُغالبة, ويقرأ: (وعازّني) على معنى: وغالبني.

ويقال أيضًا: عزَّ يعَزُّ– بفتح العين في المستقبل– فهو عزيز والمراد منه: القوة والشدة, ومنه قول الحق: **{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}** [يس:14]. أي: قوَّيْنا وشدَدَنا. وتعزَّز فلان: صار عزيزًا. ويقال للأرض القوية الصُّلبة: عَزَاز, لامتناعها على من أراد أن يحفِرَها. وقد عزَّز المطرُ الأرضَ؛ إذا لبَّدها فاشتدت لذلك.

ومن أمثال العرب: (إذا عزَّ أخوك فهِنْ) بكسر الهاء، معناه إذا اشتد فلِنْ, ويقال أيضًا: عَزَّ يعِزُّ– بكسر عين المستقبل– عِزًّا وعَزَازة: إذا قل فلا يكاد يوجد, فهو عزيز. وعزَّ فلان يعِزُّ عزًّا وعِزَّة وعَزَازة أيضًا: صار عزيزًا, أي قَوِيَ بعد ذِلَّة. هذه الثلاثة هي الأصول، واسم الفاعل من جميعها: عَزِيز, وجمعه: عِزَاز. مثل كريم وكرام.

وحكى أبو إسحاق الزجاج: والعزيز؛ الجليل الشريف. ومنه قولهم: إذا عز أخوك فهِنْ. وقولهم: فلان يُعزِّز بفلان, أي يتجالَلُ به ويشرُف ويتكبَّر, وكذلك قوله عزَّ وجلَّ: **{يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [المنافقون:8]. أي ليخرجن الجليل الشريف منها الذليل. وقيل: العزيز: الممتنع الذي لا ينال ولا يُدرك. فقول العرب: حصن عزيز؛ إذا كان لا يوصل إليه, ومنه قول الهزلي يصف العقاب:

حتى انْتَهَيْتُ إلى فِراشِ عَزِيزَةٍ   سَوْدَاءَ، رَوْثَةُ أَنْفِها كالمِخْصَفِ

وقيل: العزيز هو المُعِزُّ لغيره, فعيل بمعنى: مُفعِل, كأليم بمعنى مُؤلِم. وقيل: هو بمعنى مُعَزٌّ ومَعْزُوز, فيكون فعيل بمعنى مفعول, كقولهم: كفٌّ خَضِيب بمعنى مخضوب, ورجل قتيل, بمعنى مقتول. وقيل: المعنى عزيز عليه أولياؤه، فحذف.

قلت: فهذه ثمانية معان يجوز وصف الله تعالى بها كلها في قول علمائنا، يقال الله العزيز: بمعنى الغالب القاهر, فهو من صفات الأفعال, ومنه قوله تعالى: **{حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [الجاثية:1-2]. أي: من الله القاهر المُحْكِم خالقِ الأشياء.

وإذا قيل في العزيز: إنه من القوة, فهو صريح في الدلالة على الاقتدار, ويتضمن سائر الصفات التي لا تصح القدرة إلا بها, كالحياة وغيرها.

وإذا قيل في العزيز: إنه لا مثل له ولا نظير, فهو يدل في حق الله تعالى على وجود تكامل –أي: كمال– حتى لا يماثلُ.

وإذا قيل: إنه الجليل, فهو يدل في حق الله تعالى على شرف الذات, وكمال الصفات.

وإذا قيل: إنه الممتنع الذي لا يرام فهو يدل صريحًا على الملِكِ الأعلى القاهر الصمد, ويتضمن ذلك: قَهرٌ من سواه, ومَعْجِز من دونه.

وإذا قيل: معناه المُعِزّ, هو صريح في ترفيعه من يشاء, وهو من صفات الفعل, فيتضمن جميع الصفات الفعل, فيتضمن جميع الصفات التي لا يتم الفعل إلا بها, ويتضمن الإرادة, وذلك يقتضي أن يخفض من يشاء، ويذل من يشاء.

وإذا قيل: إنه مُعِزٌّ, فيدل على عبادة العابدين, وحرمة المتحرمين به –أي: المحتمين– سبحانه رجاء رضوانه وخوف عقابه, وهو أيضًا من الصفات المشعرة بالأفعال.

وإذا قيل: إنه بمعنى **{عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}** [التوبة:128]. فيدل على كرامته سبحانه لأوليائه وأهل طاعته, ويكون أيضًا من صفات الأفعال.

فهو سبحانه المختص في كل معنى من هذه المعاني بما يجب له ويستحيل على غيره, فهذا الاسم له بكل اعتباره, ولغيره مجاز بكل اعتبار. وإذا عزَّ المخلوق فوُصِف بالعزة فهذا الاسم له مستعار, وحقيقته للواحد القهار. فهو العزيز الذي لا

يُضام جاره, ولا يذل أنصاره, وهو الممتنع الذي مُنِعَ عن الأبصار أن تدركه, وعن الأوهام أن تكيِّفه, وهو القوي الذي لا يُغالب, والقوي الذي لا يُناهض, لا إله إلا هو العزيز الحكيم, المعز لأوليائه المانع لهم وعنهم, قال الله تعالى: **{ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا }** [الحج:38], وقال: **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [البقرة:251].

وقال الحليمي: العزيز معناه: الذي لا يوصل إليه, ولا يمكن إدخال مكروه عليه, فإن العزيز في لسان العرب من العِزَّة. وهي الصلابة, فإذا قيل لله: عزيز, فإنما يراد به الاعتراف بالقِدَم الذي لا يتهيأ معه تغييره عما لم يزل عليه من القدرة والقوة, وذلك عائد إلى تنزيهه عما يجوز على المصنوعين؛ لأعراضهم بالحدوث في أنفسهم للحوادث أن تصيبهم وتغيرهم.

وقال الخطابي: وقد يكون بمعنى نفاسة القَدْر, يقال منه: عز يعِز – بكسر العين– فيتناول معنى العزيز على هذا, إذ لا يُعادله شيء, وأنه لا مثل له, والله أعلم.

وقال ابن العربي: اختلف علماؤنا– رحمة الله عليهم– في شرح العِزَّة, فمنهم من قال: إن العزة صفة خاصة له, زائدة على الذات. بها كان عزيزًا, كالعلم وهي صفة خاصة, ومعنى زائدة على الذات أيْ: كان به عالمًا. ومنهم من قال: إن العز عبارة عن مجموع ما حصل إحاطة علمه, وعموم قدرته، وإنه لا يخرج ممكن عن إرادته, قال: وهذا هو القول الصحيح عندي– كما أشرنا إليه في (القدوس)– فيجب على كل مكلف أن يعلم أن العزة لله جميعًا بكل اعتبار كما تقدم, قال الله تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}** [فاطر:10]. وظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك مطمع فيه لغيره, فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به سبحانه، وبما وجب له من ذلك, وهذا هو المفهوم من قول الحق في سورة (يونس): **{وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}** [يونس:65], وفي سورة (سبأ): **{وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [سبأ:6].

فمن علم أنه لا إله إلا الله هو, وأنه الملك الحق, عَلِم أن الذي وجب له من العزة, يستحيل أن يتصف بها غيره, ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة, ومن حيث تستحق, فتكون الألف واللام للاستغراق, وهو المفهوم من آيات (فاطر).

فمن طلب العزة من الله, وصدقه في طلبها بافتقار وذل وسكون وخضوع؛ وجدها عنده إن شاء الله، غير ممنوعة، ولا محجوبة عنه. قال صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لله رفعه الله"[1]. ومن طلب العزة من غير الله, وكله الله إلى من طلبها عنده. قال الله تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}** [فاطر:10]. وذكر قومًا طلبوا العزة عند من سواه فقال: **{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}** [النساء:139]. فأنبأك صريحًا لا إشكال فيه: أن العزة له, يعز من يشاء ويذل من يشاء.

ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللت الرقاب تخضُّعًا   منَّا إليك فعزُّها في ذلِّها

فيجب على الإنسان أن يخضع لعظمة الله ويتذلل لعزته, فينقاد مسلمًا له خاضعًا، لقضائه مستسلمًا ومُسلِّمًا لأمره, يرجو بذلك العز الدائم والمُلْك الأبدي، وأن يقول في الجنة لما يريده: كن فيكون. **{وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}** [الإنسان:20].

واعلم أن على قدر ركوعك خاضعًا, وسجودك خاشعًا, يكون عزك في الدنيا والآخرة. قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله مرافقته في الجنة: "أعنِّي على نفسك بكثرة السجود"[2].

فمن استمسك بعزة الله وأعزَّ نفسه بطاعته, نال العزة في دنياه وأخراه، فإن أكسب الخلق مع ذلك عزة بأن دعاهم إلى الدخول في عزة الله, وجنبهم طريق الشيطان,

---

[1] أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (69/2588), والترمذي في البر والصلة (2029), والدارمي (1676), وأحمد في المسند 386/2, وابن حبان في صحيحه (3248), وأبو يعلى في مسنده (6458), والبيهقي في شعب الإيمان (3411) كلهم من حديث أبي هريرة بلفظ : "...وما تواضع أحد إلا رفعه الله".

[2] أخرجه مسلم في الصلاة (226/489), وأبو داود في الصلاة (1320), والترمذي في الدعوات (3461), والنسائي في التطبيق (1137), وابن ماجه في الدعاء (3879), من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي.

فهذا هو: عزيز بمعنى مُعَزٍّ. وإن عكس هذه الحالة فهو ذليل مُذِلٌّ. ألا ترى ما أعد الله سبحانه لمن تكبر وتعزز عليه. قال الله العظيم مُخبِرًا عن مخاطبة المؤمنين للكافرين: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر:42-43].

وقال في تنكيل من تعزز عليه: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ} [الدخان:43-44] {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان:49]. وقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ} [البقرة:207].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبرًا عن الله جل وعز: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته"[1]. وقال: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} [القصص:83].

وعليك أيضًا أن تتذلل لأوليائه وأهل طاعته, ولا تعتز عليهم، فبذلك أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام حيث يقول: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر:88]، ومدح أقوامًا فقال: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [المائدة:54]، وأن تعز من أعزه الله بطاعته وتواليه, وتهين من أهانه بمعصيته وتباعده وتعاديه. قال الله تعالى: {وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون:8], وقال: {وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء:88]. فله العزة بكل اعتبار, وهي صفته ومنعته لأوليائه, وهي فضله لرسوله بتأييده وعصمته، وإعانته ونصرته، وجميع قلوب العاملين على طاعته، والموت بين يديه قبل أن يصل أحد إليه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة:54]. وقال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} [آل عمران:139]. فيخلع

[1] أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (136/2620), وأبو داود في اللباس (4090), وابن ماجه في الزهد (4174), وأحمد في المسند 248,376/2, وابن حبان في صحيحه (5671), من حديث أبي هريرة, وقد تقدم.

من قلبه عزة المخلوق, ومن لسانه تعظيمه، وعن يديه خدمته إلا ما خصَّ الشرع كما ذكرنا.

قال ابن العربي: وأرشق عبارة في ذلك قول بعض علماء الإشارة: حقيقة المعرفة أن يحقِّر الأقدار سوى قَدْرِه, ويمحو الأذكار سوى ذِكْرِه. وما أصدق قول من قال: ليس العز بالماء والطين، والتكبر على المساكين، إنما العز بطاعة رب العالمين)[1].

حظ المؤمن من اسم العزيز:

وحظ المؤمن المؤمن من اسم العزيز: أن ينسب إلى صاحب هذا الاسم (العزيز) ويعتز به، ويشعر بذلك: أنه اكتسب بهذا الانتساب القوة والعزة، كما قال الله تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}** [فاطر:10].

وهو بعزة الله تعالى يقف أمام أقوى القوى ومن معهم أعتى الأسلحة وأحدثها وأشدها فتكا؛ لأن عزة الله أكثر من عزتهم، وقوته أعلى من قوتهم، **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}** [الطارق:15-17].

وقد عبرت عن ذلك في قصيدتي (أنا بالله عزيز) من ديواني (المسلمون قادمون)، وأود أن أضعها بين يديك هنا، لتمثل لك معنى الاعتزاز بالله رب العالمين:

هات ما عندك هاتِ يا زمان الأزماتِ
أنا لا أخشاك فانثر كل ما في الجعباتِ
وارم من نبلك ما شئـ تَ فلن تثني قناتي
هل ترى الإعصار يومًا هز شم الراسيات
أنا محميٌّ بدرع من يقين وثبات
معيَ اللهُ، فلِمَ لا أتحدى النائبات؟

1

معيَ الإيمان يهديـ ـني ببحر الظلمات

معيَ الإخلاص ينجي مركبي والموجِ عاتِ

معْيَ حبُّ الحق حبُّ الـ خير حب المكرمات

معي حبي للوري هم أخوتي أو أخواتي

يا زماني أنا حرٌّ حرَّر الإسلام ذاتي

أنا بالله عزيز عزتي في سجداتي

أنا لله وليٌّ لا لعُزَّى أو مناةِ

أنا عبد الله لا عبـ د الهوى والشهوات

فنيتْ نفسي عن نفـ سي فسُدْتُ الكائنات

سخر الله السما و الـ أرض لي والنيرات

أنا أقوي الخلق باللـ ـه بذكري، بصلاتي

كم توجهت إليه في دياجي الكربات

كم أناجيه فأُلْفِيـ ـه مجيبًا دعواتي

سامعًا همسي وسري ودبيب الخطرات

قابلا مني قليلي من فُتات الحسنات

غافرا ما آد ظهري من جبال السيئات

ساترًا ما لا يراه خلقُه من كبواتي

أنا أغنى الخلق بالحـ ـق بأغلى الثروات

لا يداني كل ملك الـ أرض إحدى ركعاتي

إن يكن قد تاه (إيليا)[1] في فيافي الفلسفات
بات حيرانَ يعاني من شكوك مظلمات
بات لا يعرف معنًى لحياة أو ممات
بات لا يفْرِقُ بين الملح والعذب الفرات
فأنا أدري وأدري لِمَ أدري سرَّ ذاتي
أنا أدري مبدئي من أي شيء أنا آتِ
أنا أدري أين تمضي رحلتي بعد الوفاة
أنا أدري غايتي أعـ ـرف منهاج حياتي
حسبي القرآن أتلو هُ فيحيي لي مواتي
شرحَتْ لي أصلَ خلقي بعضُ آي (المرسلات)
وتجلَّى لي مصيري إذ تلوت (النازعات)
واستبانت غايتي من آية في (الذاريات)
أنا روح، أنا نور لا حصاة في فلاةِ
أنا شمس ليس تُطفا بهبوب العاصفات
ذاك سري يا زماني فليمت غيظًا عُداتي!

[1] - إيليا أبو ماضي في قصيدة (الطلاسم)

الله الجبار المتكبر

الجبار المتكبر اسمان من أسمائه تعالى الحسنى, نطق بهما القرآن الكريم في آخر سورة (الحشر) {هُوَ ٱللهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر:23]. وجاءا في حديث الرسول الكريم, وأجمعت عليهما الأمة.

وروى البيهقي عن ابن عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا على هذا المنبر يعني منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي عن ربه عز وجل فقال: "إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة, جمع الله السماوات السبع, والأرضين السبع, في قبضته, ثم يقول: أنا الله, أنا الرحمن, أنا الملك, أنا القدوس, أنا السلام, أنا المؤمن, أنا المهيمن, أنا العزيز, أنا الجبار, أنا المتكبر, أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئا, أنا الذي أعدتها, أين الملوك؟ أين الجبابرة؟". وفي ورواية ابن برهان: "أعيدها"(1).

وهذان الاسمان الكريمان من أسماء الله الحسنى، تفرد الله تعالى بهما، وحين يحاول مخلوق أن يتحلى بهما، فقد خرج عن طبعه، وتمرد على وصفه، وادعى ما ليس له، ولذلك يسخط الله تعالى عليه، ويعلن نقمته له، وبراءته منه، كما قال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه النبي عن رب العزة عز وجل: "الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار"(2).

الجبار:

ومن أسماء الله الحسنى: اسم (الجبار)، وهو صيغة مبالغة من اسم فاعل (الجابر)، من جَبَر غيرَه: إذا سيَّره على غير إرادته, وأكرهه على أن يسير كما أراد المُكرِه, وينفِّذ ما يريده منه, بغير منازعة ولا مقاومة, ولا قدرة على ذلك, وهذا الاسم من الأسماء التي لا يجوز أن تُطلَق على غير الله تعالى, ولذلك خاطب الله تعالى

[1] صحيح لغيره : أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص 52 (43), والخطيب في تاريخ بغداد 355/5, وأبو الشيخ في العظمة (132), وذكره السيوطي في الدر المنثور 247/7 وعزاه لأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

[2]

رسوله محمدًا في شأن الكافرين, فقال له: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق:45]. وقال الله تعالى في قصة موسى وفرعون: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ ٱللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر:35].

وقال تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم:15].

وقال الإمام الغزالي في شرح اسم (الجبَّار) في المقصد الأسنى: (هو الذي ينفِّذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد، ولا تنْفُذ فيه مشيئة أحد، الذي لا يخرج أحد من قبضته، وتقصر الأيدي دون حِمَى حضرته؛ فالجبَّار المطلق هو الله سبحانه وتعالى، فإنه يُجبِر كل أحد، ولا يُجبِره أحد، ولا مثنوية في حقه في الطرفين).

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (الجبَّار الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما في الصحيح: "العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته"[1]. وقال قتادة: الجبار: الذي جبر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار: المصلح أمور خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم)[2].

وكأن ابن جرير الطبري المفسر الكبير ينظر إلى معنى (جَبَر) من زاوية أخرى، وهي جبر الكسير، ولكنها لا تصلح هنا؛ لأن الجبر والإجبار هنا معناه: إكراه الآخر على الأمر المراد، فليس له اختيار ولا حرية، ولهذا قال تعالى في قصة مؤمن آل فرعون: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ ٱللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر:35].

قال الغزالي: (الجبَّار من العِباد من ارتفع عن الاتِّباع، ونال درجة الاستتباع, وتفرد بعلو رتبته, بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به, ومتابعته في سَمْته وسيرته؛ فيفيد الخلق ولا يستفيد, ويؤثِّر ولا يتأثر, ويَستَتْبِع ولا يَتْبِع. ولا يشاهده أحد إلا ويفنى عن ملاحظة نفسه, ويصير متشوقًا إليه, غير ملتفِتٍ إلى ذاته, ولا يطمع أحد في استدراجه واستتباعه؛ وإنما حظي بهذا الوصف سيد البشر صلى الله

1
2

عليه وسلم, حيث قال: "لو كان موسى بن عمران حيًّا ما وسعه إلا اتباعي"[1]. "وأنا سيد ولد آدم ولا فخر "[2].

وقال القرطبي: (وهذا الوصف في العبد مؤذِن بالذم الشديد, وداخل تحت الوعيد؛ لذلك قال تعالى في ذمّ الكافرين: **{وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}** [الشعراء:130]. وقال تعالى: **{وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}** [إبراهيم:15]. وقوله تعالى: "أين المتجبرون؟ أين المتكبرون؟"[3] وعيد بيِّنٌ على من اتصف أو تسمَّى بهاتين أو بإحداهما.

وجَبَّار فَعَّال من أبنية المبالغة, وهو شاذ؛ لأنه لم يجئ على أصله من الفعل, لم يقل: جَبَر فهو جابر, ولكن يقال: تجبر فهو متجبِّر وجَبَّار, فالمتجبِّر على الفعل من: تَجَبَّر, وجَبَّار على غير الفعل, وقد يكون جبَّار من فعل لا يتعدَّى, وقد يكون من فعل متعدٍ. قال الجوهري: يقال: جبرت العظم جبرًا, وجبر العظم بنفسه جُبُورًا، أي انجبر، وقد جمع العجاج بين المتعدي واللازم فقال:

قد جَبَر الدينَ الإلهُ, فجَبَرْ

ومعنى جبرِه الدينَ: تقويتُه وإظهاره على الأديان, فالله تعالى جابر كل مكسور, وهو جابر الدين.

قال الزجَّاجي: وقد يقال: جبرت العظمَ والفقيرَ جُبورًا. أنشدنا ابن الأنباري عن أحمد بن يحيى ثعلب:

لا يُبعِدُ الله قومًا إن سألتهمو أعطوا سراعًا, وإن قلت: انصروا, نصروا

وإن أصابتهم نَعْماءُ سابغةٌ لم يبطروها وإن فاتتهمو صبروا

الكاسرين عظامًا لا جبور لها والجابرين فأعيا الناس ما جبروا

1

2

3 أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (24/2788), وأبو داود في السنة (4732), وابن ماجه في المقدمة (198) من حديث ابن عمر.

وتجبَّر الرجل من نفسه يتجبر, فهو متجبر, وفعله: الجبروت يتصف بذلك العاتي الشديد المستطيل في العدوان, من ملوك الأرض ومن لا يقبل الحق.

ويروى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يومًا في المصحف, فخرج له قوله عز وجل: **{وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}** [إبراهيم:15] فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أَتُوعِدُ كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أيامًا حتى قُتِل شر قِتْلة, وصلب رأسه على قصره, وعلى سور بلده[1].

قال ابن الأنباري: الجبار معناه في كلام العرب؛ ذو الجبرية, وهو القهار. والجبار: ينقسم على ستة أقسام يكون الجبار: القهار, ويكون الجبار: المُسلَّط, قال الله عز وجل: **{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ}** [ق:45]. ويكون الجبار: القوي العظيم الجسم, كما قال تعالى على لسان بني إسرائيل حين قال لهم موسى: **{يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}**[المائدة:21]، قالوا: **{يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}** [المائدة:22]. ويكون الجبار: المتكبِّر عن عبادة الله تعالى كما قال تعالى على لسان عيسى: **{وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}** [مريم:32], أي لم يجعلني مُتكبِّرًا عن عبادته. ويكون الجبار: القَتَّال, كقوله تعالى: **{وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}** [الشعراء:130], معناه بطشتم قتَّالين. ومنه قوله تعالى: **{إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ}** [القصص:19]، أي: قَتَّالًا بغير حق. ويكون الجبَّار: الطويل من النخل. ومنه قيل للنخلة التي فاتت يد المتناول. ولذا قالوا الجبار في صفة الله: الذي لا ينال.

قال ابن الحصار: ولما وقع هذا الاسم بين (العزيز) و(المتكبر)، عُلِم أن المراد به: (ذو الجبروت) وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: "سبحان ذي المُلْك والمَلَكوت, سبحان ذي العزة والجَبَروت"[1].

---

[1] قصة الوليد والمصحف, ذكرها الأصفهاني في الأغاني 60,59/7.

فجاء الجبروت في هذا الحديث بعد ذكر (الملك والملكوت والعزة) على نحو ما ورد في ترتيب الأسماء المذكورة في حديث أبي هريرة[2], ونحو ذلك في آخر سورة الحشر[3], وهذا الحديث يبيِّن لك المراد من الاشتراك العارض في اسمه (الجبَّار). فمعنى (الجَبَّار): ذو الجبروت, أي المستعلي المتعاظم. ثم قد ينضاف إلى ذلك حَمْل الغيرِ على مراده, وإن أدى ذلك إلى دمار الغير وفساده, فيؤول صريحًا على ما يدل عليه (العزيزُ) وزيادة تظهر أثرها على أفعاله, ويتضمن كل ما لا يثبت صفة العزة إلا به, وكل ما لا يتم المُلْك إلا به.

وقال الفقيه أبو بكر بن العربي: قال علماؤنا: هو (جبَّار) من الجبرية والجبروت, واتفقوا على أنها ليست بصفة خاصة ترجع إلى معنى زائد على الذات, وإنما ترجع إلى ما قدمنا بيانه من أنه مستحق لصفات التعالي والتعظيم، على الوجه الذي لا يستحقه سواه, ولا يثبت لغيره، بخلاف القدوسية, وذلك أن الجبرية تنزيه خاص, والقدوسية تنزيه عام, يدخل تحته كل تقديس, فلما كان الوصف بالقدوسية عامًّا تردد في النظر أنه معنى, وأنه وصف خاص يشمل أنواعًا من التنزيهات منها (الجبَّار) وغيره, وهو لعمومه وشموله لهذه الوجوه كلها من التنزيه تنزيه.

قال ابن الحصار: وليس هذا الاسم صريحًا في التنزيه, وقد قدمنا أن معنى تَجَبَّر من الجبروت أي استعلى وجبر غيره على ما يريده, وهو يدل على إثبات وصفه سبحانه وأثره في مخلوقاته, وحكايته عن العلماء أن هذا الوصف يرجع إلى صفة التعالي يبين ما قلناه.

قال ابن العربي: للبارئ سبحانه بهذا الاسم اثنا عشر وصفًا:

الأول: أنه يستغني عن الأتباع، فلا يكثر بهم من قلة, ولا يستنصر بهم من ذلة, كما قال تعالى: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ}** [الإسراء:111].

---

[1] صحيح : أخرجه أبو داود في الصلاة (873), والترمذي في الشمائل المحمدية (298), والنسائي في التطبيق (1048), وأحمد في المسند 24/6, والطبراني في الدعاء (544) من حديث عوف بن مالك الأشجعي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه : "سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة".

وأخرجه أبو داود في الصلاة (874), والنسائي في التطبيق (1144), والترمذي في الشمائل المحمدية (262), وأحمد في المسند 398/5 من حديث حذيفة أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل, فكان يقول : "الله أكبر –ثلاثا- ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ...".

[2] ضعيف : أخرجه الترمذي في الدعوات (3507), وقد تقدم.

[3] يقول تعالى : { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر:23].

الثاني: أنه لا يعفو[1] عن العقوبة بعد الحُجَّة, وإن كان يجيب المضطر إذا استقال من العثرة.

الثالث: أنه لا يشقُّ عليه البذل, إذا أعطى أعطى من سَعَة, وإذا منع مَنَع عن حكمة، من غير تكلف ولا مؤونة.

الرابع: أنه لا يكترث بالناكثين، ولا يفرح بالمخلصين, كما روى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قال الله عز وجل: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، اجتمعوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا"[2].

الخامس: أنه لا يلتهف على ما كان، ولا يتمنى ما لم يكن.

السادس: أنه لا يؤثر فيه الكَوْر يعني الزيادة والفساد, ولا يبلى بالعدم والوجود.

السابع: أنه لا يعارض في الفعل.

الثامن: أنه لا يطالب بالعِلَّة، كما قال سبحانه: **{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ}** [الأنبياء:23].

التاسع: أنه لا يُحْجَر عليه في إرادة.

العاشر: أنه لا يتوجه إليه الطلب بالإلزام, وإنما هو دعاء وتضرع.

الحادي عشر: أنه لا يجب عليه الفعل.

الثاني عشر: وإن كان لا سبيل إليه، فلا بد منه.

قال رحمه الله: المنزلة السفلى للعبد وهي ثلاثة أحوال:

الأول: أن يلزم حال الافتقار لما هو عليه من الافتقار، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين"[3].

1

2 أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (55/2577), وأحمد في المسند 160/5, والبخاري في الأدب المفرد (490), والبيهقي في شعب الإيمان (7088), وأبو نعيم في حلية الأولياء 125/5, من حديث أبي ذر.

3 - رواه ابن ماجه في الزهد (4126). وصححه الألباني في الجامع الصغير (2141) عن أبي سعيد الخدري.

الثانية: أنه يتدرَّع ثوب الاستكانة, وإن عظمت منه المكانة, كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لي خطئي وعمدي, وكل ذلك عندي"[1].

الثالثة: أن يستجير عند غلبة الجبابرة بعز سلطانه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عبد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي, ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُحِلَّ غضبك بي, أو تنزل سخطك عليّ, لك العُتْبى حتى ترضى, ولا حول ولا قوة إلا بك"[2].

فيجب على كل مسلم ألا يتصف بهذا الاسم ولا يتعاطاه, وإنما حظه الاتصاف بنقيضه، وهو التذلل والافتقار للملك الواحد الجبار الذي استعلى على الموجودات وقهرها بعد أن أنشأها وخلقها ولم يزل مستعليًا.

فالخالق سبحانه هو رب العزة، والجَبَّار الذي يبطش بالجبَّارين, ويُهلكُ من شاء كيف شاء, ويأخذ أخذ العزيز المقتدر, ولا يخاف العقبى, وله الآخرة والأولى, ويستغيث به المظلوم عند غلبة الجبارين عليه بذل وافتقار, فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)[3].

2- المتكبر:

المتكبر هو الاسم المقترن باسمه تعالى: الجبار، كما جاء في آية سورة الحشر التي سبق ذكرها، وقد ذكره أيضًا الحديث النبوي الضعيف المعروف، وأجمعت عليه الأمة، ولا يجوز أن يوصف به غير الله تعالى باتفاق, بل هو وصف ذم في

---

1 أخرجه البخاري في الدعوات (6398), ومسلم في الذكر والدعاء (70/2719), وأحمد في المسند 417/4, وابن حبان في صحيحه (954), والطبراني في الأوسط (6552), كلهم من حديث أبي موسى الأشعري.

2 حسن لغيره : أخرجه الطبراني في الدعاء (1036), وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 35/6 وقال: "رواه الطبراني, وفيه ابن اسحاق وهومدلس ثقة, وبقية رجاله ثقات", وابن عدي في الكامل في الضعفاء 111/6, وابن عساكر في تاريخ دمشق 152/49 من حديث عبد الله بن جعفر.

وقال الألباني في تخريج ظلال الجنة (7) : "وله شاهد من حديث محمد بن كعب القرظي أخرجه ابن هشام 419/1, والطبراي 344/2-346 بسند صحيح ولكنه مرسل, ومن حديث الزهري عند البيهقي في دلائل النبوة 415/2-417 وهو مرسل أيضًا, فالحديث بهما حسن". وانظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة (2933).

3

المخلوق كالجبار, يدل عليه قوله تعالى في الحديث: "أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟"[1]. وقال عليه السلام: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[2]. وذكر الكِبْر عند المعتصم فقال: حظ صاحبه من الله المقت, ومن الناس اللعن. فالتجبر والتكبر محرم على كل مخلوق...

والكبر, والكبرياء: هو ما يجده المتكبر في نفسه من تعزُّز وتعاظم واستعلاء واحتقار للغير, ومنه قوله تعالى: **{ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ }** [غافر:56])[3].

وقال الإمام الرازي في تفسيره: (أما قوله (المتكبر) ففيه وجوه:

أحدها: قال ابن عباس: الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله.

وثانيها: قال قتادة: المتعظم عن كل سوء.

وثالثها: قال الزجاج: الذي تعظم عن ظلم العباد.

ورابعها: قال ابن الأنباري: المتكبر ذو الكبرياء، والكبرياء عند العرب: الملك، ومنه قوله تعالى: **{وتكون لكما الكبرياء في الأرض}** [يونس:78].

واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم؛ لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذبا، فكان ذلك مذموما في حقه، أما الحق سبحانه، فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم: قال: **{سبحان الله عما يشركون}** كأنه قيل: إن المخلوقين قد يتكبرون، ويدَّعون مشاركة الله في هذا الوصف، لكنه سبحانه منزله عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة،

---

[1] أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (24/2788), وأبو داود في السنة (4732), وابن ماجه في المقدمة (198), من حديث ابن عمر.

[2] أخرجه مسلم في الإيمان (147/91), وأبو داود في اللباس (4091), والترمذي في البر (1998), وابن ماجه في المقدمة (59), وأحمد في المسند 451/1, من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر "**.

[3]

فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون، في إثبات صفة المتكبرية للخلق).

وقال الغزالي: (المتكبر هو الذي يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد، فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبُّر حقًّا، وكان صاحبها متكبِّرًا حقًّا، ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا لله عز وجل.

وإن كان ذلك التكبر والاستعظام باطلًا، ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه كان التكبر باطلًا ومذمومًا، وكل من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره كانت رؤيته كاذبة، ونظره باطلًا، إلا الله سبحانه وتعالى)[1].

ونبه الغزالي إلى حظ العبد من هذا الاسم فقال: (المتكبر من العباد هو الزاهد العارف، ومعنى زُهْد العارف أن يتنزه عما شغل سره عن الحق، ويتكبر على كل شيء سوى الحق سبحانه وتعالى، فيكون مستحقرًا للدنيا والآخرة جميعًا، مترفِّعًا عن أن يشغله كلاهما عن الحق تعالى.

وزهد غير العارف معاملة ومعاوضة، فإنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة، فيترك الشيء عاجلًا طمعًا في أضعافه آجلًا، وإنما هو سَلَمٌ ومبايعة، ومن استعبدته شهوة المطعم والمنكح فهو حقير، وإن كان ذلك دائمًا، وإنما المتكبر من يستحقر كل شهوة وحظ يُتَصَوَّر أن يُساهمه البهائمُ فيهما. والله أعلم)[2].

1

2

الله الخالق البارئ المصوِّر

ومن أسمائه تعالى الحسنى, التي حفل بها القرآن الكريم, وأكدتها السنة النبوية, ونطقت بها الألسنة, وابتهجت بذكرها القلوب, وامتلأت بالدعاء بها حلقاتُ المساجد, وأجمعت عليها أمة الإسلام في المشارق والمغارب, والشمال والجنوب: أسماء الخالق البارئ المصوِّر، التي قرأناها في ختام سورة الحشر: **{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [الحشر:24].

ومن الآية الأولى التي قرأها جبريل على محمد رسول الله, كان معنى اسم الخالق هو أول الأسماء التي عرفها رسول الله, حين قرأ عليه جبريل: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [العلق:1]. واسم (الخالق) ورد في القرآن بضع عشرة بصيغ عدة, كلها تدل على هذا المعنى الكبير, وهو أنه تبارك وتعالى: هو الخالق, أو الخلاق. أو الذي خلق. علَّم الله الإنسان المخاطب بكتابه ومن يقرؤه عليه: أنه مخلوق لخالق عظيم, هو وكل ما حوله في العالم العلوي والعالم السفلي مخلوقون لله. ولهذا تحدث في الآية الأولى بقوله: **{الَّذِي خَلَقَ}** ثم بين في الآية التالية أهم مخلوق له: أنه **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}** [العلق:2].

كما بينت الآيات الأخرى: أن هذا الخالق هو الذي خلق الإنسان, وخلق قبل الإنسان السماوات والأرض, وخلق الملائكة والجن. وخلق من أجل الإنسان عالم الحيوان والأنعام, لخدمة الإنسان ومنفعته, كما قال تعالى: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [النحل:3-8].

تحدَّث القرآن طويلًا عن العالم العلوي, بما فيه من سماوات سبع وكرسيٍّ, وصفه الله بقوله: **{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ}**

أي: لا يشق عليه {حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة:255].

وفوق الكرسي مخلوق أعظم منه ومن السموات كلها, وهو (العرش) كما قال تعالى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [المؤمنون:84–87].

وفي (مفردات القرآن): الخلق أصله: التقدير المستقيم, ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء, قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام:1]. أي: أبدعهما, بدلالة قوله: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة:117]. ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء, نحو: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء:1]. {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ} [النحل:4]. {خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون:12]. {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ} [الأعراف:11] {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن:15]. وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى, ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [النحل:17]. وأما الذي يكون من الشيء, فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال, كعيسى حيث قال: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي} [المائدة:110].

إن الله تعالى وحده هو الخالق, ولا يستطيع أحد ممن اتخذوهم آلهة من دونه قديمًا أو حديثًا أن يخلق شيئًا كبُر أو صغُر, مهما يكن ضئيلًا وحقيرًا، كما قال الله تعالى للمشركين: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:73–74]. وقال تعالى يتحداهم: {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ

الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد:16].

إن الله سبحانه هو الخالق, وهو الخلَّاق، كما قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [الحجر:86]. {بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس:81].

ذكر الله تعالى في ختام سورة الحشر الأسماء الإلهية الحسنى الثلاثة في سياق واحد: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر:24]. ولا شك أن لكل اسم من هذه الأسماء معناه. والخلق – كما قال الإمام الرازي وغيره– هو: التقدير. معناه أن الله تعالى يقدر أفعاله وما يريد أن يخلقه على أقدار معلومة، ووجوه مخصوصة، فالخالقية راجعة إلى صفة الإرادة. وأما (البارئ) فهو بمنزلة قولك: الصانع، والموجد إلا أنه يفيد اختراع الأجسام، ولذلك يقال في الخلق: بريَّة. ولا يقال في الأعراض كاللون والطعم.

ولا يوجد بارئ في القرآن غير ما جاء في خاتمة سورة الحشر, إلا جاء في قصة بني إسرائيل حين اتخذوا إلها من دون الله وعبدوه, حينما ذهب موسى لميقات ربه الذي أتمه الله أربعين ليلة, كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:254].

وأما المصور, فقد تكرر في صيغة الفعل في القرآن في آيات كثيرة, حيث قال الله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} [الأعراف:10-11].

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران:6].

وقال سبحانه: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [التغابن:3]. {يَا أَيُّهَا

الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار:6-8].

فهنا يظهر ويتجلى اسم (المصوِّر) في خلق الإنسان وتصويره، وإحسان تصويره, كما قال تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [الزيتون:4].

قال الرازي: أما المصور فمعناه: أنه يخلق صور الخلق على ما يريد، وقدم ذكر الخالق على البارئ؛ لأنه ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة، وقدم البارئ على المصور؛ لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات.

وننقل هنا ما قاله الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في شرح الأسماء الثلاثة، والربط بين بعضها وبعض في كتابه (المقصد الأسنى في شرح معاني الأسماء الحسنى):

(قد يُظن أن هذه الأسماء مترادفة, وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع, ولا ينبغي أن يكون كذلك, بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود, فيفتقر إلى تقدير أولًا, وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانيًا, وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثًا. والله سبحانه وتعالى خالق من حيث إنه مقدر, وبارئ من حيث إنه مخترع موجد, ومصوِّر، من حيث إنه مُرَتِّبُ صور المخترعات أحسن ترتيب.

وهذا كالبناء مثلًا, فإنه يحتاج إلى مقدِّر يقدِّر ما لا بد له منه من الخشب واللَّبِن, ومساحة الأرض, وعدد الأبنية وطولها وعرضها, وهذا يتولاه (المهندس), فيرسمه ويصوره, ثم يحتاج إلى (بَنّاء) يتولى الأعمال التي عندها يحدث أصول الأبنية, ثم (مناسباتها المعتمدة, ووفق أسس الصفة, مستعينا بمن معه من المعاونين, وبكل الحاجات المطلوبة) يحتاج إلى مُزَيِّن (أي: مجموعة مزينين ونقاشين ومتخصصين) ينقش ظاهره ويزين صورته, فيتولاه غير البنَّاء.

هذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير, وليس كذلك في أفعال الله عز وجل؛ بل هو المقدِّر والموجد والمزيِّن, فهو الخالق, البارئ, المصوِّر.

و(مثاله): الإنسان (يعني: الإنسان الأول وهو آدم، فهو المخلوق من طين، أما الإنسان العادي مخلوق من ماء دافق), وهو أحد مخلوقاته, وهو محتاج في وجوده

أولًا إلى أن يقدر ما منه وجوده, فإنه جسم مخصوص, فلا بد من الجسم أولًا حتى يُخصص بالصفات, كما يحتاج البنّاء إلى آلات حتى يبني.

ثم لا يصلح لبِنْيَة الإنسان إلا الماء والتراب جميعًا؛ إذ التراب وحده يابس محض, لا ينثني ولا ينعطف في الحركات, والماء وحده رطب محض, لا يتماسك ولا ينتصب؛ بل ينبسط، فلا بد أن يمتزج الرطب باليابس حتى يعتدل, ويعبر عنه بالطين. ثم لا بد من حرارة طابخة حتى يستحكم مزج الماء بالتراب ولا ينفصل, فلا يتخلق الإنسان من الطين المحض؛ بل من صلصال كالفخار, والفَخَّار هو الطين المعجون بالماء الذي قد عملت فيه النار حتى أحكمت مزاجه, ثم يحتاج إلى تقدير الماء والطين بمقدار مخصوص, فإنه إن صغُر مثلًا, لم تحصل منه الأفعال الإنسانية؛ بل كان على قدر الذَّرِّ والنمل, فتُسفيه الرياح، ويهلكه أدنى شيء, ولا يحتاج إلى مثل الجبل من الطين, فإن ذلك يزيد على قدر الحاجة, بل الكافي من غير زيادة ونقصان, قدر معلوم يعلمه الله عز و جل.

وكل ذلك يرجع إلى التقدير, فهو باعتبار تقدير هذه الأمور (خالق), وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير (مصوِّر), وباعتبار مجرد الإيجاد والإخراج من العدم إلى الوجود (بارئ). والإيجاد المجرد شيء, والإيجاد على وفق التقدير شيء آخر, وهذا يحتاج إليه من يُبعِد ردَّ الخلق إلى مجرد التقدير, مع أن له في اللغة وجهًا؛ إذ العرب تسمي الحذَّاء خالقًا, لتقديره بعض طاقات النعل على بعض؛ ولذلك قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ضُ القوم يخلقُ ثم لا يفري

المصور:

(فأما اسم المصور), فهو له من حيث رتب صور الأشياء أحسن ترتيب وصوَّرها أحسن تصوير, وهذا من أوصاف الفعل, فلا يعلم حقيقته إلا من يعلم صورة العالم على الجملة, ثم على التفصيل؛ فإن العالم كله في حكم شخص واحد, مركَّبٌ من أعضاء متعاونة، على الغرض المطلوب منه, وإنما أعضاؤه وأجزاؤه السماوات والكواكب والأَرَضون، وما بينهما من الماء والهواء وغيرهما, وقد رُتِّبتْ أجزاؤه ترتيبًا

محكمًا, لو غُيِّر ذلك الترتيب لبطَلَ النظامُ, فخصَّص بجهة الفَوْق ما ينبغي أن يعلو, وبجهة السُّفْل ما ينبغي أن يسفُل.

وكما أن البنَّاء يضع الحجارة أسفل الحيطان، والخشب فوقها، لا بالاتفاق؛ بل بالحكمة والقصد لإرادة الإحكام, ولو قلب ذلك, فوضع الحجارةَ فوق الحيطان، والخشبَ أسفلَها, لانهدم البناء, ولم تثبت صورته أصلًا.

فكذلك ينبغي أن يُفهم السبب في علو الكواكب، وتسفُّل الأرض والماء, وسائر أنواع الترتيب في الأجزاء العظام من أجزاء العالم، ولو ذهبنا نَصِفُ أجزاء العالم ونحصيها, ثم نذكر الحكمة في تركيبها, لطال الكلام, وكل من كان أوفر علمًا بهذا التفصيل, كان أكثر إحاطة بمعنى اسم المصوِّر, وهذا الترتيب والتصوير موجود في كل جزء من أجزاء العالم وإن صغر, حتى في النملة والذَّرَّة؛ بل في كل عضو من أعضاء النملة؛ بل الكلام يطول في شرح صورة العين التي هي أصغر عضو في الحيوان، ومن لم يعرف طبقات العين وعددها وهيئاتها، وشكلها ومقاديرها، وألوانها ووجه الحكمة فيها, فلن يعرف صورتها, ولن يعرف مصوِّرها إلا بالاسم المجمل, وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات, بل لكل جزء من كل حيوان ونبات.

والعلماء المتخصصون في هذه الأمور، الذين درسوا تفاصيلها، يعرفون كثيرا من أسرار الخالق البارئ المصور، في كل جزئية من جزئيات هذا الكون، وإذا دخلوا في التفصيلات حدثوك بالروائع الالهية في كل نوع من الخلق الإنساني والحيواني والنباتي والفلكي، وأطلعوك بكل دقة ممكنة على ما يبهر الأبصار، ويخلب العقول، ويجعل الإنسان يقف موقف العظة والاعتبار، **{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ }**[النور:44].

حظ المكلَّف من هذه الأسماء الحسنى:

قال الإمام الغزالي: حظ العبد من هذا الاسم (المصور بعد الخالق البارئ): أن يحصِّل في نفسه صورة الوجود كلَّه على هيئته وترتيبه, حتى يحيط بهيئة العالم وترتيبه كلِّه كأنه ينظر إليها, ثم ينزل من الكل إلى التفاصيل, فيشرف على صورة الإنسان، من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمانية, فيعلم أنواعها وعددها، وتركيبها والحكمة في خلقها وترتيبها, ثم يشرف على صفاتها المعنوية، ومعانيها الشريفة، التي بها إدراكاته وإرادته.

وكذلك يعرف صورة الحيوانات وصورة النبات ظاهرًا وباطنًا, بقدر ما في وسعه, حتى يحصل نقش الجميع وصورته في قلبه, وكل ذلك يرجع إلى معرفة صورة الجسمانيات, وهي معرفة مختصرة بالإضافة إلى معرفة ترتيب الروحانيات, وفيه يدخل معرفة الملائكة, ومعرفة مراتبهم, وما وكِّل إلى كل واحد منهم من التصرف في السماوات والكواكب, ثم التصرف في القلوب البشرية بالهداية والإرشاد, ثم التصرف في الحيوانات بالإلهامات الهادية لها إلى مَظنَّة الحاجات.

فهذا حظ العبد من هذا الاسم, وهو اكتساب الصورة العلمية المطابقة للصورة الوجودية, فإن العلم صورة في النفس مطابقة للمعلوم, وعلم الله عز وجل بالصور سبب لوجود الصور في الأعيان, والصورة الموجودة في الأعيان سبب لحصول الصور العلمية في قلب الإنسان, وبذلك يستفيد العبدُ العلمَ بمعنى اسم المصوِّر من أسماء الله سبحانه وتعالى, ويصير أيضًا باكتساب الصورة في نفسه كأنه مصوِّر, وإن كان ذلك على سبيل المجاز, فإن تلك الصور العلمية إنما تحدث فيه على التحقيق بخلق الله تعالى واختراعه, لا بفعل العبد, ولكن العبد يسعى في التعرض لفيضان رحمة الله تعالى عليه. فـ{ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } [الرعد:11]. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن لربكم في أيام دهركم نفحاتٍ من رحمته, ألا فتعرَّضوا لها"[1].

1

وأما الخالق البارئ, فلا مدخل للعبد أيضًا في هذين الاسمين إلا بنوع من المجاز بعيد, ووجهه: أن الخلق والإيجاد يرجع إلى استعمال القدرة بموجب العلم، وقد خلق الله تعالى للعبد علمًا وقدرةً, وله سبيل إلى تحصيل مقدوراته على وفق تقديره وعلمه.

والأمور الموجودة تنقسم إلى ما لا يرتبط حصولها بقدرة العباد أصلًا, كالسماء والكواكب، والأرض والحيوان والنبات، وغير ذلك, وإلى ما لا حصول لها إلا بقدرة العباد, وهي التي ترجع إلى أعمال العباد, كالصناعات والسياسات، والعبادات والمجاهدات, فإذا بلغ العبد في مجاهدة نفسه بطريق الرياضة في سياستها وسياسة الخلق مبلغًا، ينفرد فيها باستنباط أمور لم يُسبق إليها, ويقدر مع ذلك على فعلها والترغيب فيها, كان كالمخترع لِمَا لم يكن له وجود من قبل؛ إذ يقال لواضع الشطرنج: إنه الذي وضعه واخترعه, حيث وضع ما لم يُسبق إليه, إلا أن وضْع ما لا خير فيه, لا يكون من صفات المدح.

وكذلك في الرياضات والمجاهدات، والسياسات والصناعات، التي هي منبع الخيرات, صورٌ وترتيبات يتعلمها الناس بعضهم من بعض, ويرتقي لا محالة إلى أول مستنبِط وواضع, فيكون ذلك الواضع كالمخترِع لتلك الصورة، والخالق المقدِّر لها, حتى يجوز إطلاق الاسم عليه مجازًا.

ومن أسماء الله تعالى ما يكون نقْلها إلى العبد مجازًا, وهو الأكثر, ومنها ما يكون في حق العبد حقيقة, وفي حق الله تعالى مجازًا, كالصبور والشكور، ولا ينبغي أن تلاحِظَ المشاركة في الاسم, وتَذهَلَ عن هذا التفاوت العظيم الذي ذكرناه.

الله السميع البصير

ومن أسماء الله تعالى المشتملة على صفاته العليا, التي ذكرها القرآن الكريم, وكرَّرها في سُوَرِهِ وآياته المكية والمدنية، ونطقت بها السنة، وأجمعت عليها الأمة، اسمَا: السميع والبصير, وهما اسمان لله تعالى من الأسماء الحسنى المقترنة التي يُدعَى بها, كما قال تعالى: **{وَلله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}** [الأعراف:180]. وهما يثبتان صفتي السمع والبصر لله تعالى.

أثبت القرآن لربنا سبحانه وتعالى صفة السمع وصفة البصر, وهما زائدتان عن صفة العلم, التي أثبتها وأكدها القرآن لله جل شأنه.

إن الله يسمع كل ما تنطق به الكائنات في السماء أو في الأرض، ممن يعقل، وما لا يعقل، من عالم الجمادات والأفلاك، وعالم البحار والجبال والأرض، وعالم النباتات والزروع، وعالم الحشرات والزواحف، وعالم الأسماك والبحريات، وعالم البهائم والوحوش والطيور، وعالم الجن وعالم الملائكة، وما لا نعرفه من العوالم، الله يسمع هؤلاء جميعًا، ويسمع ما يقوله الإنسان في خلوته، وفي جَلْوَته, بالليل أو بالنهار, بالسر أو بالجهار, ما جهرت به على الملأ، وما أسررته في نفسك يسمعه الله تعالى. كما قال تعالى: **{قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [المجادلة:1].

وقال تعالى: **{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** [الملك:13].

وقال تعالى: **{وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}** [طه:7-8].

وقال تعالى: **{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}** [الزخرف:80].

كيف يسمع الله تعالى وكيف يرى؟

إنه لا يسمع بواسطة كما نسمع نحن بواسطة الأذن, كما أنه يرى كل شيء في الكون: عاليه ونازله, ظاهره وباطنه, قريبه وبعيده, صغيره وكبيره, باديه وخفيَّه, دقيقه وجليله, مكشوفه ومُغطاه, كلها عنده سواء. {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد:8-10].

{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان:34].

وقد جاء في صحيح البخاري تسمية هذه الأمور الخمس: (مفاتح الغيب)، فلا يعلمها إلا الله.

فعِلْم الساعة انفرد الله تعالى به, ولم يعطِه لأحد من خلقه, ولمَّا سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن الساعة, قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[1].

وقد ذكر القرآن أناسًا كثيرين عن الساعة, فأحالهم الله تعالى إلى علمه وحده, كما قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:187].

وفي بعض الأحيان يعلن القرآن عن قربها: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب:63].

ولكن القرب هنا أمر نسبي؛ بالنسبة لعمر الأرض, أو لعمر الكون, ويقدرونه بما شاء الله من الملايين، وقد اعتُبِرتْ بعثة الرسول الكريم، وخاتم الرسل (محمد)، من

1

أشراط الساعة وعلاماتها, التي يسمونها العلامات الصغرى. قال تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} [محمد:18].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: "بعثت أنا والساعة كهاتين" ومدَّ إصبعيه السبابة والوسطى[1].

1- السميع:

اسم السميع: اسم من الأسماء الحسنى, جاء في القرآن العظيم في غير موضع, مُنكَّرًا ومُعرَّفًا, وثبت في السنة النبوية, وأجمعت عليه الأمة. وهو صيغة مبالغة من اسم فاعل: سمع يسمع. وقال تعالى: **{إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [المجادلة:1].

(ويجوز إجراؤه على العبد، يقال فيه: سَمِع يَسمَع على الأصل, واسم الفاعل سامع، وسميع للمبالغة, وحاسة السمع فينا قوة باطنة موجودة في الجارحة المسماة بالأذن, من شأنه تأدية معانٍ ظاهرة, وهي الأصوات كلها على اختلافها، دون ما سوى ذلك إلى قوى باطنة أُخَر.

وأما السمع في صفة الله تعالى فهو على ثلاثة أضرب: يكون صفة ذات، ويُخالف في هذا الوجه السامع؛ لأن السامع لا بد له من متعلَّق بمسموع موجود, والسميع غير متعلق بمسموع, كالعليم والقدير فيكون مدحًا للذات، وأن المسموعات إذا وجدت لا تخفى عليه.

الثاني: أن يكون (سميع) بمعنى مُسمِع أي يُسمِع غيرَه، فيتعلق بمفعول. قال عمرو بن معدي كرب، يتشوق إلى أخته، وكان قد أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيْدِ بن الصِّمَّة:

أَمِنْ ريحانةَ الداعي السميعُ   يؤرقني وأصحابي هجوعُ

الوجه الثالث: أن يكون سميع بمعنى سامع, فيتعلق بالمفعول...

1

وقد يكون السامع في صفات الله عز وجل بمعنى المُجيب، يقال: سمع الله دعاءك. أي: أجابه, كما يقال: سمع الله لمن حمده. أي: أجابه.

وقد قال الشاعر:

دعوت الله حتى خِفْتُ ألَّا　　　يكون الله يسمعُ ما أقولُ

أي لا يجيب دعائي، ومن هذا استعاذة رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء لا يُسمَع[1]، معناه أي لا يستجاب له, ويبينه الحديث الآخر الذي قال فيه عليه السلام: "أعوذ بك من دعوة لا يستجاب لها"[2].

وقد يَرِد السماع بمعنى: العلم, والأصل في السماع إدراك المسموعات، وما سوى ذلك تَجَوُّز وتوسع، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن...

وقال الحليمي في معنى (السميع): إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن تكون له أذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه، وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذن؛ كالأصم من الناس، لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلًا لإدراك الصوت.

وقال الخطابي: (السميع): بمعنى السامع, إلا أن السميع أبلغ في الصفة, وبناء فعيل للمبالغة, وهو الذي يسمع السر وأخفى.

قلت (القرطبي): وأخفُّ مما هو أخفى, فيسمع دبيب النملة السوداء, على الصخرة الصماء, في الليلة الظلماء, وتحت الأرض السفلى.

روى البخاري عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات, لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت, ما أسمع ما تقول: فأنزل الله عز وجل: **{قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}**[3] [المجادلة:1].

1

2 أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (73/2722), والنسائي في الاستعاذة (5473), وأحمد في المسند 371/4, والطبراني في الكبير (5085), وعبد بن حميد في مسنده (267), كلهم من حديث زيد بن أرقم وفيه : "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع, ومن قلب لا يخشع, ومن نفس لا تشبع, ومن دعوة لا يستجاب لها".

3 أخرجه البخاري في كتاب التوحيد, باب (9), { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:134]. تعليقا. ووصله النسائي في الطلاق (3460), وابن ماجه في المقدمة (188), والبيهقي في السنن الكبرى 382/7, وأحمد في المسند 46/6, وأبو يعلى في مسنده (4780), والبيهقي في السنن الكبرى 382/7, وإسناده صحيح.

وفي الصحيحين, عن ابن مسعود، قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ: قُرشيَّان وثقفيٌّ- أو: ثقفيان وقُرشي- قليلٌ فقهُ قلوبِهم، كثير شحمُ بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ وقال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا, فهو يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: **{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ}**[1] [فصلت:22])[2].

2- البصير:

ومن أسماء الله تعالى الحسنى, التي ذُكرت في القرآن الكريم غالبًا مع اسم (السميع)، وأحيانا وحدها, كما ذُكرت في السنن والأحاديث, وأجمعت عليها الأمة.

واسم (البصير) كثيرًا ما جاء في القرآن وحده, كما في قوله تعالى: **{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [الحجرات:18], **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [البقرة:265, آل عمران:156, الأنفال:72, الحديد:4, الممتحنة:3, التغابن:2].

وجاء مقترنًا مع اسم البصير في حالة الرفع **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الإسراء:1], **{وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [المجادلة:1], **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [الحج:75], وفي حالة النصب منفردًا: **{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}** [الفرقان:20]. ومقترنا باسم الخبير: **{وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}** [الإسراء:17]. **{قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}** [الإسراء:96].

---

[1] أخرجه البخاري في التفسير (4816,4817), ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (5/2775), والترمذي في تفسير القرآن (3248), والنسائي في الكبرى (11468), وأبو داود الطيالسي (363), والحميدي في مسنده (87).

[2]

وأحيانًا مقترنًا باسم السميع مثل قوله تعالى: **{ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }** [الإنسان:2]. وقوله: **{ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا }** [النساء:58].

وبصر الله تعالى غيرُ بصرنا, فبصرنا بحاسة وجارحة, وحِدَق وأجفان وأعصاب, وأصبح لها أطباء متخصصون، فيما عرف باسم (الشبكية) واسم (القرنية).

وأصبح الناس بالنسبة للنظر أصنافًا شتى, فمنهم من لا يرى أصلًا من بداية حياته, أي من ولد أكمه, كما قال الله تعالى: **{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ}** [فاطر:19-20]. ولذلك قال خليل الله إبراهيم لابنه: **{يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}** [مريم:42].

ومنهم من أصيب بإحدى عينيه, وهو الأعور, وهي آفة من آفات الإنسان.

ومن يرى القريب والبعيد, ومنهم العكس, ومنهم من يحتاج إلى مكبِّر يكبِّر له ما يريد أن يراه أو يقرأه, ولذلك اخترع البشر في عصرنا المكبِّرات مثل الميكرسكوبات, والمكبرات المقرِّبات مثل: التلسكوبات التي تكبر النجوم وتقرِّبها. ولكن الله تعالى يستوي لديه القريب والبعيد, والكبير والصغير, والبادي والخافي, وما يرى بالليل وما يرى بالنهار, وما يرى فوق الأرض, وما يرى في عمق أعماق البحر.

ومستويات الأبصار عند الناس تختلف في درجاتها, وقد يُطلب لبعض الأعمال, وبعض المدارس مستوى درجات معين, والمستوى الأعلى هو (6) ست درجات. وقد يُقبل المكفوفون في بعض المعاهد كالأزهر من قديم, الذي تعتمد علومه على الحفظ وعلى الفهم، ولهذا قال شوقي في قصيدته عن الأزهر:

والله ما تدري لعل كفيفهم يومًا يكون أبا العلاء المُبْصِرَا

وقد يكون الإنسان طوال حياته مبصِرًا, حتى إذا طال عمره, وتأخر سنُّه فقد البصر, كما حدث لابن عباس رضي الله عنهما, وقد هجاه بعضهم بهذا, فقال رضي الله عنه:

إن يسلب الله من عينيَّ نورَهما ففي لساني وقلبي منهما نورُ !
عقل سليم, وقلبي غير ذي خطل وفي فمي صارم كالسيف مأثور !

+إن أعيننا مما أعطيت من قوة الأبصار, وإدراك البعيد, مثل ما أُدرك ببعض البلاد، أن من الناس من يدرك ما أمام بصره إلى حد بعيد, حتى إنه ليخترق الجدران, وهذا ما حدثنيه إخوة من اليمن وأقسموا عليه, وقد حاولت الدولة أن تستعين به في بعض الحروب, ولكنه ربما كانت هذه شبه خوارق لا تتكرر, والأصل أن الإنسان في كل مداركه وحواسه وملكاته الظاهرة والباطنة: ضعيف محدود القوة؛ لأنها مستمدة من قوة أعظم منها, فهي بذاتها لا حول لها ولا قوة.

ومن هنا كان تحدي القرآن للبشر, الذين يباهون بقواهم وحواسهم، وأسماعهم وأبصارهم، ويظنون أنفسهم فوق الظنون, ولا يعلمون أن هذه هبات مُنحت لهم من الخلَّاق العليم, الذي يعطي ويمنع, ويصل ويقطع, ويُعزُّ ويذلُّ, ويَهدي ويُضلُّ, ومن هنا, شعر ابن آدم الأول بقوته البدنية فقتل أخاه, ثم حمله زمنًا ليخبِّئه عن أبيه, وسائر إخوته, ولم يكن له علم ماذا يمكن أن يصنع بهذا الميت، حتى بعث الله غرابًا يبحث في الأرض، ليريه كيف يواري سوءة أخيه.

الناس يسمعون ويرون, ولكن لا يسمعون ولا يرون كل شيء, إنما يسمعون ويرون ما كان قريبًا منهم, إن كان هناك ضوء يساعد على الرؤية, فالإنسان لا يرى في حالة الظلمة, كما قال تعالى في وصف البحر في أعماقه: **{ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}** [النور:40]. لا يستطيع أن يرى البعيد, ولا يستطيع أن يرى إلا أمامه, أما ما كان من خلفه, وما كان عن يمينه وشماله البعيدين عنه, فلا يراه.

والناس تتفاوت أبصارهم, بحسب قوة أبصارهم, ووضوح المرئي, وعدم وجود الحواجز, التي تختلف في قوة حجزها وضعفها لبعض الناس دون بعض.

ورسل الله وأنبياؤه هم أقدر الخلق على رؤية ما يخفى على كثيرين, حتى إنهم قد يرون الملائكة, وعامة الناس لا يمكنهم رؤيتهم, وقد رأى رسول الله محمد عليه

السلام جبريل في صورته الملكية مرتين, وقال الله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم:17-18].

وموسى عليه السلام قد كلَّم ربه تبارك وتعالى, وسمع كلامه مباشرة بلا واسطة, ولا حجاب, واصطفاه الله برسالاته وبكلامه {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء:164]. ولكن حينما قال: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف:143].

في هذه الدنيا لا يستطيع الناس بقدراتهم التي منحهم الله إياها أن يروا الله, ولكن في الآخرة يؤتيهم قوة أخرى يقدرون بها على رؤية الله تعالى, كما قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:22-23]. وكما قال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين:22-23]. وأعظم ما ينظرون إليه: وجه الله تعالى، على حين قال تعالى عن الكافرين: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:15].

والمقرَّبون والصدِّيقون من المؤمنين أقرب الناس درجة بعد الرسل, وبعدهم الصالحون, وبعدهم المقتصدون, كما قال الله تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر:32].

والله تعالى يبصر كل شيء, ما كبُر وما صغُر, ما جلَّ وما دقَّ, ما ظهَر وما بطَن, ما نطقت به الإنس, وما خفِيَ في القلوب, وما عمل بالليل، وما عمل بالنهار, ما عمل في السر, وما عمل في العلن؛ لأن بصره تعالى غير بصرنا, لا ينظر بجارحة ولا بحاسة, ولا تحجبه حواجب, ولا تحجزه عن شيء حواجز, {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:103]. يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ

أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [فصلت:40]. وقال تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت:19-24]. وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى} [العلق:14].

يقول تعالى مبيِّنًا مدى بصره بكل ما في الكون ومدى علمه به, علمًا دقيقًا قطعيًا, لا تخفى عليه فيه خافية: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس:61].

وهذه الرؤية الشاملة هي التي جعلت المؤمنين يتوكلون على ربهم, وهم في غاية الثقة بأنه لا يتخلَّى عنهم, ولا يغفل عنهم لحظة واحدة, كما قال الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه:43-46].

لذلك حين قابلا هذا الجبَّار العنيد المتألِّه في الأرض, الذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى. وقال: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري. لم يخافا منه, ولم ينسيا أن الله معهما يسمع ويرى. وحينما جاء فرعون وجنوده, وهم يتتبعون موسى, حتى أدركوهم على ساحل البحر, وهكذا أصبح وضع موسى وقومه؛ البحر أمامهم، والعدو من خلفهم, العدو المدجج بأسلحته وجنوده المستعدين للقبض على هؤلاء الشرذمة

القليلين, الذين لهم غائطون, وهم منهم حذرون, وهنا قال أصحاب موسى: إنا لمدركون؟ فماذا قال موسى؟ وماذا كان موقفه؟ {قَالَ: كَلَّا, إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء:62]. وهنا قال الله له: {اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:63-68].

المؤمنون أقوياء العقل, أقوياء الحس, أقوياء السمع, أقوياء البصر, بخلاف الكفار الذين عطَّلوا عقولهم فلا تفكر, وخربوا قلوبهم فلا تشعر, وأفسدوا أعينهم فلا تبصر, وآذانهم فلا تسمع. ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:179]. وقال الله تعالى عن قوم من الكفار الذين أضلَّهم: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد:23].

والله تبارك وتعالى مطَّلع على كل شيء, يجري في هذا الكون الواسع الذي خلقه, وهو واسع بالنسبة إلينا, ولكنه بالنسبه إليه خلق, الذي خلقه وسواه, ويعرف مدخله ومخرجه, وسره وعلنه, وظهره وبطنه, {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [الملك:14]. تستوي عنده المجرة في كِبَرها, والذرة في صِغَرها؛ لأنه خالقها ومدبِّر أمرها, سبحانه سبحانه, ما أنصع برهانه! وما أعظم شأنه, وأبلغ بيانه! وما أوضح قرآنه! يقول الشاعر:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأَلْيَل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من تلك العظام النُّحَل
ويرى خرير الدم في أوداجها ... متنقلًا من مِفصَل في مفصل
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأولِ

على العبد الضعيف الفقير إلى ربه: أن يعلم أنه تعالى يعلم حاله كله, ويراه ويشاهده، ويبصره جميعه, بما فيه من حسنات أو سيئات, فهو سبحانه يقول: **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** [الحديد:4]. ويقول عز وجل: **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}** [المجادلة:7]. وقد سأل جبريلُ في حديثه المشهور النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الإحسان, فقال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك". لهذا يعبد الله بإحدى هاتين الرؤيتين: إما أن يعبده عبادة من يرى هو ربه, بحيث لا يغيب عنه, ولا يبعُد عنه, في أي لحظة من لحظاته, في ليل أو نهار, في سر أو جهار، وهذه هي القمة. وإما أن يعبد الله عبادة من يراه الله وينظر إليه، ويشاهده في كل حركاته وسكناته.

ومن شعر أبي العتاهية, الذي كان يرويه ويردِّده إمام السنة أحمد بن حنبل, ونحن جديرون أن نردِّده معه:

إذا ما خلوتُ الدهر يومًا فلا تقل: خلوتُ ولكن قل: عليَّ رقيب!

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تُخفي عليه يغيب

لهونا عن الأيام حتى تتابعت ... ذنوبٌ على آثارهن ذنوبُ

فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب

إذا ما مضى القرن الذي أنت منهمُو ... وخُلِّفت في قرنٍ فأنت غريب

كلام الغزالي عن (البصير):

قال الغزالي في المقصد الأسنى:

(البصير: هو الذي يشاهد ويرى, حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى. وإبصارُه- أيضًا- منزَّه عن أن يكون بحدقة وأجفان, ومقدَّس عن أن يرجع إلى انطباع الصُّوَر والألوان في ذاته, كما ينطبع في حدقة الإنسان, فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحُدْثان, وإذا نُزِّه عن ذلك, كان البصرُ في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات, وذلك أوضح وأجلى مما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات).

حظ المكلف من هذا الاسم:

قال الغزالي: (حظ العبد, من حيث الحس من وصف البصر ظاهر, ولكنه ضعيف قاصر؛ إذ لا يمتد إلى ما بَعُد، ولا يتغلغل إلى باطن ما قرُب؛ بل يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر.

وإنما حظُّه الديني منه أمران:

أحدهما: أن يعلم أنه خَلَق له البصرَ, لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت والسماوات, فلا يكون نظرة إلا عبرة. قيل لعيسى عليه السلام: هل أحد من الخلق مثلك؟ فقال: من كان نظره عبرة, وصمته فكرة, وكلامه ذكرًا؛ فهو مثلي.

والثاني: أن يعلم أنه بمرأى من الله عز و جل ومسمع, فلا يستهين بنظره إليه واطِّلاعه عليه، ومن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله, فقد استهان بنظر الله عز و جل.

والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة, فمن قارف معصية وهو يعلم أن الله عز وجل يراه, فما أجسره! وما أخسره! ومن ظنَّ أن الله تعالى لا يراه فما أظلمه! وما أكفره!)[1]

1

الله الأول والآخر

اسما (الأول) و(الآخر) من أسماء الله تعالى، وهما من الأسماء المقترنة في النصوص، ذكرهما القرآن، وصحت بهما السنة، وأجمعت عليهما الأمة؛ لأن كل ما في القرآن مجمع عليه بلا شك، وتلتهما الألسنة, وخفقت بذكرهما القلوب، قال تعالى: **{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}** [الحديد:3].

وقال صلى الله عليه وسلم: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء, وأنت الآخر فليس بعدك شيء.."[1] الحديث.

وهذا التعبير القرآني لا شك أولى من التعبير الاصطلاحي عند علماء الكلام, الذين عبروا عن الأولوية بصفة (القدم)، وعن الآخرية بصفة (البقاء)، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعبر في حديث صحيح عن هذين الاسمين أو هاتين الصفتين، ولا عبر صحابته بغير ما عبر به القرآن، ولم نقرأ في حديث مرفوع أو موقوف عن القدم والبقاء، أو عن القديم أو الباقي اسمين لله تعالى، ونحن آثرنا عبارة القرآن؛ فإن القديم يطلق على المخلوقات وعلى الأشياء، وكما قال تعالى: **{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}** [يس:39]

ويترتب على اسم الأول من الصفات: الأولية المطلقة لله تعالى, فليس قبله شيء في الوجود، وكل ما عداه فهو مخلوق له، في الأرض أو في السماء، مما نراه أو مما لا نراه **{ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ}** [الأنعام:102].

(فقد كان الله ولا شيء معه, وتضمنت أوليته سبحانه حدوث كل شيء غيره, وتضمنت آخريته فناء كل ما سواه, فكان هو الأول والآخر, فهو الأول بوجوده في الأزل وقبل الابتداء, والآخر في وجوده في الأبد وبعد الانتهاء, وعلى هذا يكونان من أسماء الذات. وأنشدوا:

فيا قَبْل كُلِّ القَبْل لا قبلَ قبلَه ... ويا بَعدَ كُلِّ البَعْد والبَعْدُ ذاهبُ

---

[1] أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (61/2713), وأبو داود في الأدب (5051), والترمذي في الدعوات (3400), والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (10626), وابن ماجه في الدعاء (3873), وأحمد في المسند 536,381/2, والبخاري في الأدب المفرد (1212), وابن حبان في صحيحه (5537), والحاكم في المستدرك 546/1, وابن أبي شيبة في المصنف 39/6 من حديث أبي هريرة.

ويجوز أن يكونا من أسماء الأفعال, على معنى: أَوَّلَ الأَوَّلَ, وأَخَّر الآخِرَ في الوجود والنسب والمراتب, ومنه قوله عليه السلام: "أنت المقدم وأنت المؤخر"[1].

قال ابن العربي: وأما من قال: إنه آخر. بمعنى آخِر الأواخرِ؛ فهذا إنما يصح لو كان المؤخِّر, فأما الآخِر فليس يشهد له تصريف ولا معنى, ثم لفظ أوَّل يقال على أنحاء، من ذلك أولية التقدم وهي تنقسم إلى قسمين: تقدم زمن، وتقدم مَرْتبة, وينقسم تقدم المرتبة إلى قسمين:

تقدم شرفٍ وفضيلةٍ كقولك: الأنبياء والعلماء أوَّلُ الناس! أي أشرفهم. وتقدم مَبْدَأ (أي: بداية) وسببٍ؛ كآدم عليه السلام، فإنه أول الخلق، وسبب وجودِهم, فله سبحانه من أقسام الأولية القِدَم لا إلى أَوَّل. وله أولية الشرف والفضل؛ لأنه حاز الأسماء الحَسَنة كلها, وذلك بحقائقها, واتصف بصفات العُلا على كمالها, فله الأولية في المراتب كلها, وذلك ما عبَّر عنه الحق بقوله: **{ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ}** [غافر:15].

وقد سرد ابن العربي عن العلماء في الأوَّل خمس عبارات:

الأولى: أنه الموجود قبل الخلق, كان ولا شيء قَبْله, ولا معه. قاله ابن عباس.

الثانية: أنه الذي لا ابتداء له.

الثالثة: أنه الذي له كل شيء, وبه كل شيء, ومنه كل شيء, كما يقال: فلان أول هذا الأمر وآخره.

الرابعة: أنه الأَوَّلُ بصفاته.

الخامسة: أنه الأول بمحبته لأوليائه.

قال: والآخر مقابل الأول, ولهم في ذلك ستُّ عبارات:

الأولى: أنه الموجود بعد الخلق فلا شيء بعده.

الثانية: أنه الذي لا انتهاء له.

الثالثة: أنه الذي يرجع إليه كل شيء.

---

[1] أخرجه البخاري في التهجد (1120), وفي الدعوات (6317), والنسائي في قيام الليل (1618), وابن ماجه في إقامة الصلاة (1355), وأحمد في المسند 358/1, وابن خزيمة في صحيحه (1151), وابن حبان في صحيحه (2597), والطبراني في الكبير (10987), وأبو يعلى في مسنده (2404), وعبد الرزاق في المصنف (2565), والبيهقي في السنن الكبرى 4/3 كلهم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

الرابعة: أنه الذي آخَّر الأواخر, قاله الضحاك. يعني أنه الذي جعل لكل شيء آخِرًا.

الخامسة: أنه الآخرُ بقضائِه وقدرِه.

قلتُ (القرطبي): وكذا هو أيضًا أوَّل بقضائه وقدره، وقَضَى وقدَّرَ في الأزل.

السادسة: أنه الآخر بإظهار محبته لأوليائه ونقمته لأعدائه.

واتفقت الأمة على أنه لا يجوز وصف المخلوق بهذين الاسمين مُعَرَّفًا على الإطلاق, ويجوز مُقيّدًا ومضافًا أو مُنكَّرًا بلا خلاف. تقول: جئتك أولَ أمس وعام الأول. وإن للزمان أوّلًا وآخرًا، وشَبَه ذلك.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن الأولون والآخِرون"[1].

قال بعض العلماء: أراد بذلك, الأولون في عَلَم النبوة, الآخرون في إظهار البعثة والرسالة؛ لأنه روى أنه سئل عليه السلام متى كنت نبيًّا؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد"[2].

قال ابن العربي: ليس كذلك، والحديث إنما نصه: "نحن الآخِرون السابقون, بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا, وأوتيناه من بعدهم, فهدانا الله له, غدًا لليهود، وبعد غد للنصارى"[3])[4].

---

1 ضعيف : أخرجه أبو يعلى في مسنده 213/4 (2328) مطولًا, وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 373,372/10. وقال : "وفيه علي بن زيد وقد وثق على ضعفه".

2 صحيح: أخرجه أحمد في المسند 59/5, والطبراني في الكبير 353/20 (834,833), وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 223/8. وقال : " ورجاله رجال الصحيح ", والحاكم في المستدرك 609/2. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه", ووافقه الذهبي, والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (4845), وابن أبي عاصم في السنة (410), كلهم من حديث ميسرة الفجر.

وأخرجه أحمد في المسند 379/5, وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 223/8. وقال : "ورجاله رجال الصحيح ", وابن أبي عاصم في السنة (411), وابن أبي شيبة في المصنف 329/7 من حديث عبد الله بن شقيق عن رجل قال : قلت : يا رسول الله, متى جعلت نبيا؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد". وصححه الألباني في ظلال الجنة (411).

وأخرجه الطبراني في الكبير (12646,12571), وفي الأوسط (4175) من حديث ابن عباس, وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 223/8 : " وفيه جابر بن يزيد الجعفي وهو ضعيف".

وأخرجه الترمذي في المناقب (3609) من حديث أبي هريرة وقال: " هذا حديث حسن صحيح غريب". وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (5758).

3 أخرجه البخاري في الجمعة (896), وفي أحاديث الأنبياء (3486), ومسلم في الجمعة......

4

الله الظاهر الباطن

وهما من أسماء الله الحسنى, ومن الأسماء المقترنة، التي جاء بها القرآن وصحت بها السنة، وأجمعت عليها الأمة، وقد جاء تفسيرهما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال: "أنت الأول فليس قبلك شيء, وأنت الآخر فليس بعدك شيء, وأنت الظاهر فليس فوقك شيء, وأنت الباطن فليس دونك شيء"[1].

1-الظاهر:

والظهور هنا بمعنى القوة والعزة، والنصر والغلبة, فهو الظاهر الغالب على أعدائه، كما قال تعالى: **{فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}** [الصف:14]، وقال تعالى: **{ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ّ الله وَهُمْ كَارِهُونَ}**[التوبة:48]، كما قال تعالى عن عباده المرسلين: **{ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}** [الصافات:172-173]، وجاء في أحاديث الطائفة المنصورة المشهورة: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين".

2-الباطن:

والباطن من البُطُون، ومعناه هنا: القرب, فهو أقرب شيء إلى خلقه, كما قال تعالى: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}** [البقرة:186]. **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق:16]. وحبل الوريد: طَرَفه في العنق.

قال ابن عطاء الله السكندري: (الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده، أو قبله أو بعده: فقد أعوزه وجودُ الأنوار، وحُجِبت عنه شموسُ المعارف بسحب الآثار.

- مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه،

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي

1

ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء؟)[1].

ومن التحليقات العالية التي يحلق فيها صاحب الظلال سيد قطب رحمه الله: هذه التعليقة في سورة الحديد بعد لقطاته الأولى من أوائل السورة، وتعليقاته القيمة عليها يقول: (وما يكاد يفيق من تصوَّرَ هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقةٌ أخرى، لعلها أضخم وأقوى؛ حقيقة أن لا كينونة لشيءٍ في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه، ومِن ثَمَّ فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء:

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}..

الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء.

الأول والآخر مستغرِقًا كلَّ حقيقةِ الزمان، والظاهر والباطن مستغرِقًا كلَّ حقيقةِ المكان. وهما مطلقتان.

ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله، وهذه كل مُقَوِّمات الكينونة ثابتة له دون سواه، حتى وجود هذا القلب ذاته، لا يتحقق إلا مستمِدًّا من وجود الله، فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده، وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته، وليس وراءها حقيقة ذاتية، ولا وجودٌ ذاتي لشيء في هذا الوجود..

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.. عِلْمُ الحقيقة الكاملة. فحقيقة كل شيء مستمِدَّة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها، فهي مستغرِقة إذنْ بعلم الله اللَّدُنِي بها،

1

العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته، مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء! فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه، وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود– حتى ذلك القلب ذاته– إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيءٍ وَهْمٌ ذاهب، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله، المتفرِّدُ بكل مقومات الكينونة والبقاء؟

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب لَيُحيلُه قطعةً من هذه الحقيقة، فأما قبلَ أن يصل إلى هذا الاستقرار، فإن هذه الآية القرآنية حسْبُه ليعيش في تدبرها وتصوُّرِ مدلولها، ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى! ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى، وهاموا بها وفيها، وسلكوا إليها مسالك شتى، بعضهم قال: إنه يرى الله في كل شيء في الوجود. وبعضهم قال: إنه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود. وبعضهم قال: إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره في الوجود.. وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة، إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال، إلا أن ما يؤخذ عليهم– على وجه الإجمال– هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور.

والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة، ويعيش بها ولها بينما هو يقوم بالخلافة في الأرض بكل مقتضيات الخلافة، من احتفال وعناية، وجهاد وجهد، لتحقيق منهج الله في الأرض، باعتبار هذا كله ثمرةً لتصور تلك الحقيقة تصورا مَتَّزِنًا، متناسقًا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون كما خلقهما الله)[1].

[1]- في ظلال القرآن، سورة الحديد.

ليس كمثله شيء

ومن صفاته تعالى: أنه متفرد في أوصافه, فلا يشبه أحدًا ولا شيئًا من خلقه, ولا يشبهه أحد ولا شيء؛ كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:11]. فلا يمكن أن يماثله شيء في الأرض، أو في السماء, مما يُرَى، ومما لا يُرَى، ومن أين للمخلوق أن يشابه الخالق؟ الشُبْهَة[1] هنا منعدمة, وكلهم عبيد له, كما قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم:93-95]. وقال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:4]. أي: ليس له من يكافئه في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

فُتِنت اليهود، فشبهوا الله تبارك وتعالى بخلقه، وصوروه بصور المخلوقين، فهو يمشي معهم ويتكلم بكلامهم، ويتحلى بأوصافهم البشرية، ويدخل معهم في صراع، فيصرعه بعضهم، ولا يفلت منه حتى يعطيه بعض المزايا لذريته.

وفتن النصارى، فشبهوا المخلوق بالخالق، فاتخذوا المسيح ابن مريم إلهًا، وجعله بعضهم ثلث إله، على أساس نظرية التثليث التي أخذوها من الهنود، وهي عندهم نظرية قديمة، وقد كفَّر القرآن من قالوا ذلك، فقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة:72-73].

[1] - الشبهة: المِثْل، تقول: إني لفي شبهة منه. أي شَبَه. انظر تاج العروس (شبه).

الله الغني الحميد

1- الغني:

من أسماء الله الحسنى, التي أثبتها لله تعالى القرآنُ العظيم, والسنة النبوية, وأجمعت عليها أمة الإسلام: اسما (الغني الحميد)، وهما من الأسماء المقترنة في القرآن، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** [فاطر:15], وقال تعالى, وقوله الحق: **{وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}** [محمد:38].

وقال سبحانه: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** [لقمان:26]. وتكرر ذلك في القرآن وفي الأحاديث الصحاح.

(ويجوز إجراؤه على العبد وصفًا مقيَّدًا ولا يجوز مطلقًا, لقوله تعالى: **{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}** [آل عمران:181].

ويقال منه: غَنِي يَغْنَى فهو غنيٌّ, إذا كان له مال. وتغنَّى الرجلُ: إذا استغنى. وأغناه اللهُ. وتغانَوْا: أي استغنى بعضهم عن بعض. قال الشاعر:

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحن إذا مِتنا أشد تَغَانيَا[1]

وغَنِي في المكان: أقام. والمغْنَى: واحد المغاني, وهو المواضع التي كان بها أهلوها, وغَنِي: أي عاش. والغَنَاء -بالفتح- النفع, وأحد المغاني. والغِناء -بالكسر- من السماع. والغِنى -مقصور- اليسار, وقد جاء ممدودًا في الشعر, وأنشد الكوفيون:

سيُغنيني الذي أغناك عنِّي فلا فقرٌ يدوم ولا غِنَاءُ

وقال الزجَّاجي: وجائز عند الكوفيين مد المقصور، ولا يجيزه البصريون.

والغَنِيُّ في كلام العرب: الذي ليس بمحتاج إلى غيره, وكذلك الله عز وجل ليس بمحتاج إلى أحد, فإن كان الغَنِيُّ من له عَرَضٌ من الدنيا محدود, فالغني الذي له ما في السماوات وما في الأرض أولى باسم (الغني) وأحق به, بل هو غَنِيٌّ عن السماوات والأرض، وعن جميع المخلوقات, فإنه لم يخلقها سبحانه عن حاجة عرضت له, ولا ليسد حاجة نزلت به, وإنما خلقها لحكمة, وإن كان من دام مدة من

[1] القائل هو : المغيرة بن حبناء التميمي كما في لسان العرب 135/15, وتاج العروس 8528/1, وغريب الحديث لابن سلام 172/2 (58). وهذا يضعف قول من نسبه للشافعي.

الزمان يسمى: غَنِيًّا, فهو دائم الوجود, غني عن الأمكنة والمخلوقات, فهو الغني حقًّا.

و(الغني): وصف ذاتي له سبحانه فيه معنى السلب؛ لأنه بريء من الاحتياج إلى غيره, والكل محتاج إليه, فهو الغني على الإطلاق, فله الغِنَى المطلق، وكذلك ورد في القرآن غير مُقَيَّد, فهو مُشْعِر باستقلاله سبحانه بما وجب له من صفات الجلال والكمال, والنزاهة وافتقار كل ممكن إليه, فله الحياة الدائمة, والإرادة العامة, والمُلك الدائم, وفي ضمن ذلك افتقار الجميع إليه سبحانه.

وفي كتاب الله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر:15-17]. وقال سبحانه: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ} [الأنعام:14]. وقال: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس:31]. وقال: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر:3]....

فيجب على العبد أن يعلم أن الغني المُطلَق إنما هو الله وحده, وأن غنى العبد من فضله, وأفضله غنى القلب, كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، إنما الغِنَى غنى النفس"[1]. فبين صلى الله عليه وسلم: أن الغنى قد يكون بغير المال, وأن من وضع الله الغنى في قلبه, فقد أغناه.

ولقد أحسن من قال:

كم من فقيرٍ غنيِّ النفسِ تعرفه   وكم غنيٍّ فقيرِ النفس مسكينِ[2]

وقال آخر:

تقنَّع بما يكفيكَ واستعمل الرِّضَا   فإنك لا تدري أتصبحُ أم تمسي

---

[1] أخرجه البخاري في الرقاق (6446), ومسلم في الزكاة (120/1051), والترمذي في الزهد (2373), وابن ماجه في الزهد (4137), وأحمد في المسند 315,261,243/2, وأبو يعلى في مسنده (6259), وابن حبان في صحيحه (679), من حديث أبي هريرة.

[2] ذكره الأصفهاني في الأغاني 333/18.

وقال أبو فِرَاس:

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه ولو أنه عاري المناكب حافِ

ما كل ما فوق البسيطة كافيًا وإذا قنعت فكل شيءٍ كافِ

فليس الغنى عن كثرة المال، إنما يكون الغنى والفقر من قبل النفس, فمن رضي بقسم الله تعالى له كان به غنيًّا, ولديه حفيًّا, ومن لم يسأل الله يغضب عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم مخبرًا عن ربه تعالى: "يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأْ صدرَك غنًى وأسدُّ فقرَك، وإلَّا تفعلْ ملأتُ يدك شغلًا ولم أسدَّ فقرَك"[1]. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب. وفي الصحيح: "ومن يستغن يُغْنِه الله، ومن يستعفِف يعفّه الله"[2].

وفي التنزيل قول الله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}** [الحجر:87]. **{لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}** [الحجر:88].

فإن قيل: فقد يوجد كثير من الصالحين فقراء ليس بأيديهم شيء من عرض الدنيا؟

قيل له: نعم قد يمنعه الأعراض الدنيوية, ويدخر له النفائس الأخروية, وذلك هو الغِنَى الحقيقي, فمن افتقر إلى الله الافتقار الحقيقي, وسأله العِزَّ الباقي لا العَرَض الدنيوي, أغنى نفسه الفقيرة بعلومه المنيرة, فاستفاد وأفاد, وأنفق مما لا يُخاف عليه النَّفَاد, فهو الغني في الدنيا وفي المعاد, والباقي بغناه أبد الآباد, ومن حرمه الله هذا الغنى, فلو نال جميع ملك الدنيا فهو فقير، ولذلك قيل: من جهل الله فذاك الفقير)[3].

وقد أجاد الشاعر حين قال:

ما لي وما للأغنياء وأنت يا ربي الغنيُّ، ولا يُحدُّ غناكا؟

ما لي وما للأقوياء وأنت يا ربي وربَّ الناسِ، ما أقواكا؟!

ما لي وأبواب الملوك وأنت مَنْ خلق الملوك وقسَّم الأملاكا؟

---

[1] صحيح : أخرجه الترمذي في صفة القيامة (2466), وابن ماجه في الزهد (4107), وأحمد في المسند 358/2, وابن حبان في صحيحه (393), وصححه الحاكم في المستدرك 443/2 ووافقه الذهبي, وصححه الألباني في صحيح الجامع (1914), والصحيحة (1359) من حديث أبي هريرة.

[2] أخرجه البخاري في الزكاة (1469), ومسلم في الزكاة (124/1053), وأبو داود في الزكاة (1644), والترمذي في البر والصلة (2024), وأحمد في المسند 93,47,12/3, والبيهقي في السنن الكبرى 195/4, كلهم من حديث أبي سعيد الخدري.

[3]

فليرض عني الناس أو فليسخطوا   أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

2- الحميد:

من أسماء الله تعالى الحسنى, التي نطق بها القرآن, ونطقت بها السنة, وأجمعت عليها الأمة. أما في القرآن, فكما في قوله تعالى: **{رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}** [هود:73]. وكما في قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** [فاطر:15], وقوله تعالى: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [البقرة:267], وقوله تعالى: **{وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [إبراهيم:8]. وقوله سبحانه: **{وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [لقمان:12]. وقوله سبحانه: **{وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ}** [الحج:24]. وهي الآية الوحيدة التي ورد فيها اسم (الحميد) غير مقترن باسم آخر, مثل (الغني) أو الولي أو المجيد أو العزيز, كما في قوله تعالى: **{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [البروج: 8]. وقوله جل شأنه عن القرآن: **{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [فصلت:42].

وقد ورد اسم (حميد) في القرآن (16) ست عشرة مرة, ومرة أخرى في حالة النصب **{فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا}** [النساء:131].

وأنا في السنة, فيكفينا أن نذكر الصلاة الإبراهيمية التي يذكرها المسلم في صلواته الخمس المفروضة كل يوم خمس مرات, بالإضافة إلى السنن والنوافل, وهي المختومة بقول المسلم: "وبارك على محمد، وعلى آل محمد، إنك حميد مجيد"[1].

1

واسم (الحميد): هو على صيغة (فعيل) بمعنى (المفعول): أي: هو المحمود المثنى عليه, هو المثنى عليه من قبل نفسه, فأعظم من حمد الله تعالى هو الله جل جلاله, فقد بدأ القرآن– بعد البسملة– بقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:1–3]. حمد الله تعالى ذاته, وأنطق بها عباده ليتلوها بألسنتهم, ويفتحوا بها صلواتهم, ويسبحوا بحمد ربهم، والقرآن كله حمد لله تعالى وثناء عليه, وأنطق الله بذلك ملائكته الذين يسبحون بحمد ربهم, ويستغفرون لمن في الأرض, والملائكة في السماوات والأرض يحمدون الله تعالى، ويسبحونه الليل والنهار، لا يفترون.

والمؤمنون من الإنس والجن يسبحون بحمد الله تعالى في عباداتهم وصلواتهم المفروضة وفي عباداتهم وتسبيحاتهم المستحبة التي يتقربون بها إلى ربهم.

وقد حمده وسبَّحه تبارك وتعالى، كلَّ شيء في السماوات والأرض، مما نسمعه ونعرف لغته, ونفهم كلامه, وما لا نعرفه, ولكن الله إذا أراد فقَّهه لنا حين قال: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء:44].

وهو عز وجل قبل خلقه وبعدهم؛ يحمد نفسه, ويسبح نفسه, بما نستطيع أن نفهمه, وما لا نستطيع أن نفهمه, وقد حمد نفسه في أول سورة من كتابه وهي الفاتحة, وفي أوائل أربع سور أخرى, هي سورة الأنعام, وسورة الكهف, وسورة سبأ, وسورة فاطر, وقد جاء الحمد لله والتسبيح بحمده, في ثمان وثلاثين مرة في كتابه: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجاثية: 36–37].

قال الإمام الغزالي: (ويرجع هذا إلى صفات الجلال, والعلو والكمال, منسوبًا إلى ذكر الذاكرين له, فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال).

من الحميد من العباد؟

قال الغزالي: (الحميد من العباد من حُمِدَت عقائده وأخلاقه، وأعماله وأقواله كلها من غير مثنوية, وذاك هو محمد صلى الله عليه وسلم ومن يقرب منه من الأنبياء, ومن عداهم من الأولياء والعلماء, وكل واحد منهم حميد بقدر ما يحمد من عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله, وإذا كان لا يخلو أحد عن مذمة ونقص- وإن كثرت محامده- فالحميد المطلق هو الله تعالى)[1].

أقول: وإنما كان محمد هو المثل الأعلى للعباد المحمودين, فلأن الله تعالى جعله هو الأسوة للخلق. قال تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}** [الأحزاب: 21]. ولذلك اصطفى الله رسوله محمدًا وزكَّاه وطهَّره؛ ليحمل الرسالة العامة الخالدة للناس جميعًا, +وصنعه على عينه، ليربي الأمة المثلى، التي تقود البشرية إلى التي هي أقوم. **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** [الأعراف:158]. وهيأه الله لذلك بما غرس فيه من الصفات العقلية والنفسية والخلقية, كما قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء: 107].

1

الله الحي القيوم

ومن أسماء الله تعالى وصفاته: أنه هو الحي القيوم, وهما اسمان تكررا واقترنا في القرآن، وصحَّت بهما السنة، وأجمعت عليهما الأمة كلها، وقد ذكرتهما أعظم آية في القرآن, وهي آية الكرسي, التي يحفظها عامة المسلمين, حتى الأميين منهم, وصغار تلاميذهم، والتي سأل عنها النبيُّ صلى الله عليه وسلم الصحابي الأنصاري الجليل أبيَّ بن كعب: أيَّ آية في كتاب الله أعظم؟ فقال: آية الكرسي[1]. فأثنى عليه الرسول المعلِّم، وقال: "لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر"[2].

وهي قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة:255].

وعن أنس بن مالك، قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا في الحلقة، ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد فتشهد، ثم قال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أتدرون بما دعا الله؟". قال: فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى"[3].

1- الحيّ:

(الحيُّ: اسم من أسمائه تعالى الحسنى, ورد به القرآن العظيم، وصحت به السنة النبوية, وأجمعت عليه الأمة, ويجوز إجراؤه على المخلوق.

والحياة: ضد الموت. والحيُّ: ضد الميت, فالله سبحانه الحي الباقي الدائم، الذي لا يجوز عليه الموت والفناء, عز وجل وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا...

1

2

3

و(الحي) اسم من أسمائه سبحانه سَمَّى به نفسه, وهو من صفات الذات, وليس في الوجود موجود له حياة من ذاته لذاته إلا الله وحده. فصفة الحياة له ذاتية, والحياة في موضوع اللسان: تطلق حقيقة على الملائكة وعلى الجن، وعلى جميع الإنسان والحيوان, والزواحف والحشرات والأحياء المائية، والنباتات كلها تدخل في الكائنات الحية، وتطلق الحياة مجازًا على أنواع أُخَر, فيقال للشمس: حية, ما دامت ظاهرة. فإذا غربت قيل: ماتت, ويقال للأرض الجدبة: ميتة, فإذ نزل عليها المطر فأنبتت، قيل: حَيِيَت, وأنواع أُخَر من هذا القبيل، تُطلق عليها الحياة مجازًا؛ كالأشجار[1]، والقلوب, والإنسان، وجميع الحيوان، وإن كان يحس ويتحرك بإرادة ويُسمى: حيًّا حقيقة. فحياته عَرَضية غَيْرِية لنفسه وجمسه؛ ولذلك تُسْلَب عن جسمه الحياة فيموت, ونفسه وإن كانت تبقى حياة مؤبدة, فتقديرُ رفع الحياة عنها ممكن, بخلاف (الحي) الذي له الحياة الدائمة على الحقيقة أزلًا وأبدًا, وهو الله سبحانه...

وقال الخطابي: في صفة الله سبحانه بأنه (حي) الذي لم يزل موجودًا, وبالحياة موصوفًا, لا تحدث له الحياة بعد موت, ولا يعترضه الموت بعد الحياة, وسائر الأحياء يَعْتَوِرُهم الموت والعدم في أحد طرفي الحياة أو فيهما معًا **{ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }** [القصص:88].

وقال الغزالي (في المقصد الأسنى): الحيُّ: هو الفعَّال الدَّرَّاك، حتى إن من لا فِعلَ له أصلًا، ولا إدراك؛ فهو ميت. وأقل درجات الإدراك أن يشعر المُدْرِك بنفسه, فما لا يشعر بنَفْسِه, فهو الجماد والميت.

فالحيُّ: الكامل المُطلق, هو الذي تندرج جميع المدركات تحت إدراكه, وجميع الموجودات تحت فعله, حتى لا يشذّ عن علمه مُدرَك, ولا عن علمه مفعول, وذلك هو الله تعالى. فهو (الحي) المطلق, المتصف بجميع الأسماء الحسنى. والصفات العلى بنهاياتها وحقائقها على الكمال الأقصى.

---

[1]- المقرر حقا أن الأشجار تعد في الكائنات الحية، إذ ليس المقصود بالحي العاقل كالإنسان، ولا المتحرك بالإرادة كالحيوان بأنواعه، الكبيرة والصغيرة، والبرية والبحرية، ومنه ما لا يرى إلا بالمكبرات والمكروسكوب، كالحيوانات المنوية، وهو أصل الحياة في الإنسان، بل المراد به: ما ينمو ويتحرك، ويتأثر ويتعرض للموت، وله خصائص أخرى.

فيجب على كل مكلَّف: أن يعتقد أن الله سبحانه (حي) كما أخبر عن نفسه, وأن كل حياة فمن عنده, وأن أشرف أنواع الأحياء الملائكة وبنو آدم السعداء, لبقائهم أحياء بقاء مؤبَّدًا في حياة طيبة, وعيشة راضية.

والكافر بعكس هذا في نار الجحيم لا يموت فيها ولا يحيا، ولو مات لاستراحَ, ولكنه يأتيه الموت من كل مكان, وما هو بميت, فهو حي، ولكنَّ أمرَه متشتِّتٌ, فالحي حقيقة، إنما هو من جَاوَر الرفيق الأعلى, وينعم في الحياة الهنيئة برؤية الله تعالى. فاجتهد أن تنال من هذا الاسم أوفر قسم, فما قسمه الله إلا لك, ولنوع الملك. ومهما نلت هنا الحياة الحقيقية بإدراك المعارف اليقينية, جاورت الحي الأعلى في ملكوته مُتنعمًا برؤية ذاته ونوره...

وقال تعالى في سورة الفرقان: **{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}** [الفرقان:58] وفي سورة (غافر): **{ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** [غافر:65].

وروى أنس بن مالك قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا في الحلقة ورجل قائم يصلي, فلما ركع وسجد ودعا قال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض, يا ذا الجلال والإكرام, يا حي يا قيوم, إني أسألك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد دعا باسمه العظيم الذي دعي به أجاب, وإذا سئل به أعطى"[1] خرجه أبو داود وغيره.

رب المسلمين وإلههم الذي يعبدونه ويعظمونه, ويسألونه أن يقضي لهم حوائجهم في الدنيا والآخرة, لهم ولعيالهم, ولمن يحبونه من المؤمنين: إله حيّ حياة كاملة, فوق حياتنا التي وهبها الله لنا, والتي هي حياة موقوتة بأجل, كان قبلها الموت أو العدم، ثم هي أيام معدودة، وأنفاس محدودة، إذا انتهى الأجل انتهت الحياة, فلا يستقدم ولا يستأخر **{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}** [المنافقون:11].

[1] صحيح : أخرجه أبو داود في الصلاة (1495), والنسائي في السهو (1299), وابن ماجه في الدعاء (3858), وأحمد في المسند 158/3, والبخاري في الأدب المفرد (705), وابن حبان في صحيحه (893), وصححه الحاكم في المستدرك 504,503/1 ووافقه الذهبي, والبيهقي في الأسماء والصفات صـ36 (28), وصححه الألباني كما في صحيح أبو داود.

أما حياة الله، فإنها حياة ليست كحياتنا, بل هي أعلى وأعظم وأبقى من حياتنا المحدودة.

يصف النحويُّون الأفعال بأنها إما لازمة وإما متعدية. والحياة كذلك منها لازمة, ومنها متعدية, واللازمة التي تحافظ على نفسها، ولا تُمِدُّ غيرها, والمتعدية هي التي تحيا في نفسها, وتُمِدُّ غيرها بالحياة, وعلى ما تمد، ومن تمد: تكون عظمة هذه الحياة. وحياة الله تعالى هي المُمِدّ الأول, بل المُمِدّ الوحيد لكل الحيوات في هذا الوجود, سواء كانت حيوات النبات، أم حيوات الحيوانات البرية أو البحرية, ويدخل في ذلك الزواحف والحشرات, أم الكائنات الحية العاقلة من إنس خلقوا من ماء دافق, أو ماء مهين, ومن جن خلقوا من مارج من نار, ومن ملائكة خلقوا من نور, كل هؤلاء أحياء يغطون الأرض والسماوات, وحياتهم مستمدة من حياة الله تبارك وتعالى.

والله سبحانه الذي يبدأ الحياة الأولى, ويخلقها من نطفة تُمْنَى, هو القادر على أن يحييها بعد أن تموت, ولم لا؟ والإعادة أسهل من البدء, {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:28]. اعتبر الفترة السابقة للحياة الأولى موتًا؛ لأنها مرحلة (العدم) أي: عدم الكون, وهي فترة أشبه بالموت، أو أشد من الموت.

ويذكر القرآن الكريم قدرة الله تعالى التي لا يعجزها شيء في إحياء الموتى, وإخراجهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} [الواقعة:58-62].

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} [القيامة:1-4].

{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا

مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} [ق:1-4].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الحج:5].

هذا الإله الحي يقوم على هذا الكون كلِّه, عُلْوِيّه وسُفْلِيه, أرضه وسماواته, ما يُرى منه وما لا يُرى, وما يُعلم منه وما لا يُعلم, العقلاء وغير العقلاء, المكلفون وغير المكلفين, الحي وغير الحي, الكبير والصغير, الناطق وغير الناطق. الله تعالى قائم تمام القوامة على هذا الكون بما فيه ومن فيه, يشرف عليه ويديره, يسيِّره ويدبر أمره, يعطي ويمنع, ويخفض ويرفع, ويصل ويقطع, ويُضحك ويُبكي, كما قال تعالى {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} [النجم:42-46]. {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد:33])[1].

القيوم:

هو القيوم, (فَيْعُول) مِن (قام)؛ لأنه القائم على المخلوقات كلِّها بكل ما يلزمها, وكل ما يُقيمها, وما تحتاج إليه, يطعم الجائع, ويسقي العطشان, ويروي الظمآن, ويغيث اللهفان، ويحيي الميت, ويخضِّر الذابل, ويصل المقطوع, ويعطي الممنوع, ويرفع الوضيع, ويردُّ الشارد, ويدلُّ التائه, ويجيب السائل, ويعلم الجاهل، ويؤوي المحتاج, ويهدي الضال, ويشفي المريض، ويمرض السليم, ويقيم المقعد, ويقعد القائم، ويعز ويذل، ويهدي ويقبل، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويضر وينفع، ويصل ويقطع، ويعين من لا صلة له, ويقضي لكل مخلوق ما يتوق إليه من مادي ومعنوي, من حاضر, ومن مستقبَل, إلى غير ذلك من حاجات الدنيا والآخرة, وما أكثرها من حاجات, وما أغزرها من طلبات. ولكن الله تعالى يقوم بها ويجيبها، ويعطيها لطالبيها كلهم. كما قال تعالى في الحديث القدسي المشهور: "يَا عِبَادِي لَوْ

1

أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ"[1]. وقال تعالى: { **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** } [الرعد:33].

تكررت هاتان الصفتان مجتمعتين في آية واحدة, عدة مرات: أولاها في آية الكرسي, {**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**} [البقرة:255]. وثانيها في أول سورة آل عمران: { **الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** } [آل عمران:1-2] وثالثها في سورة طه: { **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** } [طه:111].

---

[1]- رواه مسلم في البر والصلة (2577) عن أبي ذر.

ذو الجلال والإكرام

ذو الجلال:

اسم (الجليل) لم يرد بهذه الصيغة في القرآن, وإنما ورد ذو الجلال في قوله تعالى: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** [الرحمن:26-27], وورد في السورة نفسها بلفظ (ذي الجلال) قال تعالى: **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** [الرحمن:78].

(وجلال الله: عظمته, وقولهم: فعلته من جَلَالك, أي من أجلك.

وأنشد الكسائي:

وإكرامي القَوْمَ العِدَا من جَلالها

قال ابن العربي: ولا فرق في لسان العرب بين قولك: (ذو الجلال) وبين قولك: (الجليل) كما لا فرق بين قولك: ذو العلم, وبين قولك: العالم)[1].

(والجليل: من قولهم: (جَلال). ولما قال أبو سفيان يوم أُحُد: اعلُ هُبَل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله أعلى وأجلُّ"(2). ولما قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله مولانا ولا مولى لكم"(3).

(وجاء في حديث أبي هريرة الضعيف- الذي ذكرناه آنفًا- وقال القرطبي: أجمعت عليه الأمة, ولا خلاف في إجرائه على المخلوقين. يقال منه: جَلَّ فلان يَجِل- بالكسر- جلالة, أي عظم قدرُه فهو: جليل)(1).

ولهذا رأينا المسلمين خاصهم وعامهم, يجمعون على وصف الله تعالى إذا ذكروه بألسنتهم أو بأقلامهم: الله عز وجل، أو الله جل جلاله, يقولها الأئمة الكبار, ويقولها الطلاب الصغار, فهذا دليل على وصف الله تعالى بالجلال, ولا عجب أن يؤخذ من ذلك وصفه بالجليل.

1

2

3 أخرجه البخاري في الجهاد (3039), وأحمد في المسند (293/4), والنسائي في الكبرى (8635), وابن حبان في صحيحه (4738), والطيالسي في مسنده (725), وأبو عوانة في مسنده (6846), وأبو نعيم في حلية الأولياء (39/1), وابن سعد في الطبقات الكبرى (48/2), وكلهم من حديث البراء بن عازب.

(فالجليل: ذو الجلال, والجلال جِمَاع معاني الخير: من العلو، والعِظَم، وكِبَر الشأن، والظهور. ولما كان لهذا الاسم تردد بين هذه المعاني المتقاربة, أعني العلو والظهور والكِبَر والعِظَم والخيرورية والعطاء, أشكل معناه على العلماء, واختلفوا فيه.

فقال الحليمي: كل من له جلال فهو جليل, ومعناه المستحق للأمر والنهي، وهذا على الحقيقة إنما هو الله سبحانه, فإن جلال الواحد فيما بين الناس إنما يظهر بأن يكون له على غيره أمر نافذ, لا يجد من طاعته فيه بُدًّا, فإذا كان من حق الباري سبحانه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذًا, وطاعته له لازمة, وجب له اسم (الجليل) حقًّا، وكان لمن عرفه أن يدعُوه بهذا الاسم, وبما يجري مجراه ويؤدي معناه.

وقال الخطابي: هو من الجلال والعظمة, ومعناه منصرف إلى جلال القَدْر, وعِظَم الشأن, فهو الجليل الذي يصغر دونه كلُّ جليل، ويتَّضِع معه كل رفيع.

وقال ابن العربي: إن قلنا: جلَّ بمعنى أعطى, فهو المُعْطِي حقيقة. وإن قلنا: إن أجلَّ بمعنى أَسَنَّ، أي: تطاول مداه واستمر وجوده بربه, فالباري مستمر الوجود إلى غير غاية، غير مسبوق بوجود في بدايته, ومعناه معنى: (الأول) و(الآخر). وإن قلنا: إن الجليل هو العظيم المقدار الموصوف بنعوت الجلال, فهو للبارئ بالحقيقة, ولمجموع هذه الأوصاف وُصِفَ بأنه (جليل كبير).

قال: وقد اختلف علماؤنا رحمة الله عليهم في الجَلَال والعِظَم، هل هما وصف خاص يرجع إلى معنى زائد على الذات؟ أو هما عبارة ترجع إلى مجموع أوصاف؛ كاختلافهم في القدوسية والعزة؟

قال: والصحيح أنهما عبارة عن مجموع أوصاف هي: شمول العلم، وعموم القدرة والإرادة، وعدم النظير، واستحالة الآفات. ثم قال بعد هذا القول في مجموع هذه الأوصاف, وهو (العلي الكبير) و(العظيم والجليل): هل ترجع إلى معنى واحد في الشرف والقَدَم (أي: السبق والتقدم), أم إلى معان متعددة يختص كل واحد من الأسماء بواحد من المعاني؟ حكي اختلاف العلماء في ذلك على قولين:

أحدهما: أن هذه الأسماء ترجع إلى معنى واحد, وهو كمال الذات والصفات, ومنهم من فرَّق بينهما، وجعل لكل واحد معنى خاصًّا. فقال: إن (العلي) هو الذي لا

رتبة فوق رتبته, و(الكبير) هو الموجود الكامل الذات, و(الجليل) هو الكامل الذات والصفات. وأورد كلامًا حسنًا بديعًا, نفعه الله به, قال في آخره: وأما (الجليل) فهو عبارة من موجود كامل الصفات, له الغِنَى والمُلك، والقدوسية والعلم والقدرة, وهو الله سبحانه, فهذا معنى يختص به اسم الجليل.

قال ابن الحصار: اختار رحمه الله في الترجيح أن يكون لكل اسم معنى يخصه, وهو الحق؛ لأن الترادف لا يصح في أسماء الخالق سبحانه, ولولا اختلاف مفهوماتها لم تتعدد الدلالات, والدليل على اختلاف معانيها مُسْتَرْوَح من ألفاظها؛ لأنك تقول: جلَّ ربُّنا عن كذا، وهو العلي عن كذا, والله أكبر من كل شيء. فإذا قلت: جلَّ ربنا عن كذا وقرنته بمجرور, فقد نزَّهته تنزيهًا مقيدًا, وإذا حذفت كنت قد نزهته تنزيهًا مُطلقًا، وهذا الاسم يتضمن جلال ذاته، وجميع صفاته سبحانه, فهو يحتوي على جميع أسمائه الحسنى.

فيجب على كل مكلَّف أن يعلم أن لا جليل على الإطلاق إلا الله وحده, وكيف يكون لغيره جَلَال والحقارة لازمة له من ذاته بعد العدم الذي هو مَحْوٌ محضٌ قد كان في غَيابته, وإنما أوجده المُوجد الحق بفضله وعنايته, فأنى يليق الجلالُ مَنْ هذه صفته؟! كلا. لا جلالة إلا لله وحده, ثم يخصُّ بالإجلالِ إذا شاء عبدَه، ثم على العبد أن يكون مُجِلًّا لله تعالى في جميع الأحوال. وما يسري إليه سبحانه من إجلالك لشيء, بل الإجلال لنفسك عائد, وبه تكون جليلًا في الدنيا والآخرة, ويكون لك من التعبد للمُتَسَمِّي بهذا الاسم أوفر قسم, فكل من ليس عند الله بجليل, فهو حقير ذليل, وإن قال الناس فيه: جليل.

وإجلالك للحق سبحانه: أن تنزَّهه تنزيها مطلقًا ومقيدًا, فتنزهه عن جميع ما وجب لغيره ويجوز عليه, فهذا هو التقييد, ثم تعترف بالعجز عن الإحاطة بجميع ما وجب له سبحانه؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[1].

[1] أخرجه مسلم في الصلاة (222/486), وأبو داود في الصلاة (879), والنسائي في الطهارة (169), وابن ماجه في الدعاء (3841), وأحمد في المسند 201/6, من حديث عائشة.

ويجب عليك أن تُجلَّ من أجلَّ الله, وتُعظِّم من عظَّمه, فتجلُّ كُتُبَه وأسماءَه وملائكتَه ورسلَه وأنبياءَه وأولياءَه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المُقسِط"[1])[2].

وقد جرت عادة الملوك في الدنيا: أن يسمي أحدهم نفسه: صاحب الجلالة, كما قد يسمى أحدهم نفسه (صاحب العظمة). ولقد رأينا الحكام المتورعين الذين يخشون ربهم, ويخافون سوء الحساب يأبون أن تطلق هذه الألفاظ عليهم, ويرون أن ينزهوا أنفسهم عنها؛ كان الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله يقول: لا تقولوا: صاحب الجلالة, صاحب الجلالة هو الله وحده. ثم جاء الملك فهد, ولم يعد يتلقب بها, ولكن سمى نفسه: خادم الحرمين. وكذلك الملك عبد الله من بعده. وهذا هو الأليق والأولى, من الألفاظ التي فيها الإيهام بالتعظيم الذي لا يليق إلا بملك الملوك الأعلى, وهو الله عز وجل.

(وقال الخطابي:... والإكرام مصدر أكرم يكرم إكرامًا, والمعنى أن الله سبحانه يستحق أن يُجلَّ ويُكرَم, ولا يُجحَد ولا يُكفر, وقد يحتمل المعنى: أنه يُكرِم أهل ولايته ويعرف درجاتهم بالتوفيق لطاعته في الدنيا, ويجلهم بأن تتقبل أعمالهم ويرفع في الجنان درجاتهم.

وقال الحليمي: ومعنى (ذي الجلال): المستحق لأن يُهاب سلطانه، ويُثنى عليه بما يليق بعلو شأنه.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: **{ذُو الْجَلَالِ}** [الرحمن:27]. يقول: ذو العظمة والكبرياء.

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الجلال على الإطلاق لله الواحد الخلاق, ثم يكثر من قول: يا ذا الجلال والإكرام, كما في الحديث: "ألِظُّوا بيا ذا الجلال

---

[1] حسن: أخرجه أبو داود في الأدب (4843), والبخاري في الأدب المفرد (357), والبيهقي في السنن الكبرى 163/8, وابن أبي شيبة في المصنف 421/6, من حديث أبي موسى الأشعري, وقال الألباني في صحيح الجامع (2199), وفي مشكاة المصابيح (4972) : ((حسن)).

[2]

والإكرام"[1]. والإلظاظ في اللغة: الملازمة للشيء والمثابرة عليه والإكثار منه, يقال: أَلَظَّ بالشيء يُلِظ إلظاظًا؛ إذا لازمه وثابر عليه, ومنه: (لظًى) اسم من أسماء النار, سُمِّيَت بذلك لدوام تلهبها وكثرة لظاها. فأمر صلى الله عليه وسلم بالملازمة والإكثار منه وفي الدعاء واللهج بهاتين الكلمتين يستمد القلب من دوام ذكر اللسان (جلال الله عز وجل)، ويقر في نفسه تعظيم الله تعالى وهيبته, ويمتلئ صدره بمراقبة جلاله, ويستتير سره بملاحظة كبريائه وجماله, فيكرمه ببره ونعمه, ويمهد بعواطف فضله عليه وكرمه دنيا وأخرى. والله أعلم)[2].

<u>ذو الإكرام:</u>

وكما أنه سبحانه وتعالى ذو الجلال, فهو أيضًا ذو الإكرام. (ذو الجلال) فيه دلالة على الجانب المهم في أسمائه وصفاته سبحانه, وهو جانب الكبرياء والعظمة والعزة والقوة, كما في قوله تعالى: **{لَـهُ الْـمُـلْكُ}** [التغابن:1]. والإكرام, يمثل الجانب المهم الآخر في أسمائه وصفاته جل جلاله, وهو ما يمثل جانب الجمال واللطف والجود والكرم, كما في قوله تعالى: **{وَلَـهُ الْـحَمْدُ}** [التغابن:1].

وهو عز وجل حريص على أن يتجلى بأسمائه لعباده بهذين الجانبين أو الأمرين من أسمائه وأوصافه, كما في سورة الفاتحة, ظهر في قوله تعالى: **{الْـحَمْـدُ لِله رَبِّ الْـعَـالَـمِينَ * الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ}** [الفاتحة:1-2] وهي تمثل جانب الجمال والرحمانية والرحمة والحمد الله, ثم ظهر الجانب الآخر متمثلًا في قوله تعالى: **{مَـالِـكِ يَـوْمِ الـدِّيـنِ}** [الفاتحة:3]. أو: **{مَـلِكِ يَـوْمِ الـدِّيـنِ}** على القراءتين.

والله تعالى قد ظهر باسمه الكريم, كما في قوله تعالى: **{يَـا أَيُّـهَـا الْإِنْـسَانُ مَـا غَرَّكَ بِـرَبِّـكَ الْـكَرِيـمِ * الَّـذِي خَـلَـقَـكَ فَـسَوَّاكَ فَـعَـدَلَـكَ * فِـي أَيِّ صُورَةٍ مَـا شَـاءَ رَكَّـبَـكَ}** [الانفطار:6-8].

---

[1] صحيح: أخرجه النسائي في الكبرى في النعوت (7716), وأحمد في المسند برقم .... والطبراني في الكبير (4594), والقضاعي في مسند الشهاب (693), وصححه الحاكم في المستدرك 499/1 ووافقه الذهبي. كلهم من حديث ربيعة بن عامر. وقال الألباني في صحيح الجامع (1250) : ((صحيح).

[2]

والكريم هو الذي يعطيك من فضله, دون أن يناله منك شيء, بل يعطيك ويعطيك وإن أسأت إليه, ولم تقم بما ينبغي عليك نحوه, وهكذا يتعامل الإنسان الكريم مع الناس, كما قال أبو الطيب:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغار صغارها وتصغر في عين العظام العظائمُ

وقال الغزالي: (الكريم هو: الذى إذا قدر عفا، وإذا وعد وفَى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالى كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإذا رُفِعَتْ حاجةٌ إلى غيره لا يرضى، وإذا جفا عاتب وما استقصى، ولا يضيِّع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء.

فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق، وذلك هو الله تعالى فقط).

قال الغزالي: (تنبيه: قد يتجمل العبد في اكتسابها, ولكن في بعض الأمور, ومع نوع من التكلف, فلذلك قد يوصف بالكريم. ولكنه ناقص بالإضافة إلى الكريم المطلق, وكيف لا يوصف به العبد, وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقولوا للعنب: الكرم, فإن الكرم هو الرجل المسلم"؟ وقيل: إنما وصف شجر العنب بالكرم؛ لأنه لطيف الشجرة, طيب الثمرة, سهل القِطاف, قريب المُتناوَل, سليمٌ عن الشوك والأسباب المؤذية, بخلاف النخل)[1].

وفي أول آيات أنزلت على محمد رسول الله: **{ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }** [العلق:3-5]. فكما سُمِّيَ الله تعالى بالكريم, سمي أيضًا (الأكرم) وهي صيغة أفعل تفضيل من اسم فاعل (كرم) وهو الكريم، والتفضيل منه هو الأكرم, وقد ذكر القرآن من الدلائل على أفضليته عز وجل أمرين:

1

الأول: أنه الذي يعلِّم عباده, ولا يتركهم سدى, بل يعلمهم بوساطة (القلم)، وهو الوسيلة الهائلة التي تشكل العلم المتبحر, والثقافات الواسعة، من أمة إلى أمة, ومن عصر إلى عصر, واليوم يقوم مقام القلم المطبعة وأدوات الكتابة بكل أنواعها وألوانها ولغاتها، في عالم الصحف المقروءة، وما وراء الصحف المقروءة.

والثاني: أنه علم الإنسان ما لم يعلم, فهو سبحانه قد أهَّل هذا الكائن الإنساني بأنه قدير على أن يتعلم ما لم يكن يعلمه من قبل. كما قال الشاعر:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهلُ

والله تعالى يقول: **{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [النحل:78]. فحسبنا أنه عز وجل أعطانا من فضله كل مؤهلات التكلم والتقدم، لما هو أزكى وأرقى وأوسع، ليحصل الإنسان على كل ما يقدر عليه بواسطة السمع مما نقل عن الآخرين، وعن الرسالات السماوية، والأبصار عن طريق المشاهدة والملاحظة والتجريب، وعن طريق العقول، وهي ما فوق الحواس والسمع والبصر.

الله الرزاق الفتاح

من أسمائه تعالى, الذي ذكرها القرآن العظيم, وأكدتها السنة الصحيحة, وأجمعت عليها الأمة: اسم الرزاق, واسم الفتاح. وقد وردا معًا في حديث أبي هريرة عند الترمذي. فهو سبحانه يرزق الناس, ويفتح لهم, ويفتح بهم, ويفتح عليهم.

1-<u>الرزاق</u>:

والرزاق قد جاء في قوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}** [الذاريات:56-58].

وقد جاء وصف الله تعالى بالرزق في صيغتين: صيغة الرزاق, وهي صيغة المبالغة, وصيغة الرازق, وهي صيغة اسم الفاعل.

والمبالغة هنا كثرة الفعل, فالله سبحانه هو الذي يرزق كل من يحتاج, وما يحتاج إلى الرزق من الخلق كلهم, من الإنس والجن والحيوانات والطيور والحشرات والزواحف والأسماك والبحريات والديدان, وكل أنواع النباتات والأشجار والجراثيم والحيوانات المنوية والبويضات والبكتيريات, وكل مخلوق له حاجة إلى الرزق كله أو إلى نوع منه, فرازق الجميع هو الله **{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}** [الملك:21].

ومن قرأ القرآن وتدبره وجد مادة (الرزق) بمشتقاتها قد أخذت منه حظًّا كبيرًا, ومنها ما نسب إلى الله تبارك وتعالى, وقد وصفه القرآن بأنه (خير الرازقين) ومنه أُخِذ اسم (الرازق)، بل هو خير الرازقين؛ لأنه يرزق المؤمن والكافر, والبر والفاجر, ومن يعقل ومن لا يعقل, ومن يطلب ومن لا يطلب, وكلهم ينهلون أو ينهل من فيضه جل وعلا, وهو فيض غامر، لا ينضب، ولا يغيض, ولا ينقص, وقد قال تعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في

صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أدخل البحر "[1].

وقد بين تعالى لعباده: أنه هو الذي يملك كل أسباب الرزق، وكل المواد التي تأتي منها الأرزاق، ما نعلمه، وما لا نعلمه، كما قال تعالى: **{ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }**[الواقعة:63-74].

وقد جاء هذا الوصف في القرآن في أربع آيات, بعضها في سور مكية, وبعضها في سور مدنية.

قال تعالى في مدح المهاجرين: **{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** [الحج: 58].

وقال عز وجل: **{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** [المؤمنون:72].

وقال سبحانه: **{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** [سبأ:39].

وقال تعالى: **{قُلْ مَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** [الجمعة:11].

ولو ضُمَّ إلى هؤلاء ما يطلب رزقه بغير لسان له, بل يطلبها بلسان حاله، أو بطريقته الخاصة, سيعطيه الله, ولا ينقص ذلك من خزائنه الفياضة شيئًا.

فالجميع يسألون ربًّا غنيًّا, وهو أيضًا جواد سخي، لا يعرف ما يعرفه بعض عباده من الشح والقتور, كما قال تعالى: **{قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ**

1

رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} [الإسراء:100].

رزق الله واسع, وقد كتب على نفسه من الرحمة التي كتبها أن يرزق العباد, ولذلك قبل أن يخلقهم سبحانه وفَّر لهم كل ما يحتاجون إليه من معايش وأرزاق، تكفل بها وضمنها بوعده الذي لا يُخلَف أبدًا, وكيف يخلف، وهو لا يكذب أبدا وكيف وهو قادر على إيفاء وعده, ولا يقول إلا حقًّا؟ **{وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}** [الكهف:98] **{وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ}** [الروم:6]. قال تعالى: **{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}** [الأعراف:10-11]، فهو سبحانه هيأ لهم المعايش قبل أن يخلقهم ويصورهم.

ولذا قال تعالى: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا}** [هود:6].

أرزاق الله نوعان: مادية وروحية:

والأرزاق عند الله نوعان: رزق مادي, يحتاج إليه البدن ليعيش ويحس بالطاقة التي تدفعه ليعمل, من أنواع ما يؤكل وما يُشرب وما يتغذى به، لكل مخلوق ما يناسبه, وما يحلو له, مما يؤكل على حاله الذي خلقه الله, وربما تدخله يد الصناعة, ويتفنن فيه الناس, وهناك طعام الضرورة, وطعام الحاجة, وطعام الكفاية, وطعام الترف, وطعام الحلال, وطعام الحرام, وكله جاء من رزق الله, والمؤمن هو الذي يتخير الرزق الحلال الطيب، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}** [البقرة:172], **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}** [المائدة:87-88].

والنَّاس يتوسعون في هذا الرزق المادي ويتفننون، وكلما توسعوا فيه توسعت شهواتهم، وخرجت مما يجب إلى ما لا يجب، وقد يضيق بها الحلال، فتتوجه إلى المكروه، فالشبهات، فالحرام، كما حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه النعمان

بن بشير: "فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ"[1].

وأولى بالمسلم العاقل الراشد العاقل الراشد أن يكون زاده القناعة، وهي نعم الزاد لمن أراد، كما قال الشاعر الصالح:

لكسرة من زهيد الخبـــز تشبعني ونهلة من زُلال الماء ترويني

وقطعة من رخيص الثوب تسترنـي حيًّا وإن مِتُ تكفيني لتكفيني

والمؤمن الذي علم أن الله تكفل له برزقه، قد وثق بوعد الله تعالى له بالرزق، وقد قال تعالى بصريح كتابه: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}**[هود:6]، ولا يخلف الله وعده أبدا، وكان وعده حقا، وضمانه صدقا، ولذلك كان الرجال المؤمنون يذهبون إلى ما قدر الله لهم من أيام أو شهور أو سنوات في الجهاد والرباط، وقد تركوا زوجاتهم وأولادهم، وربما لم يكن وراءهم من المال إلا القليل، ولكنهم غير قلقين عليهم، بل هم مطمئنون إلى أن الله تعالى سيرتب لهم من يأتيهم بأرزاقهم، من حيث لا يحتسب، ولا هم يحتسبون.

وكم ذهبوا إلى زوجات المجاهدين، يريدون أن ينشروا فيهم الفزع والخوف على الأطفال، وخشية الضياع عليهم من عدم الانفاق، وكم قالوا لهؤلاء النساء: كيف ذهب زوجك، وترك الأولاد، ومن أين يأكلون؟ وكيف تأتيهم الأرزاق؟ فتقول الزوجة في ثقة المؤمن، وإيمان الواثق: إن أبا فلان (تعني: زوجها)، منذ تزوجته وعرفته، عرفته أكالا، وما عرفته رزاقا، فلئن ذهب الكال، فلقد بقي الرزاق.

ولو قابلوا الزوج، وسالوه، لرد عليهم قائلا: علينا أن نجاهد كما أمرنا، وعليه ان يرزقنا كما وعدنا!

الرزق الروحي والمعنوي:

والرزق الثاني: رزق روحي معنوي, لا يُمضع بالأسنان, ولا يدخل المعدة, ولكنه رزق للقلوب والعقول, تنشرح به الصدور, وتطمئن به القلوب, وليس لغير العقلاء نصيب منه. كما قال تعالى لرسوله محمد: **{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا**

1- @

مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه:131]. ورزق الرب هنا ليس هو الطعام والشراب, بل هو خير وأبقى من كل الطيبات المادية, وهو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الصيام حين كان يواصل وينهاهم عن الوصال, وسألوه عن ذلك, فقال: "أيُّكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربِّي ويسقيني"[1].

الأرزاق كلها تطلب من الله:

وكل الأرزاق المادية والروحية من عند الله سبحانه, فطلاب الرزق المادي يطلبونه منه, ويستعجلون الطلب, والرزق آتيهم لا محالة, كما قال الشاعر:

لا تعجلن فليس الرزق بالعجلِ   الرزقُ في اللَّوح مكتوبٌ مع الأجلِ

فلو صبرنا لكان الرزقُ يطلبنا   لكنه خلق الإنسان من عجلِ

وطلاب الرزق الروحي يسألونه من الله تعالى في الأوقات المحبوبة عنده؛ مثل السحر, وما بعد الأذان, وفي يوم الجمعة, وفي السجود, ونحوها, فهم يسألون الله تعالى المغفرة والرحمة، والقبول والتوفيق, وحب الله تعالى، وحب رسوله, وحب عباده الصالحين, وحب الخير, كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه فيقول: "اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من يحبُّك, وحب كل عمل يقربني إلى حبِّك, واجعل حبَّك إليَّ أحب إليّ من الماء البارد على الظمأ"[2].

"اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي, وإسرافي في أمري, وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي, وخطئي وعمدي, كل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرْتُ, وما أسررتُ وما أعلنتُ, أنت المقدم وأنت المؤخر, ولا إله إلا أنت"[3].

"اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني"[4].

"اللهم اجعل خير عمري أواخره, وخير عملي خواتمه, وخير أيامي يوم ألقاك"[5].

{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة:201].

1
2
3
4
5

{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف:33].

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران:8].

{رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران:193-194].

{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم:39-40].

{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص:17]. {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}[القصص:24].

{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر:10].

{رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان:74].

الفتاح:

الفتاح: صيغة مبالغة من مادة: فتح يفتح، فهو فاتح، والمبالغة منها: الفتَّاح. وقد وُصِف الله تعالى بالفاتح والفتَّاح، وقد وصفه سيدنا شعيب بأنه تعالى خير الفاتحين، حين قال الذين استكبروا من قومه: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا

وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف:88-89].

فهو سبحانه خير الفاتحين؛ لأنه يفتح كل مغلق، وإن اشتد على الناس وكثرت معوقاته.

وهو سبحانه لا يصعب عليه باب أو قفل مهما تعقدت مقدماته، وصدئت آلياته، وهو عز وجل القادر على فتح كل باب، وإن ظن الناس الظنون أنه لن يفتح. كما قال الشاعر:

ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بهَا الْفَتى ذرعًا وَعند الله مِنْهَا الْمخْرجُ

ضَاقَتْ فلمَّا استحكمت حلقاتها فُرِجَت وَكَانَ يظنُّها لَا تفرجُ

وكلما اشتد الكرب، واستحكم الإغلاق، وزاد الضيق، وكثر الهمُّ، وغلب الاستيئاس، جاء الفتح والفرج من الله سبحانه.

كما قال تعالى: **{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}** [يوسف:110]. وقال تعالى: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}** [البقرة:214]. والجملة الاسمية أبلغ من الجملة الفعلية، فإن أُكِّدت بـ(إن) كانت أوكد، فإذا افتتحت بـ(ألا) كانت أكثر توكيدًا.

قال الغزالي: (الفتاح هو: الذي ينفتح بعنايته كل منغلق, وبهدايته ينكشف كل مشكل, فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه, ويقول: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}** [الفتح: 1]).

وقد قال تعالى على لسان سيدنا شعيب: **{وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}** [الأعراف:89]. قال تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ**

ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم:13-15].

ولقد فتح الله لرسوله ما فتح, من البلاد ومن القرى, القريبة والبعيدة, وكان فتح مكة عاصمة الجزيرة العربية الدينية في ذلك الوقت, فدخلها عليه السلام بجيوشه المظفرة, وكان الفاتح الأعظم, في ذلك اليوم الأغر, الذي دخل فيه على ابنة عمه: أم هانئ بنت أبي طالب, فطلب طعامًا, فقالت: والله ما عندنا إلا خل (لكي يأتدم به) فقال عليه السلام: "نعم الإدام الخل"[(1)]. وأكل الخل في يوم الفتح الأعظم، وقال تعالى: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [النصر:1-3]. في يوم الفتح يستحق ربنا الفتاح أن يسبِّح بحمده، وأن يُطلب غفرانُه، وتُطلب توبتُه، إنه كان توابًا.

وكان الرسول المعلِّمُ ينبئهم بما سيفتح الله عليهم من الأقطار والمدن الكبرى, مثل فتح القسطنطينية وروميــة، وسأله بعضهم: أي المدينتين تفتح أولا: رومية أو القسطنطينية؟ فقال: "مدينة هرقل تفتح أولًا"[(2)]. فقد كانت مدينة هرقل هي التي تتحكم في بلاد العرب في آسيا، بل في إفريقيا، وحين فتح المسلمون سورية، خرج منها هرقل مودعًا قائلًا: سلام عليك يا سورية، سلامًا لا لقاء بعده.

وقد فُتحت مدينة هرقل وغيَّر المسلمون اسمها إلى اسم (إستانبول), وكان فاتحها هو الفتى العثماني ابن الثلاثة والعشرين عامًا، الشهير باسم (محمد الفاتح)، الذي صلينا مرارًا في مسجده, ووجدناهم يعلقون عليه لافتة كُتب عليها الحديث الشريف: "لتُفتحنَّ القسطنطينية, فلنعم الأمير أميرها, ولنعم الجيش ذلك الجيش"[(3)].

وقد يكون الفتح فتحًا سلميًّا، مثل الفتح الذي حدَّث للرسول وأصحابه في الحديبية، فهو فتح بغير حرب، وقد سماه الله تعالى **{فَتْحًا مُبِينًا}**، ونزلت فيه سورة الفتح. قال تعالى: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ**

1
2
3

نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح:1].

وقد يكون فتح رومية المبشَّر به من هذا النوع: من فتح الفكر والدعوة، من فتح القلم لا السيف.

وتارة يفتح الله لأهل الإيمان أبواب الرزق والبركات من السماء والأرض, كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف:96].

وفتح الله للمسلمين أبواب العلم: في الدين واللغة، والتاريخ والثقافات, وعلم الجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس, والعلوم الاجتماعية, والعلوم والهندسة والطب والتشريح والصيدلة, وعلم الفلك وعلم البحار, وعلم الأرض, والهندسة والرياضيات، وغيرها مما فتح الله على البشر بعد ذلك.

وكلها فتحٌ من الله, وكذلك رأينا المسلمين يسمون الكتب الكبيرة في هذه العلوم فتحًا, مثل: (فتح الباري بشرح صحيح البخاري), و(فتح القدير) في الفقه وفي التفسير, و(الفتح الكبير), و(الفتح الصغير), ومثلها الفيض.

وفي الإسلام قد اشتهر تاريخ الفتح الإسلامي, وقادته الكبار, ومعاركه الكبرى, والبلاد المفتوحة, ورجال الفتح من عرف منهم, وكُتِبَ عنه, ومن لم يعرفه إلا الله تعالى, وإخوانه القريبون منه. كما قيل لعمر في إحدى معارك الفتح: واستشهد فلان وفلان وفلان ممن يعرفهم عمر، ثم قيل له: وآخرون لا تعرفهم يا أمير المؤمنين. قال عمر: ولكن الله تعالى يعرفهم ويذكرهم[1].

فتح المسلمين وفتوح غيرهم:

وكتب شيخنا الشيخ الغزالي رحمه الله مقالته الشهيرة: (بين فتح وفتح), تحدث فيها عن فتوح الأقدمين والمحدثين من الإسكندر الأكبر, وجنكيز خان ونابليون, وغيرهم من قادة الشرق والغرب, وفتوح العرب المسلمين وفاتحيهم الربانيين, الذين فتحوا المدن العالمية في بلاد الهند والصين والفرس والروم, وإفريقيا وآسيا وأوربا، وكثير من الديار المليئة بكنوز الذهب والفضة والماس واللآلئ والجواهر, والتي كانت

1

تطل عليهم النساء المخدَّرات من القصور والمنازل, وفيهن ملكات الجمال، وسيدات الحسن، ولم تثبت مرة واحدة في التاريخ: أن اختُطِفت يومًا امرأة من بيتها, أو عدا عليها واحد في قصرها أو بيتها، أو استولى جندي أو قائد، على امرأة، أو أدنى شيء من ثوب أو بُردة من صاحبها؛ لأنهم إذا دخلوا بلدًا كانوا يتلون عند فتوحاتهم قوله تعالى: **{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** [القصص:83].

يقول أبو حامد: (وتارة يَرفَعُ الحجاب عن قلوب أوليائه, ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه, ويقول: **{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا}** [فاطر: 2]. ومن بيده مفاتح الغيب ومفاتيح الرزق فبالحري أن يكون فتَّاحًا)[1].

وهو سبحانه الفتاح الذي ينتصر للمظلوم من الظالم، مهما طال ليل الظلم وادلهمَّ

يا صاحب الهم إن الهمَّ منقطعٌ ... أبشر بذاك فإنَّ الكافي اللهُ
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسنَّ فإن الكافي اللهُ
اللّه حسبك ممّا عذتَ منه به ... وأين أمنعُ ممَّن حسبه الله
يا نفس صبرًا على ما قدَّر الله ... وسلِّمي تَسلَمي، فالحاكم الله
يا رب مُسْتَصْعَبٍ قد سهَّل الله ... ورُبَّ شرٍّ كثير قد وقى الله
إذا بُليت فثِقْ بالله وارضَ به ... إنّ الذي يكشف البلوى هو اللهُ

حظ العبد من هذا الاسم:

(ينبغي أن يتعطش العبد إلى أن يصير بحيث ينفتح بلسانه مغاليق المشكلات الإلهية, وأن يتيسر بمعرفته ما يتعسر على الخلق من الأمور الدينية والدنيوية, ليكون له حظ من اسم الفتاح)[2].

1
2

الله القهار الوهاب

من أسماء الله تعالى الحسنى التي نطق بها القرآن العظيم, ونطقت بها السنة المشرفة, وأجمعت عليها أمة الإسلام في المشارق والمغارب, وامتلأت بذكرها المساجد, وطابت بالحديث عنها الألسنة والأقلام, اسما: القهار والوهاب.

1- القهار:

و(القهار) صيغة مبالغة من قهَرَ، جاء في القرآن في ستة مواضع: مثل قوله تعالى: **{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}** [يوسف: 39]. وقوله: **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا ٱللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}** [ص:65], وقوله: **{قُلِ ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}** [الرعد:16].

وقد جاء هذا المعنى في القرآن باسم (القهار)، وباسم (القاهر)؛ كما في قوله تعالى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً}** [الأنعام:61]. **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}** [الأنعام:18].

معنى (القهار):

قال الإمام الغزالي في كتابه (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى): (القهار, هو: الذي يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال, بل الذي لا موجود إلا وهو مسخَّر تحت قهره ومقدرته، عاجز في قبضته).

نصيب العبد من هذا الاسم:

يقول الغزالي: (القهار من العباد من قهر أعداءه, وأعدى عدو الإنسان نفسُه التي بين جنبيه, فهي أعدى له من الشيطان الذي قد حَذِر عداوته, ومهما قهر شهوات نفسه, فقد قهر الشيطان؛ إذ الشيطان يستهويه إلى الهلاك بواسطة شهواته, وإحدى حبائك الشيطان النساء, ومن فقد شهوة النساء لم يُتصور أن ينعقل بهذه الأحبولة, فكذلك من قهر هذه الشهوة تحت سطوة الدين وإشارة العقل.

ومهما قهر شهوات النفس, فقد قهر الناس كافة, فلم يقدر عليه أحد؛ إذ غاية أعدائه السعيُ في إهلاك بدنه, وذلك إحياء لروحه. فإن من مات عن شهواته في

حياته, عاش في مماته, قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [آل عمران: 169-170]][1].

ونقول لإمامنا الغزالي: (إنه يركز دائمًا على نجاة الفرد, أكثر من التركيز على سعادة المجتمع, والإسلام يسعى إلى سعادة الفرد والمجتمع جميعًا, وإلى العمل إلى إسعادهما بتعاليم الإسلام, وأحكام الإسلام, وأخلاق الإسلام, فكما يُعنَي الفرد بقهر شيطانه وشياطينه المعينين, يجب على كل مسلم من الأفراد والمجتمعات, والحكام والمحكومين, أن يقهروا أعداءهم من شياطين الإنس، لا يجوز ترك هؤلاء يفسدون في الأرض ويضلون الخلق, ويشوِّهون الدين, ويضيعون الدنيا, ولا ينتبه الأفراد الصالحون لهم؛ لأنهم مشغولون بشياطينهم من الجن, تاركين هؤلاء الشياطين الذين هم في الواقع شر من شياطين الجن, كما قال أحدهم:

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي

لا بد للإمام الغزالي وجماعته والمتأثرين به أن يعملوا على محاربة هؤلاء الشياطين الخطرين, كما قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:112].

قال بعض الصوفية: إن شيطان الجن إذا استعنت بالله تعالى، هرب مني وخنس، ولكن شيطان الإنس إذا ذكرت الله فلا يخنس، ويظل معي حتى يغلبني!

الوهاب:

والوهاب صيغة مبالغة من اسم الفاعل من: وهب يهب هبة, (والهبة هي: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض, فإذا كثُرت العطايا بهذه الصفة سُمِّيَ صاحبها وهَّابًا وجوادًا, ولن يُتصور الجود والهبة حقيقة إلا من الله تعالى؛ فإنه الذي يعطي كل محتاج ما يحتاج إليه, لا لعوض ولا لغرض، عاجل ولا آجل, ومن وهب وله في هبته غرض يناله عاجلًا وآجلًا, من ثناء أو مدح أو مودة، أو تخلُّص من مذمَّة أو اكتساب شرف وذكر, فهو معامِل معتاض, وليس بوهَّاب ولا جواد.

1

فليس العوض كله عينًا يُتناول؛ بل كل ما ليس بحاصل, ويَقصدُ الواهب حصولَه بالهبة, فهو عِوَض, ومَن وهب وجاد ليُشَرَّف أو ليُثْنى عليه أو لئلَّا يُذمَّ, فهو معامِل, وإنما الجواد الحق هو الذي يُفيض منه الفوائد على المستفيد, لا لغرض يعود إليه؛ بل الذي يفعل شيئًا, لو لم يُفعَلْ لكان يقبُح به, فهو بما يفعله متخلِّص, وذلك غرض وعِوَض).

صور العباد وهيئاتهم:

قال الغزالي: (لا يُتصوَّر من العبد الجود والهبة, فإنه ما لم يكن الفعل أولى به من الترك, لم يُقدم عليه, فيكون إقدامه لغرض نفسه، ولكن الذي يبذل جميع ما يملكه, حتى الروح, لوجه الله عز و جل فقط, لا للوصول إلى نعيم الجنة أو الحذر من عذاب النار، أو لحظٍّ عاجل أو آجل, مما يعد من حظوظ البشرية, فهو جدير بأن يسمى وهَّابًا وجَوَادًا, ودونه الذي يجود لينال نعيم الجنة, ودونه من يجود لينال حسن الأحدوثة, وكل من لم يطلب عوضًا يُتناول سُمِّيَ جوادًا عند من يظن أن لا عوض إلا الأعيان.

فإن قلت: فالذي يجود بكل ما يملكه, خالصًا لوجه الله تعالى, من غير توقُّع حظٍّ عاجل أو آجل, كيف لا يكون جوادًا, ولا حظ له أصلًا فيه؟

فنقول: حظه هو الله تعالى ورضاؤه ولقاؤه والوصول إليه, وذلك هو السعادة التي يكتسبها الإنسان بأفعاله الاختيارية, وهو الحظ الذي تُستحقَر سائر الحظوظ في مقابلته.

فإن قلت: فما معنى قولهم: إن العارف بالله تعالى هو الذي يعبد الله عز وجل خالصا لله, لا لحظٍّ وراءه، فإن كان لا يخلو فعل العبد عن حظ, فما الفرق بين من يعبد الله تعالى لله خالصًا, وبين من يعبده لحظ من الحظوظ؟

فاعلم: أن الحظ عبارة عند الجماهير عن الأغراض أو الأعواض المشهورة عندهم، ومن تنزَّه عنها, ولم يبق له مقصد إلا الله تعالى, فيقال: إنه قد برئ من الحظوظ, أي: عما يعُدُّه الناس حظًّا, وهو كقولهم: إن العبد يراعي سيده, لا لسيده, ولكن لحظٍّ يناله من سيده, من نعمة أو إكرام, والسيد يراعي عبده, لا لعبده, ولكن

لحظٍّ يناله منه بخدمته، وأما الوالد فإنه يراعي ولده لذاته, لا لحظ يناله منه؛ بل لو لم يكن منه حظ أصلًا، لكان معنيًّا بمراعاته.

ومن طلب شيئًا لغيره لا لذاته, فكأنه لم يطلبه, فإنه ليس غاية طلبه؛ بل غاية طلب غيره, كمن يطلب الذهب, فإنه لا يطلبه لذاته، بل ليتوصل به إلى المطعم والملبس, والمطعم والملبس لا يُرادَان لذاتهما, بل للتوصل بهما إلى جلب اللذة ودفع الألم, واللذة تراد لذاتها, لا لغاية أخرى وراءها, وكذا دفع الألم, فيكون الذهب واسطة إلى الطعام, والطعام واسطة إلى اللذة, واللذة هي الغاية, وليست واسطة إلى غيرها, وكذلك الولد ليس واسطة في حق الوالد؛ بل مطلوبه سلامة الولد لذات الولد؛ لأن عين الولد حظه.

فكذلك من يعبد الله عز وجل للجنة, فقد جعل الله سبحانه وتعالى واسطة طلبه, ولم يجعله غاية مطلبه, وعلامة الواسطة أنه لو حصلت الفائدة دونها لم تُطلب, كما لو حصلت المقاصد دون الذهب لم يكن الذهب محبوبًا ولا مطلوبًا, فالمحبوب بالحقيقة, الغاية المطلوبة دون الذهب, ولو حصلت الجنة لمن يعبد الله لأجلها دون عبادة الله عز و جل لمَّا عَبَدَ الله, فمحبوبه ومطلوبه الجنة إذن لا غير.

وأما من لم يكن له محبوب سوى الله عز و جل, ولا مطلوب سواه؛ بل حظه الابتهاج بلقاء الله تعالى والقرب منه, والمرافقة مع الملأ الأعلى المقربين من حضرته, فيقال: إنه يعبد الله تعالى لله. لا على معنى أنه غير طالب للحظ؛ بل على معنى أن الله عز وجل هو حظه, وليس يبغي وراءه حظًّا.

ومن لم يؤمن بلذة البهجة بلقاء الله عز وجل ومعرفتِه والمشاهدةِ له والقرب منه, لم يشتقْ إليه, ومن لم يشتق إليه لم يتصور أن يكون ذلك من حظه, فلم يتصور أن يكون ذلك مقصده أصلًا؛ فلذلك لا يكون في عبادة الله تعالى إلا كالأجير السوء, لا يعمل إلا بأجرة طمع فيها, وأكثر الخلق لم يذوقوا هذه اللذة ولم يعرفوها, ولا يفهمون لذة النظر إلى وجه الله عز و جل, وإنما إيمانهم بذلك من حيث النطق باللسان، فأما بواطنهم, فإنها مائلة إلى التلذذ بلقاء الحور العين, ومصدقة به فقط.

فافهمْ من هذا: أن البراءة من الحظوظ محال, إنْ كنت تُجوِّز أن يكون الله تعالى, أي: لقاؤه والقرب منه, مما يسمى حظًّا؛ وإن كان الحظ عبارة عما يعرفه الجماهير وتميل إليه قلوبهم, فليس هذا حظًّا, وإن كان عبارة عما حصولُه أوفى من عدمه في حق العبد, فهو حظ)[1].

هل في الناس وهَّاب حقيقي؟:

الوهاب: صاحب الهبات والهدايا والعطايا الواسعة, التي يتوقعها الناس منه, وفوق ما يتوقعون منه, وما لا يخطر ببالهم أن يتوقعوه منه, فمن وهب للناس شيئًا بسخاء نفس, وبسط يد, قال له الناس: واهب, ومن أكثر من العطاء للناس, على اختلاف درجاتهم, واختلاف ألسنتهم, واختلاف ألوانهم, واختلاف طبقاتهم, واختلاف أعمارهم, لا يخرج أحد من عنده إلا وهو باسم الثغر, منشرح الصدر, مستريح الظهر, فهذا قد يسميه الناس وهَّابًا, ولكنه ليس (الوهاب).

هو وهاب من بعض الجهات, ولكنه لا يستطيع أن يهب أشياء؛ لأنه لا يملكها, ولو ملك بعضًا منها فهو لا يملك كلها, وهو محدود القدرة, محدود الإرادة, محدود العلم, هو كما قال الله تعالى **{وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}** [الإسراء:85]. فهو فقير في العلم, فبالنسبة لما في الكون من علوم يظل علماء أهل الأرض العباقرة منهم يكتشفون أجزاء من العلم جزءًا بعد جزء, وينكشف لهم به آفاق مما كانوا يجهلونه, ولا يكشفون جديدًا إلا بدا لهم أنهم يجهلون الكثير الكثير, الذي لا يُزال يطلب ويطلب حتى يُدرَك منه ما يمكن شيئًا شيئًا. لهذا علم الله تبارك وتعالى خاتم رسله محمدًا أن يدعو ربه فيقول: **{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}** [طه:114].

وما عندنا من مال هو جزء ضئيل من الثروة التي بثها الله في الأرض, وربط تحصيلها والوصول إليها بالسنن الكونية التي لا بد من أن تراعى, وقد سمع عمر بن الخطاب رجلًا ينادي ربه أن يرزقه, وهو قابع في المسجد بعد صلاة الجمعة, فقال:

1

لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق, ويقول: اللهم ارزقني, وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة, إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض، أما سمعتم قول الله تعالى: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [الجمعة:10][1].

ما يستوهبه الناس من الله تعالى:

الله تعالى هو الذي يملك كل شيء, ما في الشمس وما في الأرض, ومن في السماوات ومن في الأرض, ما يُرى وما لا يُرى, ما يُعرف وما لا يُعرف, ما يباع ويشترى, وما لا يباع ويشترى, كل هذا ملك الله تعالى، **{فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [يس:83].

والناس يستوهبون الله ما يحبون منه, من ذرية طيبة, كما قال سيدنا إبراهيم خليل الرحمن بعد أن أنجاه الله من النار التي أراد قومه أن يحرقوه بها، فأحالها الله إلى رَوح ورياحين، وقال لها: **{يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}** [الأنبياء:69]. ثم سأل ربه فقال: **{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}** [الصافات:100-101]. فكان هذا الغلام ابنه الأول إسماعيل الذي بدا حلمه في تقبل أمر الله لأبيه بذبحه، وقال لأبيه: **{يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}** [الصافات:102]. ورزقه الله تعالى بابنه الثاني إسحاق بعد صبره على ابنه الأول إسماعيل الذي سمَّته الملائكة الذين بشروا أباه به غلامًا عليمًا: **{إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}** [الحجر:52-53]. كما قال الله تعالى: **{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}** [الصافات:112]. قال إبراهيم بعد ذلك حامدًا ربه: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}** [إبراهيم:39].

1

وزكريا نادى ربه نداء خفيًّا: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 98-90].

ومن دعاء عباد الرحمن: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان:74].

والناس يطلبون من الله الهداية من الضلالة, والتعليم من الجهالة, والخروج من الظلمات إلى النور, كما قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران:8].

ويستوهب الناس من الله العلم الذي ينفعهم في دينهم وفي دنياهم, وينير لهم طريقهم, وييسر عليهم حياتهم، ويدرأ عنهم شياطينهم، ويحقق لهم آمالهم، وهذا بينه القرآن من أول آيات أنزلت {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:3-5]. والعلم إما يكون بالتعلم وبالسعي والبحث, والسؤال عن أهله الذين يتعلم منهم, كما قال: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:122].

وكما ينبغي الرحلة في طلب علم الدين ينبغي ذلك وأكثر منه في تعلم علم الدنيا, المهم أن يتعلموا ما ينفعهم ولا يضرهم, ولا يكونوا كالسحرة الذين يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم كما قال القرآن.

كل الناس, ومنهم الرسل والأنبياء, وهم صفوة الخلق عند الله, يطلبون من الله أن يهبهم من عنده كل ما يحتاجون إليه وكل ما يهفون إليه, مما لا يستطيع البشر أن

يهبوه لهم, فكل البشر مثلهم, عاجزون فقراء ومساكين لا ملك لهم, ولا حول لهم, ومستحيل أن يتطور حالهم من ضعف إلى قوة, ومن عجز إلى قدرة, ومن فقر إلى غنى؛ لأن ضعفهم وفقرهم فقر ذاتي, وما بالذات لا يتخلف. فلهذا يطلب كل منهم حاجته من ربه, علمية أو عملية, روحية أو مادية, فردية أو جماعية.

وهو سبحانه يعطي ويهب ما يشاء ولمن يشاء, وكما يشاء, وكيف يشاء **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران:26].

لهذا يطلب منه عباده العلماء الراسخون: **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** [آل عمران: 8].

ويطلب منه سليمان **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** [ص:35].

وسخر القرآن المشركين فيقول: **{ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ}** [ص:9].

ولقد وقفت على باب ربي سبحانه استوهبه ما لا يهبه غيره، وأستعطيه ما لا يعطيه سواه، من العفو والعافية، والمغفرة والرحمة، أقول:

يا خيرَ من أعطى وأكرمَ مَن عفا — وإذا دعاه مُذنِب لا يُعرِضُ
رب اسمُك (الغفار) فاعف تكرُّمًا — يدعوك مكسور الجناح مُهَيَّض
عبدٌ بضاعته الكلام، جهادُه — صحفٌ تُسَطَّر، أو قريضٌ يُقرَض
يدعو الورى للصالحات، وسِفْره — في صالح الأعمال خِلْوٌ أبيضُ
ويحب درب الصالحين، وإن أكن — قصَّرْت فيما طوَّلوه وعرَّضوا
لكنْ له قلبٌ يحبُّك كلُّه — وقلوب أهل الحب لا تتبعَّض
سِلمٌ لمن والاك، حرب للأُلَى — عادَوْك، فهْو يحب فيك ويُبغِض

يأسى لِهَمِّ المسلمين، وهمُّهم شُمُّ الجبال بحَمْله لا تنهض
فعساي يشفع لي إلهي أنني أبدًا لحزبك ناصرٌ ومُحرِّض
أنت الذي أكرمتني منذ الصبا ورعيتني، والخير منك مُقيَّض
وغرستني في الدين منذ حداثتي ووهبتني فضلًا يطُول ويعرُض
ورزقتني حب الأنام تفضُّلًا إن المحبة بالعصا لا تُفرض
وغمرتني بالفضل من قرني إلى قدمي يراه مُحدِّق أو مُغمِض
فأتم بالغفران فضلك والرضا من ذاق حُلوَك لم يُطقْ ما يَحمُض
واحشرنِ في ركب الحبيب المصطفى ومع الذين لوجه دينك بيَّضوا
واجعل من العلم الذي علَّمْتَني نورًا يضيء وروح بَعْث يُنهِض
وارزقنيَ الإخلاص حتى لا أرى إلا وكُلِّي في رضاك مُمحِّض
وأتم بالتوفيق ما أرجو، فلا يُغتال، أو أعيا به، أو يُجهَضُ
وامنُن علي بنفحةٍ عُلويَّة أُشفَى بها من كل داء يُمرِض
لأظل لاسمك ذاكرًا ومسبِّحًا كي أُرتضَى فيمن لديك قد ارتُضُوا
وأعيشَ يا ربي لدينك داعيًا ما دام بي نفَسٌ، وعِرق يَنبِض

الله الشكور الحليم

من أسماء الله تعالى الحسنى, التي جاءت في القرآن وفي السنة, واقترنتا في بعض الآيات، ووصف الله تعالى بهما نفسه، ووصفه بهما رسوله الكريم، وأجمعت عليها الأمة: (الشكور الحليم), كما قال تعالى: **{إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [التغابن:17-18].

1-الشكور:

والشكور: صيغة مبالغة من اسم فاعل: شكر، يشكر، فهو شاكر, كما قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}** [البقرة:158], وقال تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}** [النساء:147].

ومعنى صيغة المبالغة: أنه تعالى يُكثِر من شكر عباده, وإن كان ما يقدمونه إليه قليلًا, ولكنه من فضله يضاعف العمل القليل من الحسنات, ويعفو عن الذنب الكثير, كما قال تعالى: **{لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}** [فاطر:30]. فهو يغفر الكثير, ويشكر القليل.

والشكور من البشر قليلون, كما قال تعالى: **{وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}** [سبأ:13], وقال سبحانه: **{وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** [الأعراف:17].

ولكن من فضل الله تعالى على عباده أن جمع لهم بين هذين الاسمين: اسم الشكور, واسم الحليم, أو بين هاتين الصفتين: صفة الشكر, وصفة الحلم.

لقد أثنى الله على بعض عباده من المرسلين وغيرهم, يوصفهم بصفة الشكر, ومدحهم باسم الشاكر أو الشكور, كا قال تعالى عن عبده نوح أول رسول أرسله إلى قوم مشركين, فقال: **{إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}** [الإسراء:3]. وقال عن نبيه وخليله إبراهيم: **{شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [النحل:121]. وقال عن سليمان لما قدمت عليه ملكة سبأ المعرفة باسم بلقيس: **{قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي**

أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل:40]. وقال سبحانه عن سليمان حين مر بوادي النمل بجنوده، وسمع النملة تقول للنمل: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} فكان موقفه من هذا كما حكى القرآن: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[النمل:18-19]، وقال تعالى عن عبده لقمان: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [لقمان:11].

ويطلب القرآن من الإنسان أن يشكر لله تعالى ولوالديه, فهما سبب حياته وتربيته, والوصول به إلى عهد قوته: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان:14].

وأوصى رسول الإسلام المعلم أن يشكر الإنسان إلى كل من أحسن إليه, ولا ينسى كل من قدَّم فضلًا إليه, ولذا قال عليه الصلاة والسلام: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[1].

2- الحليم:

من أسمائه تعالى الحسنى, التي ذكرها وكررها القرآن العظيم, ونطقت بها وأكدتها السنة النبوية, وأجمعت عليها أمة الإسلام: اسم (الحليم), وقد ورد في القرآن إحدى عشرة مرة, كما في قوله تعالى: {وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن:17]. وقال عز وجل: {وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة:225]. وقوله: {وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة:263].

و(الحليم) من الحِلْم, وهو ألا يعاجل المرءُ خصومَه بالعقوبة المادية, ولا يشاححهم في حق له عليهم, فغير الحليم يعاملهم سيئة بسيئة, وضربة بضربة, إن لم

1

تكن بضربتين, بخلاف الحليم الذي يتعامل مع الناس وكأنه خلق من طينة غير طينتهم, فهو يبتسم وهم يغضبون, ويسامح وهم ينتقمون, ويطأطئ لهم ظهره وهم يركبون, شعاره قول الله تعالى: **{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}** [الأعراف:199]. وقال تعالى: **{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}** [القصص:55]. وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}** [الفرقان:63].

فإذا كان هذا شأن عباد الله تعالى الذين مسهم شيء من الحلم الإلهي، الذي وسع عباد الله كلهم, فوَسِعَهم بطاعتهم ومعاصيهم, بعدلهم وظلمهم, فكيف به سبحانه؟!

قال تعالى: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الروم:41]. فانظر إلى هذا الفساد –الخسارة والبلاء والتعفن– الذي أصاب الحياة العامة كلها في البر والبحر– والآن: في الجو أيضًا– وقد بينت الآية: أن كل هذا الذي أصاب الحياة والأحياء إنما هو **{بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}**؛ فإن الله لا ينزل البلاء على الناس إلا بما قدمت أيديهم وبسوء أعمالهم. **{لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا}** لا ليجزيهم بكل ما عملوا, كما قال تعالى: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}** [النحل:61]. وقال تعالى: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}** [فاطر:45].

إن الله لا يعاجل الناس بكل ظلمهم وبكل ما كسبوا، كما قال تعالى: **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}** [الشورى:30].

ويعطي عباده فرصة بعد فرصة, عسى أن يتخلصوا من معاصيهم وموبقاتهم وما كسبت أيديهم, ويترك الناس يذكِّر بعضهم بعضًا, وينهى بعضهم بعضًا عن أن ينزل عليهم ما يُعدُّه الله من العقوبة للذين ظلموا أنفسهم, وتعدَّوْا حدود الله تعالى وحقوق الناس.

الله القريب المجيب

من أسماء الله تعالى, المذكورة والمقترنة في القرآن، الذي أيدته السنة، وأجمعت عليه الأمة، والتي تدل على صفاته سبحانه: القريب المجيب.

1- القريب:

والقريب ضد البعيد. ومعناه: أنه تعالى ليس ببعيد عن عباده كافة, مؤمنهم وكافرهم, وبرهم وفاجرهم، كما أن له قربًا خاصًّا بعباده المؤمنين, فهو أقرب إليهم بفضله ورحمته، وببره ونعمه وإحسانه, ونصرته وعونه وتأييده.

والمجيب, هو: الذي يجيب نداء عباده إذا نادوه, ويستجيب لهم إذا دعوه, فيخرجهم من الظلمات إلى النور, ويغيث لهفاتهم, ويفرِّج كرباتهم, ويكشف عنهم الهم والغم, ويسارع بإطعام الجائع, وسقاية الظمآن, وقضاء حاجة المحتاج, ومسح دمعة المحزون, وكثيرًا ما يقلب الحال تمامًا, فيصبح الفقير غنيًّا, والضعيف قويًّا, والأسير محرَّرًا, والمغلوب غالبًا, والمهزوم منتصرًا, والمستضعف أميرًا, بل ملِكًا.

قال الإمام الغزالي: (المجيب هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، ويقابل دعاء الداعين بِالإجابة، ويُقابل ضرورة المضطرين بالكفاية, بل يُنعِم قبل النداء, ويتفضل قبل الدعاء, وليس ذلك إلا الله عز وجل, فإنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم, وقد علمها في الأزل، فدبَّر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات, وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات)[1].

ومما يجيبه تعالى: الدعوات؛ بالهداية من الضلال, والإنقاذ من الكفر والفسوق والعصيان, والعقوبة على معاصي العصاة, وتقريب البعداء عن الله تعالى, وإدخالهم في أولياء الله تعالى الصالحين, فالقرآن والسنة مليئان بنماذج كثيرة من هذا النوع.

1

ذكر القرآن هذين الاسمين (القريب المجيب) على لسان نبي الله العربي القديم صالح لقومه ثمود, في قوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود:61]. هكذا بدأ صالح دعوته لقومه باعتباره أخاهم وواحدًا منهم، لا غريبًا عنهم, فأول ما دعاهم إلى التوحيد الذي شارك فيه عدد من إخوانه الرسل: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، ثم أخبرهم بأن هذه الأرض التي يعيشون عليها لهم بها صلة, وعليهم بها وظيفة مهمة، هي عمارتها بالإحياء والزراعة والصناعة والبناء والتجميل, ولهذا قال: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، فأصلهم من الأرض, فهي أمهم التي تعطف عليهم, ويحنُّون إليها, وقد طلب الله منهم عمارتها بكل ما تعنيه هذه الكلمة من الاستفادة من الأرض بكل ما فيها, ثم طلب من قومه أن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا إليه, ولا يشردوا عنه, معلِّلًا ذلك بقوله: {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}.

وما جاء على لسان صالح- وعلى ألسنة الرسل جميعًا- مما يتعلق بالله تعالى: بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله, فهو عامٌّ لكل الرسل؛ لأن هذا مما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان, والحال وغيرها, وإنما هو أمر ثابت لله تعالى, فهو مستقر ومستمر أبد الدهر.

ولذلك لم يقرن هذان الاسمان معًا بهذه الصورة، إلا في سورة هود على لسان صالح عليه السلام, ولكن جاء في القرآن قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:186], فكان عباد الله –حتى المشركون منهم، وهم عباده لا شك- يسألون: أقريب ربنا فنناجيَه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية تجيبهم عما سألوا عنه.

ومن لطائف التعبير القرآني في الآية الكريمة: أن الذين سألوا النبي في أمور كثيرة ذكرها القرآن, كان القرآن يجيبهم بقوله: قل كذا وكذا. كما في قوله تعالى:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة:189] {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة:219]. {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ} [البقرة:220].. إلى آخر هذه الآيات, ولكنه عز وجل في إجابة السائلين عنه هنا, قال: {فَإِنِّي قَرِيبٌ} ولم يقل: فقل: إني قريب, دلالة على أن قرب الله تعالى من عباده لا يحتاج إلى وسيط بينه وبينهم, فهو أقرب ما يكون إلى عباده.

يصور القرآن الكريم بين الله وعباده, بما يشعر بإزالة كل الحواجز والمسافات, بين الله وجميع عباده, كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق:16]. وحبل الوريد عِرْق مهم في العنق.

ويقول تعالى في موقف آخر في حالة الاحتضار: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة:83-85].

ويصور القرآن أيضًا ههذا القرب الإلهي في صورة (المعية) وهي معية عامة لكل الناس, فالله معهم جميعًا بالعلم والإحاطة, كما قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد:4]. فهذه معية تشمل جميع الناس, آمنوا أو كفروا، أحسنوا أو أساؤوا, أطاعوا أو عصوا. كما قال تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:7].

ثم هناك المعية الخاصة لعباد الله المؤمنين والمتقين والصادقين, كما قال تعالى يخاطب الكافرين: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:128]. فهم عباد الذين كانوا معه سبحانه بالتقوى, وكانوا مع عبادِه بالإحسان. وهذه المعية تأييد وعون ونصر من الله.

وقال تعالى في خطاب أهل الإيمان: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:35].

وحين أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى مدعي الربوبية فرعون, فقال: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه:43-46]. فكانت هذه المعية الإلهية مُطَمْئنة لقلبي الرسولين الكريمين.

ولذلك حين أتبع فرعونُ وجنوده بني إسرائيل حين عزموا على مغادرة مصر {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} [الشعراء:53-56]. {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء:60-62].

هنا وقعت الملحمة الكبرى: حين تقارب الجمعان: جمع فرعون الطاغية المستكبر ومَن معه؛ الجنود والأنصار, وجمع موسى ومن معه؛ من بني إسرائيل الشرذمة القليلين, المطارَدين, الذي أصبح البحر أمامهم, والعدو من خلفهم, فلذا قالوا في استسلام وأسًى: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}. سيدركنا الأعداء لا محالة, ويُعمِلون فينا السيوف؛ وهنا تجلى إيمان موسى, الذي وقف كالطود لا يتزحزح, قائلًا لقومه: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} هذا هو موقف المؤمن الذي لا يتخلى عن الإيمان بأن ربه قريب منه, بل هو معه, سيهديه كيف يتصرف في مقاومة هؤلاء الطغاة. صحيح أن عددهم أكثر أضعاف المرات من أعداد قومه, وقوم موسى ليس معهم سلاح ولا عدة, وهؤلاء معهم عددهم وأسلحتهم. {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

وقد هداه الله إلى الوسيلة, إنها كانت آية من آيات الله الكبرى, أن يضرب بعصاه البحر الكبير، وماذا تغني عصا في ضرب البحر، ولكنها عصا موسى

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:63-68].

ونحو معية الله لموسى كانت معية الله لمحمد, حين كان في الغار, ووصل إليه المشركون, الذين يبحثون عنه في كل مكان, حتى انتهوا إلى الغار, وقد قال رفيق الرسول أبو بكر لنبيه: يا رسول الله! لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا, قال: "يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!"[1]. وقال القرآن على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: لا تحزن إن الله معنا, وسجل ذلك في هذه الآية الخالدة: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:40].

وتصوِّر السنة النبوية قرب الله تعالى من عباده المؤمنين بهذه الأحاديث الصحيحة:

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه, قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم, فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلَّلْنا وكبَّرنا, ارتفعت أصواتُنا, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس! اربَعُوا على أنفسكم- أي: أشفقوا عليها وارفقوا بها ولا ترهقوها عسرًا- فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا, إنه معكم, إنه سميع قريب". وفي لفظ: "إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته"[2].

والحديث الثاني متفق عليه أيضًا؛ رواه البخاري ومسلم: "إذا تقرب العبد إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا, وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا, وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولة"[3].

---

[1]

[2] رواه أحمد (19614).

[3] متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (6982) عن أنس, ومسلم في الذكر والدعاء (4850) عن أبي هريرة.

وروى أحمد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الحديث القدسي الذي يرويه عن رب العزة: "قال الله تعالى: يا ابن آدم! إن ذكرتني في نفسك ذكرتُكَ في نفسي, وإن ذكرتني في ملأ، ذكرتك في ملأ من الملائكة، أو في ملأ خير منهم, وإن دنوت مني شبرًا دنوت منك ذراعًا, وإن دنوت مني ذراعًا دنوت منك باعًا, وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول"[1].

فانظر كيف يتعامل الله مع عباده, يكافئهم بأضعاف ما يتقربون به إلى ربهم, فإن ذكروه في أنفسهم, ذكرهم في نفسه, وأين مقامهم من مقام رب العباد؟ وإن ذكروا ربهم في ملأ, ذكرهم الله في ملأ خير منهم, في ملائكته الذين يسبحون بحمد ربهم, ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون, هذا الملأ أكثر عددًا, وأعظم منزلة, وأوكد قربى من الله.

وإذا تقرب الإنسان إلى ربه قليلًا, تقرب ربه إليه كثيرًا, الشبر بذراع, والذراع بباع, والمشي من العبد يقابل بالهرولة من الله, وهذا من باب التمثيل, تعالى الله عن أفعال العباد التي لا تليق بذاته جل وعلا, ولكنه يكلمنا بلغتنا، ويقرب الأمر إلينا حتى نفهم.

قال تعالى: **{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}** [سبأ:5].

2-المجيب:

والمجيب هو الاسم الثاني الملصق بالأول (القريب).

فهو مجيب لدعوة الداعي إذا دعاه, والشاكي إذا اشتكى إليه, فمن حق العبد أن يشكو إلى ربه ما نزل به من محن وهموم، وأثقال وأمراض, وليس هذا عيبًا كما زعمه بعض غلاة الصوفية, الذين قال بعضهم: لا أشكو إلى الناس, ولا أشكو إلى الله, الناس فقراء وضعفاء مثلي, وربما كانوا أفقر وأضعف مني, فكيف يشكو الفقير

[1] رواه أحمد (12428).

إلى من هو مثله أو أفقر منه؟ وكيف يشكو الضعيف إلى من هو مثله أو أضعف منه؟

وأما الشكوى إلى الله, فعلمه بحالي يغني عن سؤالي، ولذا قال شاعرهم يندد بالشكوى:

ويمنعني الشكوى إلى الناس أنني عليل ومن أشكو إليه عليلُ

ويمنعني الشكوى إلى الله أنه عليمٌ بما أبدي وما سأقول

لكن الشكوى تعبر عن ضعف الإنسان, وحاجته وافتقاره إلى ربه, وليس هذا اعتراضًا عليه, بل هذا تضرع له, وابتهال إليه, وإلقاء العبد بحاجته إلى مولاه. ولذلك حين اعترض أبناء يعقوب على أبيهم في حزنه على يوسف, وقالوا: **{تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [يوسف:85-86].

ولذلك لجأ الناس إلى الشكوى, كما قال الشاعر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ!

وقال الآخر:

شكوتُ وما الشكوى لمثليَ عادةٌ ولكنْ تفيضُ الكأسُ عندَ امتلائِها!

ولقد اشتكى سيدنا أيوب إلى ربه كما حكى عنه القرآن: **{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}** [الأنبياء:83-84].

وسيدنا يونس ذو النون دعا ربه حين خرج مغاضبًا قومَه, وركب في سفينة, فكادت السفينة من كثرة من ركبها تهتز للغرق, فعملوا قرعة بالسهام لمن يقع عليه الحظ, فهنالك يرمى في البحر, لينقذوا بقية الركاب, وفعلوا ذلك أكثر من مرة, كل مرة يقع السهم على يونس, فألقوه في البحر **{فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}** [الصافات:142]. كان لقمة واحدة من لُقَم الحوت الضخم, فمن الحيتان ما يبلغ طوله أكثر من عشرين مترا. فنادى يونس في الظلمات التي هو فيها: ظلمة

الليل, وظلمة البحر, وظلمة بطن الحوت: **{أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** [الأنبياء:87]. هذه الكلمة الوجيزة تضمنت ثلاثة أمور مهمة قررها يونس: أولها التوحيد **{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ}**. والثانية: التسبيح والتنزيه، فلا ظلم منه **{سُبْحَانَكَ}**. والثالثة: الاعتراف، وقد قيل: الاعتراف يهدم الاقتراف **{إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**. وهكذا اعترف آدم وزوجه حين أكلا من الشجرة المنهي عنها **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [البقرة:23]. فاستجاب الله لهما وغفر لهما وتقبلهما، وكذلك استجاب ليونس, وأخرجه من بطن الحوت, ألهم الله الحوت أن يلفظه, فلفظه من بطنه إلى الفضاء, إلى الأرض **{فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** [الصافات:145-147].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعوة أخي ذي النون, ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: **{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**" [الأنبياء:87][(1)].

الله هو المجيب لدعوات الداعين من المكروبين والمستضعفين والمحزونين، والمرضى، والمعذبين في الأرض, والأسرى في أيدي الجبابرة المستكبرين, إذا لجأ هؤلاء إلى ربهم الأعلى, الذي خلق فسوى, والذي قدر فهدى, ودعوه بحرارة وإخلاص, يصدران من أعماق قلوبهم, ومن سويداء ضمائرهم, ومن شدة حاجتهم إلى عون ربهم, فسرعان ما يأتي جواب الله بالنصر للمخذول, والشفاء للمريض, والنجدة للمكروب, والإغاثة للملهوف, والسراء للمحزون, والإجابة للمضطرين **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}** [النمل:62].

حين دعا نوح ربه، حين يئس من قومه بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا, قال: **{رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ**

1

مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح:26-28].

وقد دعا ربه: **{أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}** [القمر:10-14].

وهكذا استجاب الله دعوة نوح, فأهلك قومه بالطوفان الذي جاء بالماء مما ينزل من السماء, ومما تفيض به الأرض, حتى هلك القوم، إلا مَن كان مع نوح والمؤمنين به من أصحاب السفينة، التي كتب الله لركابها النجاة. وكان هذا كما قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}**[الصافات:75-79].

وكل نبي دعا على قومه من المشركين المكذِّبين, الذين رفضوا رسالة الرسل, وسخروا منهم ومن المؤمنين معهم, كما قال قوم نوح: **{أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}** [الشعراء:111].

وذهب المستكبرون المتغطرسون بكبريائهم وغطرستهم, واستصغارهم للآخرين من المؤمنين, الذين ظلوا مستمسكين بالعروة الوثقى لا انفصام لها, يدعون الله تعالى أن يعلي كلمتهم, ويرفع رايتهم, ويخزي أعداءه وأعداءهم, والنتيجة دائما واحدة: أن الله يجيب دعاء المؤمنين, ويرد دعاء الظالمين **{وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}** [الرعد:14, غافر:50].

قد يجيب الله تعالى دعاء المشركين إذا وقعوا في مصيبة نزلت بهم, ولم يجدوا أمامهم إلا الله تعالى, فذاب الطلاءُ الكاذب الذي طلَوْا به أنفسهم, وغطوا به فطرتهم, دعوا الله مخلصين له الدين أن ينجيهم من الكرب الذي هم فيه, فيستجيب الله نداءهم, وينقذهم من بليتهم, وللأسف سرعان ما يرجعون إلى عادتهم, بعد ما يرتفع البأس. قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**

وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس:22].

والله تعالى يجيب الدعاء من كل من يدعوه بإخلاص, لكنه أسرع ما يستجيب للمظلومين, الذين يسألون ربهم أن يجيرهم من أذى ظالميهم وجبروتهم عليهم. ولذلك روى الترمذي عن أبي هريرة قال: "ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل, والصائم حين يفطر– أو حتى يفطر– ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام, وتفتح لها أبواب السماء, ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين"[1].

وكان السلف يحذِّرون من اثنتين: دمعة اليتيم, ودعوة المظلوم, فإنهما تسريان بالليل والناس نيام, وقال الشاعر:

سهام الليل صائبة المرامى إذا وترت بأوتار الخشوع!

يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع!

إذا أوترن ثم رَمَيْن سهمًا فما يغنى التَّحصُّن بالدروع!

وهو عز وجل يجيب الدعاء بالطريقة التي يحبها, فمن الناس من يطلب من الله حاجة نفسه؛ قضاءَ دَيْن, أو زواجًا موفقًا, أو ولدًا صالحًا, أو مالًا وفيرًا, أو صحة جيدة, أو علمًا نافعًا, أو عملًا صالحًا: حجًّا أو عمرة أو جهادًا, أو نصرًا على الظالمين، أو إهلاكًا للطاغين، أو غير ذلك من الأمور, فيستجيب الله دعوته، يدبرها له في الحال أو بعد زمن قليل، وكل الدنيا زمن قليل.

ومنهم من يكف عنه من نوازل الدهر, وعوادي السوء, ومصائب الأيام, ما كان يمكن أن ينزل به, يتقبل الله دعوته, لا بنفسها, ولكن بما يرده عنه من بلاء كاد يقع فيه.

ومنهم من يدخر له ثواب دعوته في الآخرة.

فالداعي إذًا لا يخسر من دعائه أبدًا, بل هو فائز بأداء هذه العبادة العظيمة, التي اعتبرها الرسول المعلم هي العبادة, كما قال: "الدعاء هو العبادة. اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

[1] رواه الترمذي في صفة الجنة (2449), وفي ا لدعوات (3522).

الَّــذِيـنَ يَـسْــتَـكْـبِرُونَ عَــنْ عِـبَــادَتِـي سَــيَدْخُـلُونَ جَـهَــنَّمَ دَاخِرِيـنَ}" [غافر:60][1].

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها أثم ولا قطيعة رحم, إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته, وإما أن يدخرها له في الآخرة, وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها". قالوا: إذًا نكثر (أي: من الدعاء). قال: "الله أكثر"[2]. أي: أنتم تكثرون من الدعاء، والله يكثر من الإجابة كما يشاء, وكلها رابحة, وكلها من عند الله, والله خير وأبقى.

حظ العبد من هذا الاسم (المجيب):

يقول الغزالي: (العبد ينبغي أن يكون مجيبًا؛ أولًا: لربه تعالى فيما أمره ونهاه، وفيما ندبه إليه ودعاه، ثم لعباده فيما أنعم الله عز وجل عليه بالاقتدار عليه، وفي إسعاف كل سائل بما يسأله إن قدر عليه، وفي لطف الجواب إن عجز عنه، قال الله عز وجل: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [الضحى:10].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو دعيت إلى كراع لأجبتُ، ولو أهدي إلي ذراعٌ لقَبِلْتُ"[3]. وكان حضوره الدعوات، وقبوله الهدايا: غاية الإكرام والإيجاب منه، فكم من خسيس متكبر يترفع عن قبول كل هدية، ولا يتبذل في حضور كل دعوة، بل يصون جاهه وكبره، ولا يبالي بقلب السائل المستدعي وإن تأذى بسببه، فلا حظ لمثله في معنى هذا الاسم)[4].

1

2 رواه أحمد (11149).

3

4

الغفور الودود

ومن أسمائه تعالى الحسنى ما ذكره القرآن العظيم في سورة البروج بقوله تعالى: **{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}** [البروج:14]، وما ذكره تعالى في سورة هود، في قول نبيه شعيب عليه السلام، لقومه: **{وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}**[هود:90]. مما يدل على أن الأنبياء من قبل موسى وعيسى ومحمد، كانوا من يدعون أقوامهم إلى الله تعالى غير غافلين عن هذين الاسمين الالهين الكريمين، كما ذكرهما شعيب: **{إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}**.

و(الغفور) صيغة مبالغة من اسم فاعل: غفر يغفر غَفْرًا وغُفْرَانًا, جاء على وزن فعول, كما أن في اسمائه سبحانه: الشكور والصبور. وجاء وصف المغفرة بالمبالغة أيضًا على وزن فعَّال، كما في اسم (الغفَّار)؛ كقوله تعالى: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}** [طه:82]. وقال تعالى: **{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}** [ص:66], وقد تكرر (غفار) في القرآن بصيغة النصب، كما تكررت صيغة الغفور, نكرة ومعرفة, وتكررت بالنصب.

وصيغة المبالغة هذه جاءت لكثرة ما يغفر من الذنوب, وإن كانت كبائر, حتى الكفر والشرك إذا تاب المرء منه غفر الله له, كما قال تعالى: **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}** [الأنفال:38]. وقال عز وجل يخاطب رسوله: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}** [الزمر:53]. أي: يغفرها بالتوبة النصوح, أما بغير التوبة, فكل الذنوب قابلة للمغفرة والستر والتغطية من الله سبحانه, إلا الشرك الأكبر, كما قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}** [النساء:48]. وفي آية

أخرى في السورة نفسها قال: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء:116].

فهو سبحانه يغفر الذنوب كلها, ما عدا الشرك، كبيرها وصغيرها, وظاهرها وخافيها, وخصوصًا بعد الاستغفار. كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:110]. وهذا من عهد آدم عليه السلام, حين استغفر ربه فغفر له وتاب عليه وهدى. نوح قال لقومه: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} [نوح:10].

كما أن سعة المغفرة جاءت لسرعة المغفرة من الله، بأن يستجيب الله تعالى للمستغفرين, فأحيانًا يغفر لهم، إذا كان استغفارهم مصحوبًا بندم وتوبة, كما في قوله تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود:3].

وأحيانًا يجيب المستغفرين إذا استغفروا, وإن لم يكن مع الاستغفار توبة, ولكنه استغفار صادق ومن قلب مكلوم بالمعصية, وإن لم يتخلص منها تمامًا, كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 135].

وتارة يغفر سبحانه ذنوب المؤمنين بمجرد أعمال صالحة يقدمونها لله ليغفر لهم بها تلك السيئات التي اقترفوها, كما قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود:114]. وقال صلى الله عليه وسلم: "وأتبعْ السيئة الحسنة تمحُها"[1].

وأحيانًا تنزل المصائب بالعبد عن يمين وشمال, فلا ييئس من رَوْح الله, ولا يقنط من رحمته, بل يكل أمره إليه, وربما كان له كثير من السيئات المتراكمة, يغفرها الله

1

له. كما قال صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم يصيبه نَصَب ولا وَصَب، ولا هَمٌّ ولا حَزَن، ولا أذى ولا غمٌّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه"[1].

وصيغة المبالغة هنا أيضًا في السرعة التي يمحو الله بها الذنوب, فهو سبحانه بمجرد توبة العبد الصادقة, يجعل الله تعالى سيئاته حسنات, كما قال تعالى: **{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }** [الفرقان:70]. وقال تعالى: **{ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا }** [النساء:31]. فبمجرد أن يجتنب المؤمن الكبائر والموبقات من الذنوب, مبتعدين عنها مقتصرين على الصغائر, فإن الله تعالى يمحو هذه الصغائر, ويدخلهم مدخلًا كريمًا.

وكما أن الله عز وجل يتعامل مع عباده بصيغ المبالغة المعروفة مثل الغفور والغفار, فهو أحيانًا يستعمل صيغًا أخرى غير هذه, كما في قوله تعالى: **{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ }** [النجم:32]. فهو سبحانه واسع المغفرة, وواسع الرحمة, وسعت رحمته كل شيء, وسعت مغفرته كل ذنب **{ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا }** [الزمر:53]. وقال تعالى في الحديث القدسي المعروف: "يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار, وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفِرْ لكم"[2]. رواه مسلم عن أبي ذر عن الرسول عن ربه سبحانه.

ومن أسمائه تعالى (غافر الذنب) كما قال تعالى: **{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ}** [غافر:3].

وقد ذكر القرآن اسم الغفور والغفار والغافر مقترنًا بالأسماء الملائمة, مثل (الغفور الرحيم) و(الغفور الحليم), و(الغفور الشكور), و(الغفور الودود), و(العزيز الغفور), و(العزيز الغفار), و(الرب الغفور), وكذلك يذكره مع الأسماء أو الأفعال المقابلة له, ليتوازن الرجاء والخوف في نفس المسلم، كما قوله تعالى: **{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }** [المائدة:98].

1

2 رواه مسلم في البر والصلة والآداب (4674) عن أبي ذر.

{إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد:6]. وأكثر ما ترون اسم الغفور والغفار مقرونًا باسم الرحيم في عشرات المواضع.

وقد ذكر القرآن اسم الغفور مرفوعًا أو مجرورًا في (71) موضعًا, وذكره منصوبًا في (20) موضعًا.

اقرأ قوله تعالى: {نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت:32]. وقوله: {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:106], {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:173], {أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:218], {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:100], {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك:2] {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ:15]، {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر:30], {وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} [الشورى:23]. {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} [الكهف:58]. {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} [سبأ:2]. وهو هنا قدم الرحيم على الغفور على غير المعتاد, {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [القصص:16]، المستغفر هو موسى. {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج:60] {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [المجادلة:2]. {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك:2].

وفي حالة النصب لاسم (غفور) نجد مثل قوله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء:25]. {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: 41].

واسم الغفار قد جاء على لسان مؤمن آل فرعون حين قال: {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} [غافر:42].

قال الغزالي رحمه الله: (الغفَّار: هو الذي أظهر الجميل، وستر القبيح، والذنوبُ من جملة القبائح التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة. والغَفْر هو الستر.

وأولُ سترِه على العبد أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه، مغطاة بجمال ظاهره، فكم بين باطن العبد وظاهره في النظافة والقذارة، وفي القبح والجمال، فانظر ما الذي أظهره وما الذي ستره!!

وستره الثاني أن جعل مستقرَّ خواطرِه المذمومة وإرادته القبيحة سرُّ قلبِه حتى لا يطَّلِع أحد على سره، ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وسواسه وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة، وسوء الظنِّ بالناس لمقتوه، بل سعَوْا في تَلَف روحه وأهلكوه، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوراته؟!

وستره الثالث مغفرته ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها على ملأِ الخلقِ، وقد وعد أن يبدِّل سيئاته حسنات، ليستر مقابح ذنوبِه بثواب حسناته، مهما مات على الإيمان)(1).

ومما قرضت قديما من الشعر، أناجي به ربي الغفار سبحانه، أن يستر سوءتي، ويغفر زلَّتي، هذه الأبيات:

يا مَن له تعنو الوجوهُ وتخشعُ   ولأمرِهِ كلُّ الخلائق تخضعُ

1

أعنو إليك بجبهة لم أحنِها يوما إلا لوجهك ساجدا أتضرع

وإليك أبسط كف ذل لم تكن يومًا لغير سؤال فضلك تُرفعُ

أنا من علمتَ المذنب العاصي الذي عظُمت خطاياه, فجاءك يُهرع

كم من ساعةٍ فرّطت فيها مسرفا وأضعتها في زائلٍ لا ينفع

كم بتُّ ليلي كله مُثَّاقلًا وذوو التقى حولي قيامٌ رُكع

كم بال في أذنيَّ شيطان الكرى فإذا الصباح على نؤوم يطلُع[1]

كم زينت لي النفسُ سوء فعالها فأطعتها ضعفًا, وبئس الطَّيِّعُ

كم وسوس الخنَّاس في صدري, فلم يجدِ الذي يعلو قفاه ويصفعُ

كم أقرأُ الآيات لو نزلت على شمّ الجبال رأيتها تتصدعُ

ما لي أردد وعدها ووعيدها مارقّ قلبي أو جرى لي مدمعُ؟!

كم من نفوسٍ بالهدى ذكرتها فمضت كما يمضي الجوادُ المسرعُ

أيقظتها للخير حين تركتُني في غفلة الدنيا أتيه وأرتع

[1] هذا البيت إشارة إلى ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام حتى أصبح .. فقال : "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه".

يا حسرتا!! أعظ الأنام, فليتني نفسي وعظت, فوعظ نفسي أنفع!

يا رب حكمتك اقتضتني مذنبًا لأجيء بابك أستجير وأضرع

فترى عُبَيْدَك تائبا مستغفرًا وأراك غفَّارًا لذنب يفظع

أنا إن عصيتك فذاك من نقصي ، ومَنْ غير الإله له الكمال الأرفع؟

يا ربِّ أنت خلقتني من طينة ومن الذي لأصوله لا ينزِع؟

لولا هداك ونفخة علوية أودعتَها روحي لكان المصرع

فيها أصول على التراب ترفُّعًا وبها أحلِّق حين تصفو الأضلع

الطين يجذبني إليه بشدة والروح تُصعِدني إليك وترفع[1]

فإذا ارتقيت إلى رضاك فغايتي وإذا هبطت فدائما أتطلع

2- الودود:

اسم (الودود) اسم من اسمائه تعالى الحسنى، وهو صيغة مبالغة من اسم فاعل وَدَّ يَوَدُّ, بمعنى أحب يحب. والودود هو: الكثير الحب, والعميق الحب. وهذا من الأسماء الدالة على جمال الذات الإلهية، وكرمها وفضلها، وقد ورد هذا الاسم في

[1]- من قصيدتي (ابتهال) من ديواني (نفحات ولفحات).

القرآن في سورة البروج, في قوله تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج:12-14], وفي سورة هود على لسان شعيب حين قال لقومه: {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}[هود:90]، هو سبحانه ودود يحب عباده المؤمنين، الذين ذكرهم في كتابه، فهو يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المحسنين، ويحب الصابرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، ويحب المنكسرين منهم، ويحب من عبده أن يكون ودودًا، وأن يُوَادَّ عبادَه المؤمنين {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم:96].

ويذكر القرآن هذه الآية الكريمة {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة:7]. فهو ينبهنا أنه تعالى يحب أن تكون المودة والمحبة هي السائدة بينهم وبين خصومهم المشركين، كما يذكر القرآن عدم موادة المؤمنين لمن يحاد الله ورسوله؛ كما قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة:22].

فالودود كما ذكره الغزالي: (هو الذي يحب الخير للخلق, فيحسن إليهم, ويثني عليهم, وهو قريب من معنى الرحيم, لكن الرحمة إضافة إلى مرحوم, والمرحوم هو المحتاج أو المضطَّر, وأفعال الرحيم تستدعي مرحومًا ضعيفًا, وأفعال الودود لا تستدعي ذلك, بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود, وكما أن معنى رحمته تعالى إرادته الخير للمرحوم, وكفايته له, وهو منزه عن رقة الرحمة, فكذلك وده إرادتُه الكرامة والنعمة, وإحسانه إنعامه, وهو منزه عن ميل المودة؛ لكن المودة والرحمة لا ترادان في حق المرحوم والمودود إلا لثمرتهما وفائدتهما, لا للرقة والميل؛ فالفائدة هي لباب الرحمة والمودة, وروحهما, وذلك هو المتصور في حق الله عز وجل, دون ما هو مقارن لهما وغير مشروط في الإفادة).

والحقيقة: أن الرحمة والمحبة والود وأمثالها، حين تضاف إلى الله تبارك وتعالى، ويوصف بها سبحانه؛ فإنها تطلق عليه بما يليق بكماله، في ذاته وصفاته، ولا تلحقه شائبة مما يوصف به الخلق، إذا وصفوا بهذه الأوصاف، من المودة أو من المحبة أو من الرحمة، أو من غيرها مما يشبهها، كما نصفه تعالى بالسمع والبصر، وهو السميع البصير، ولكن سمعه وبصره ليس كسمعنا وبصرنا، وكذلك علمه ليس كعلمنا، وقدرته ليست كقدرتنا، وإرادته ليست كإرادتنا سبحانه وتعالى.

فإذا وصفنا الله تعالى بالرحمة السابقة أو الواسعة أو بما يشبهما من الصفات التي تنسب لله تعالى في القرآن والسنة، وجاءت على ألسنة رسله- خاصة أولى العزم منهم- فلا يخطر ببالنا أن يوصف الله بما يوصف به الخلق عندما يرحمون من الرقة والضعف والبكاء من أجل هؤلاء.

ذكر الغزالي في التنبيه على حظ الإنسان من اسم الودود, فقال: (الودود من عباد الله من يريد لخلق الله كل ما يريده لنفسه, وأعلى من ذلك من يؤثرهم على نفسه, كما قال واحدٌ منهم: أُريد أن أكون جسرًا على النار يعبر عليّ الخلق ولا يتأذون بها. وكمال ذلك ألَّا يمنعه عن الإيثار والإحسان الغضبُ والحقد، وما ناله من الأذى, كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم, حيث كُسِرَت رَبَاعِيَتُه (أي: في غزوة أحد), وأُدْمِي وجهُه وضُرب: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[1]. فلم يمنعه سوء صنعهم عن إرادة الخير لهم. وكما أمر صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله عنه, حيث قال: "إن أردت أن تسبق المقرَّبين, فَصِلْ من قَطعك, وأعطِ من حرمك, واعفُ عمَّن ظلمك"[2].

1

2

المنتقم:

اسم (المنتقم) لم يجئ هكذا مفردا في القرآن الكريم, وإنما جاء في حديث أبي هريرة الذي فيه ذكر الأسماء التسعة والتسعين – وذكر اسم المنتقم مع اسم العفو– والذي اتفق المحدِّثون على ضعفه, وذكر ذلك الإمام ابن القيم, وقبله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية.

ولكن المعنى جاء في القرآن بصيغٍ شتَّى, منها صيغة الجمع, كما في قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}** [السجدة:32]. فهو سبحانه لا يوجه انتقامه إلى البرآء من الناس، وإنما يوجهه إلى المجرمين، الذين يرهبون الخلق، ويفسدون في الأرض. وقال سبحانه: **{فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}** [الزخرف:41]. أي: من المشركين المعاندين المستكبرين في الأرض، سينتقم الله منهم ويريهم بطشه ونقمته. قال تعالى: **{يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}** [الدخان:16].

والنسبة إلى الله تعالى بصيغة جمع المذكر السالم, تدل على جواز النسبة إليه عن طريق المفرد، ولذلك رأينا الإمام أبا عبد الله القرطبي في كتابه (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) ينسب إلى الله تعالى: اسم (المُوسِع)، بدليل قوله تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}**[الذاريات:47].

كما دل على ذلك نسبة المصدر (انتقام) إلى الله تعالى بإضافته إلى اسم (ذو) أو (ذي)، كما في قوله تعالى: **{فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}** [إبراهيم:47]. وقال عز وجل: **{وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ}** [الزمر:37]. وقال تعالى: **{وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}** [المائدة:95].

وقد ذكر العلماء من الاستدلالات على اسم الله (القوي)، وهو مذكور في القرآن في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [هود:66]؛ قولَه تعالى: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات:58]. ومما ذكروه في الدلالة على سعة الرحمة قوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [الأنعام:147].

ومن الأدلة ثبوت صفة الانتقام لله تعالى بصيغة نسبة الفعل الماضي إليه, كما في قوله تعالى: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف:136]. وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم:47]. وقال عز وجل في شأن الكافرين: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الزخرف:25]. {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الزخرف:55].

ويقول الإمام الغزالي في (المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى)، وهذا الكتاب يقوم على شرح الأسماء التسعة والتسعين التي رواها الترمذي عن أبي هريرة في الحديث الضعيف: (المنتقم: هو الذي يقصم ظهور العتاة, وينكِّل بالجناة, ويشدِّد العقاب على الطغاة, وذلك بعد الإعذار والإنذار, وبعد التمكين والإمهال, وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة, فإنه إذا عوجل بالعقوبة, لم يمعن في المعصية، فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة).

وقد ذكر الغزالي هنا تنبيهًا, قال فيه: (المحمود من انتقام العبد: أن ينتقم من أعداء الله تعالى, وأعدى الأعداء نفسُه, وحقُّه أن ينتقم منها مهما قارفت معصية أو أخلَّت بعبادة).

قال: (وعن أبي يزيد رحمه الله أنه قال: تكاسلت نفسي عليَّ في بعض الليالي عن بعض الأوراد، فعاقبتها بأن منعتها الماء سنة). وقال الغزالي: (فهكذا ينبغي أن يسلك سبيل الانتقام).

وأقول: سامح الله أبا يزيد, وسامح الغزالي, فلم يلزمهما الشرع بما عملا, والنفس لم تتكاسل عن فرض لازم, أو واجب دونه, أو سنة مؤكدة, وإنما هو عن ورد ألزم به نفسه, ولم يلزمها الله تعالى به ولا رسوله، فلا تستحق العقوبة الصارمة, وإن كان لا بد من العقوبة في بعض المخالفات, فلتكن بما شرعه الله تعالى لعباده, ولا تكون بتحريم الحلال عليهم. **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ}** [يونس:59].

ولا أدري معنى مَنْعِه نفسَه من الماء سنة, أيمنعها شرب الماء, وهل هذا ممكن؟ ولو كان ممكنا فهل هذا يجوز؟ وقد قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** [الأنبياء:30].

أم يكون المعنى: منعها من الغُسل والتنظيف بالماء. وهل هذا يجوز؟ وكيف يمنعها وقد فرض الله الوضوء كل يوم عند نقض الوضوء خمس مرات عند كل صلاة, وأوجب الغسل عند الجنابة, وطلبه طلبًا مؤكدًا في كل يوم جمعة، "غسل الجمعة واجب على كل محتلم"[1]. "حقٌّ على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومًا يغسل فيه رأسه وجسده"[2].

إن الالتزام بالقرآن والسنة الصحيحة هو الواجب على كل مسلم, فهو الذي يمنع المسلم من المبالغات والمزايدات على ما شرع الله ورسوله، بأهواء النفس، ومشتهيات العباد, وتسويلات الشيطان، والله يهدينا إلى الصراط المستقيم.

(ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر, وإنما يذكر الشر في مفعولاته, كقوله: **{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}** [الحجر:49-50]. وقوله: **{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}** [الأعراف:167]. وقوله: **{اعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [المائدة:98]. وقوله: **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ**

1
2

يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج:12-14]. فبين سبحانه أن بطشه شديد, وأنه هو الغفور الرحيم.

واسم (المنتقم) ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم, وإنما جاء في القرآن مقيدًا, كقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [السجدة:32], وقوله: {إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم:47]. والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه (المنتقم) فذكر فيه سياقه: "البر التواب المنتقم العفو الرؤوف". ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صلى الله عليه وسلم, بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز أو عن بعض شيوخه؛ ولهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي, رواه عن طريق الوليد بن مسلم بسياق، ورواه غير باختلاف في الأسماء, وفي ترتيبها: يبين أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وسائر من روى هذا الحديث عن أبي هريرة ثم عن الأعرج ثم عن أبي الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء؛ بل ذكروا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة"[1]. وهكذا أخرجه أهل الصحيح، كالبخاري ومسلم وغيرهما, ولكن روي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة، ورواه ابن ماجة وإسناده ضعيف, يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم, وليس في عدد الأسماء الحسنى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذان الحديثان كلاهما مروي من طريق أبي هريرة وهذا مبسوط في موضعه.

والمقصود هنا التنبيه على أصول تنفع في معرفة هذه المسألة؛ فإن نفوس بني آدم لا يزال يتحرك فيها من هذه المسألة أمر عظيم.

وإذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا, ثم كلما ازداد علمًا وإيمانًا ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله, ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}

1

[فصلت:53]. فإنه صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح: "لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها"[1]. وفي الصحيحين عنه أنه قال: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة, فبها يتراحم الخلق، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها من تلك الرحمة, واحتبس عنده تسعًا وتسعين رحمة, فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها عباده"[2]. أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)[3].

العفو:

ومن أسمائه تعالى العفُوُّ, وقد جاء في حديث أبي هريرة عند الترمذي الضعيف وضعه بعد اسم (المنتقم), واسم العفو قد جاء في القرآن الكريم مرفوعًا مرتين, كما في قوله تعالى: **{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** [الحج:60].

وفي سورة المجادلة جاء قوله تعالى: **{وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** [المجادلة:2].

وجاء مرفوعًا ثلاث مرات كلها في سورة النساء, كما في قوله تعالى: **{فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا}** [النساء:43]. وقوله سبحانه: **{فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا}** [النساء:99]. وقوله عز وجل: **{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}** [النساء:149].

وقال الغزالي في شرح مفهوم الاسم: (العفو هو: الذي يمحو السيئات, ويتجاوز عن المعاصي. وهو قريب من الغفور, ولكنه أبلغ منه, فإن الغفران ينبئ عن الستر, والعفو ينبئ عن المحو, والمحو أبلغ من الستر).

حظ المكلف من اسم (العفو):

1
2
3

قال الغزالي: (وحظٌّ العبد من ذلك لا يخفى, وهو أن يعفو عن كلِّ من ظلمه, بل يحسن إليه، كما يرى الله تعالى محسنًا في الدنيا إلى العصاة والكفرة, غير معاجل لهم بالعقوبة, بل ربما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم, وإذا تاب عليهم محا سيئاتهم؛ إذ التائب من الذنب كمن لا ذنب له, وهذا غاية المحو للجناية)[1].

والله تعالى يقول: **{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}** [الشورى:25].

ويقول: **{وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [المائدة:13].

ويقول سبحانه: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}** [الشورى:40].

وعلى المسلمين أن يتعافوا فيما بينهم, فيعفو المسلم ويصفح عن أخيه, ولا يضمر له السوء ما استطاع, وإن ظلموا وأساؤوا، كما أنزل الله تعالى في كتابه يعلِّم المهاجرين والفضلاء من الصحابة ألا يؤاخذوا الآخرين بكل أخطائهم, وأن يعفوا عنهم ويصفحوا, كما عفا أبو بكر عن مسطح قريبه الذي خاض وأساء مع من أساؤوا إلى ابنته عائشة أم المؤمنين، في حديث الإفك؛ قال تعالى: **{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [النور:22]. قال أبو بكر: بلى أحب أن يغفر الله لي.

وبخاصة الأقارب بعضهم وبعض, الأب مع بنيه, والابن مع أبيه, والأخ مع أخيه, والقريب مع قريبه, والزوج مع زوجه, والزوجة مع زوجها, وقد رأينا من العرب من كان لهم في ذلك مواقف في الذروة, من التحلي بمكارم الأخلاق, كما قال أحد الآباء, وقد قتل أخوه ابنَه خطأً:

أقول للنفس تَأْساءً وتعزيـــــة إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرد

1

كلاهما عوض من فقد صاحبه   هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وقال آخر في قومه الذين قتلوا شقيقه:

قومي همو قتلوا أُميم أخي   فإذا رميتُ أصابني سهمي
فلئن عفوتُ لأعفُوَن جللًا   ولئن سطوتُ لأُوهِنَن عظمي

لهذا أمرنا الله تعالى بكظم الغيظ والعفو عن الناس, كما قال تعالى في وصف المتقين: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:134].

وقد ذكر لنا القرآن موقف يوسف من إخوته الذين ظلموه وأساءوا إليه في صغره، وألقوه في غيابة الجب، قالوا: {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[يوسف:91-92].

وبعد أن رفع أبويه على العرش، وخر الجميع له سجدا، انحنوا تحية وتكريما له، قال: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[يوسف:100].

ضراعة إلى الله:

وقد كتبتُ مبتهلًا إلى الله أن يعفو عن جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي:

يا رب ما لي غير بابك مفزَعُ   آوي إليه إذا يعِزُّ المفزع
ما لي سوى دمعي إليك وسيلة   وضراعتي, ولمن سواك سأضرع؟!
إن لم أقف بالباب راجي رحمة   فلأيِّ باب غيرِ بابك أقرعُ؟!
إن لم يكن مني الذنوب, ومنك أن   تعفو, فأين اسم العفو المُطمِع؟!
أين الغفور؟ وأين رحمته التي   وسعت جميعَ الخلق؟ أين الموسِع؟!

هذا أوان العفو, فاعف تفضُّلًا   يا من له تعنو الوجوه وتخشع!!

الله الواسع الحكيم

هذان الاسمان من أسماء الله تعالى الحسنى التي ذكرها القرآن، واقترنا في بعض آياته، وأكدتهما السنة، ولهجت بذكرهما الأمة، وأجمعت عليهما: الأول اسم الله (الواسع). والآخر: اسم الله (الحكيم). كما قال تعالى في آية جمعت بينهما في العلاقة بين الزوجين: **{وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}** [النساء:130].

1-الواسع:

والواسع من أسماء الله تعالى الحسنى، التي ذكرها القرآن العظيم، وكررها في كثير من سوره وآياته.

فهو سبحانه واسع في علمه, كما قال تعالى: **{إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ ٱللهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}** [طه:98]. وقال سيدنا إبراهيم: **{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}** [الأنعام:80]. وقال سيدنا شعيب: **{وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْنَا}** [الأعراف:89].

وهو سبحانه الواسع الرحمة, كما قال تعالى: **{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [الأعراف:156]. وقال سبحانه: **{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}** [الأنعام:147].

وأنطق تعالى ملائكته بالاستغفار لعباده المؤمنين فقالوا: **{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}** [غافر:7].

وهو عز وجل واسع المغفرة, كما قال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ}** [النجم:32].

وقد ذكر القرآن اسم (الواسع) اسمًا لربنا تبارك وتعالى (8) ثماني مرات في القرآن الكريم, كما في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:115], ومثلما قال في آية مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:261]. وقال: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران:73]. {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة:54]. وقال تعالى: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور:32].

وجاء اسم (الواسع) مرة واحدة في حالة النصب, وهي قوله تعالى: {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا} [النساء:130].

و(الواسع) مشتق من السعة, والسعة تضاف مرة إلى العلم, إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة, وتضاف مرة أخرى إلى الرحمة, أو إلى المغفرة, كما فصَّلت الآيات, وكلها متصلة بالإحسان وبسط النعم, وكيف ما قُدِّر, وعلى أي شيء نُزِّل. فالواسع المطلق هو الله تعالى؛ لأنه إن نُظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته؛ بل تنفد البحار لو كانت مددًا لكلماته, وإن نُظر إلى إحسانه ونعمه, فلا نهاية لمقدوراته. وكل سعة وإن عظمت, فتنتهي إلى طرف, والذي لا ينتهي إلى طرف هو أحق باسم السعة.

والله تعالى هو الواسع المطلق؛ لأن كل واسع, بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق, وكل سعة تنتهي إلى طرف, فالزيادة عليها متصورة, وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة)[1].

(قال المازني:... وهو مختص بعدم النهاية في متعلقات صفات الخالق سبحانه, وهو الذي وسع بقدرته وإرادته وكلامه كل شيء, ووسع رزقه جميع خلقه, ووسعت

---

[1] - بتصرف

رحمته كل شيء, كما قال تعالى إخبارًا عن ملائكته: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } [غافر:7] وانتصابا على التمييز.

قال ابن الأنباري: الواسع الذي يسع ما يُسأل, ويقال: الواسع: المحيط بكل شيء.

وقال الحليمي: معناه الكثير مقدوراته ومعلوماته, والمنبسط فضله ورحمته, والمعترف له بأنه لا يعجزه شيء, ولا يخفى عليه شيء, ورحمته وسعت كل شيء.

وقال الخطابي: الواسع الغنيّ الذي وسع غناه بفاقر عباده, ووسع رزقه جميع خلقه).

وهو سبحانه (الموسع): قال الخطابي: قيل: إنه بمعنى ذو سعة، وهو الغني, وعليهما يكونان من صفات التنزيه. وإذا قيل: (الموسع) بأنه وسّع على غيره, أو خلق ا لأجسام ذات سعة, فهما من صفات الأفعال. وعليه جاء قوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات:47][1].

(قال ابن العربي:... (الواسع) يتضمن من المعاني ما لا يتضمنه (الغني)، ويتصرف فيما لا يتصرف فيه (الغني)، كقولنا: يا واسع الفضل, يا واسع الرحمة, يا واسع المغفرة, إلى غير ذلك.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة بين الجن والإنس، والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون, وبها يتراحمون, وبها تعطف الوحش على ولدها, وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"[2].

وعن سلمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة, كل رحمة طِباق ما بين السماء والأرض, فجعل منها في الأرض رحمة, فبها تعطف الوالدة, على ولدها, والوحش والطير بعضها على بعض, وإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة"[3].

1

2 أخرجه البخاري في الأدب (6000), وفي الرقاق (6469), ومسلم في التوبة (19/2752), والترمذي في الدعوات (3541), وابن ماجه في الزهد (4293), والدارمي في الرقاق (2785), وأحمد في المسند 434,334/2, 484.

3 أخرجه مسلم في التوبة (21/2753), وأحمد في المسند 439/5, والطبراني في الكبير (6144), وابن حبان في صحيحه (6146), وهناد السري في الزهد (1319), وابن المبارك في الزهد (894).

فيجب على كل مكلف أن يعلم: أن الله سبحانه هو المتفرد بما ذكرناه من الإحاطة والسعة، ثم يجب عليه أن يوسع صدره لقضاء ربه, والتزام ما تعبَّده به, ولاحتمال الأذى فيه، ويكتسب العلم ما استطاع، فبه تُنال هذه المراتب, وبه تُكسب المناقب. فارغب إليه في جميع ذلك, وتعرض لنفحات ربك بفراغٍ من قلبك, وجِدَّة من عزمك, تصل إلى مرغوبك إن شاء الله تعالى.

ثم إذا وسَّع الله عليك فوسع على نفسك وولدك، وأهلك، ومن شئتَ من إخوانك وأقاربك.

قال مالك بن نضلة: قلتُ: يا رسول الله، الرجل أمُرُّ به فلا يُقْريني ولا يضيّفني, فيمر بي, أفأجزيه؟ قال: "لا, أَقِرْهُ". وقال: ورآني رثَّ الثيابِ. فقال: "هل لك من مال؟". قلتُ: من كل المال قد أعطاني الله من الإبل والغنم. قال: "فليُرَ عليك"[1]. خرَّجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. يعني: أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، تنطق بفضل ربه وتوسيعه.

حظ المكلف من اسم الله (الواسع):

نبه الإمام الغزالي على طريقته إلى حظ العبد من اسم الرب عز وجل (الواسع) فقال:

(سعة العبد في معارفه وأخلاقه, فإن كثرت علومه, فهو واسع بقدر سعة علمه، وإن اتسعت أخلاقه حتى لم يُضَيِّقها خوفُ الفقر، وغيظُ الحسد، وغلبة الحرص، وسائر الصفات، فهو واسع، وكل ذلك فهو إلى نهاية، وإنما الواسع الحق هو الله تعالى)[2].

فعلى الإنسان أن يكون له زاد –كل على ما يستطيع ويحرص – من السعة الإلهية، سعة العلم، وسعة الرحمة، وسعة المغفرة، وسعة الرزق.

2-**الحكيم:**

---

[1] صحيح: أخرجه الترمذي في البر والصلة (2006) وقال: "حسن صحيح", واللفظ له, وأبو داود في اللباس (4063), والنسائي في الزينة (5239,5238), وأحمد في المسند برقم 137/4, وابن حبان في صحيحه (143 موارد), وصححه الحاكم في المستدرك 181/4 ووافقه الذهبي, والطبراني في الكبير 277/19 (608), وغيرهم.

[2]

من الأسماء التي حرص القرآن على أن يضيفها إلى الله تعالى: الحكيم، وهو ذو الحكمة. وهي الحكمة البالغة، والحكمة التامة، وهو حكيم فيما خلق وقدَّر, وحكيم فيما شرع وحكم, وأمر ونهى. ومن تأمل حكمته تعالى في هذين الجانبين، أو المبدأين، تجلى له الكثير من آثار الحكمة وألوانها وأنواعها.

وقد ورد هذا الاسم كثيرًا في القرآن، وصحت به الأحاديث، وأجمعت عليه الأمة واعترفت به، وإن لم يجعلوه في الصفات الواجب إثباتها كالعلم والإرادة والقدرة، برغم أن إثبات الحكمة لله تعالى في صنعه وفي شرعه مما عُنِيَ به القرآن كثيرًا.

وهو سبحانه وتعالى يثني على الحكماء من عباده, يقول تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة:269].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} [لقمان:12]. وذكر لنا نُبَذًا من حكمة لقمان, في موعظته لابنه: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان:13].

وكل ما أوتيه الخلق من حكمة, فهو جزء من حكمة الله, الذي لديه الحكمة كلها, اعترف بذلك الملائكة، فقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:31-32].

واعترف بذلك أنبياء الله ورسله, كما رأينا في أدعية خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل, وهما يرفعان القواعد من البيت ويدعوانه لأمة محمد في آخر الزمان: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة:129].

كما بين سبحانه وتعالى عزته وحكمته في التأليف بين قلوب عباده المؤمنين بعد أن فرقتهم الجاهلية فقال: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:62-63].

وقال تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:49]. يعني: إن المؤمنين ليسوا بمغرورين, ولا مخدوعين في أنفسهم, ولكنهم متوكلون على رب عظيم, هو الله تبارك وتعالى, ومن يتوكل على الله تعالى, فإنه يتوكل على عزيز, كل العزة له, كما قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر:10]. فلا يَذِلُّ من التجأ إليه وتوكل عليه, وهو مع عزته حكيم, لا يمكن أن يضيّع من وَثَق بتدبيره, ورجع في كل أمره إليه. كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [المزمل:9].

وقال تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:67].

الله الحكيم له جنود السموات والأرض:

ويقول تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح:7]. وقبلها بعدة آيات قال: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح:4].

فليطمئنَّ الرسول والمؤمنون على أن معهم الله تبارك وتعالى, والله له وعنده جنود السماوات والأرض, كما قال تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر:31].

وهو سبحانه العليم الحكيم, والعزيز الحكيم, قد يكون المَلِك لديه جنود كثيرة, وقواه مسلحة تسليحًا هائلًا, ولكنه لا ينتفع بها؛ لأنه لا ينتفع بكثرة الجنود إلا من جمع بين العلم والحكمة, أما الجاهل فقد تكون كثرة الجنود مضيعة له؛ لأنه لا يحسن تجنيدها وتسييرها وتصفيفها, ووضعها في مواضعها، وتوجيهها حيث يجب أن تكون.

وكذلك العالم أو العليم, إذا لم يكن متصفًا بالحكمة, فربما حرَّك الجيوش في غير موضعها, أو في وقت غير مناسب, أو لعدو غير حقيقي, وأغفل العدو الحقيقي, فيخرب أكثر مما يعمِّر, ويهدم أكثر ممَّا يبني, وينهزم أكثر مما ينتصر.

وكذلك صاحب الجند الكثير, إذا لم يكن عزيزًا مهيبًا قويَ الجانب, غلب عليه جنده, وأكلوه, ولم يبقوا له من هيبة الملك ما يُبقي على مُلْكِه. لهذا كانت هذه الأمور الثلاثة مطلوبة للنصر: العلم والعزة والحكمة, وكلها ثابتة في أعلى كمالاتها لله تعالى.

المراد بالحكمة في القرآن:

قال الفخر الرازي: (المراد من الحكمة: إما العلم، وإما فعل الصواب. يُروى عن مقاتل أنه قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه؛ أحدها: مواعظ القرآن، قال في البقرة: **{وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ}** [البقرة:231]، يعني: مواعظ القرآن. وفي النساء: **{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [النساء:113]، يعني المواعظ. ومثلها في آل عمران. وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى – أي في يحي–: **{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}** [مريم:12]. وفي لقمان: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}** [لقمان:12]، يعني: الفهم والعلم. وفي الأنعام: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ}** [الأنعام:89]. وثالثها: الحكمة بمعنى النبوة في النساء: **{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [النساء:54]، يعني: النبوة. وفي ص (في داود): **{وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}** [ص:20]، يعني: النُّبُوَّة. وفي البقرة **{وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ}** [البقرة:251]. ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، في النحل: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ}** [النحل:125]. وفي هذه الآية: **{وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}** [البقرة:269]).

قال الرازي: (وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم، ثم تأمل أيها المسكين، فإنه تعالى ما أَعْطَى إلا القليل من العلم، قال تعالى: **{وَمَا**

أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:85]. وسمى الدنيا بأسرها قليلًا، فقال: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ} [النساء:77]. وانظر كم مقدار هذا القليل، حتى تعرف عظمة ذلك الكثير، والبرهان العقلي أيضًا يطابقه؛ لأن الدنيا متناهية المقدار، متناهية المدة، والعلوم لا نهاية لمراتبها وعددها ومدة بقائها، والسعادة الحاصلة منها، وذلك ينبئك على فضيلة العلم، والاستقصاء في هذا الباب قد مر في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة:31].

وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب فقيل في حدها: إنها التخلُّق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية.

واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيَيْن؛ وذلك لأن كمال الإنسان في شيئين: أن يعرف الحقَّ لذاته، والخير لأجل العمل به. فالمرجع بالأول: إلى العلم والإدراك المطابق. وبالثاني: إلى فعل العدل والصواب. فحَكَى عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم قوله: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} [الشعراء:83]، وهو الحكمة النظرية، {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء:83]، الحكمة العملية. ونادى ربُّنا موسى عليه السلام فقال: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}، وهو الحكمة النظرية، ثم قال: {فَاعْبُدْنِي} [طه:14] وهو الحكمة العملية. وقال عن عيسى عليه السلام: إنه قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [مريم:30]. وكل ذلك للحكمة النظرية، ثم قال: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم:31]. وهو الحكمة العملية. وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} وهو الحكمة النظرية، ثم قال: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد:19]. وهو الحكمة العملية، وقال في جميع الأنبياء: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}. وهو الحكمة النظرية. ثم قال:

{فَـاتَّـقُـونِ} [النحل:2]، وهو الحكمة العملية. وكمال حال الإنسان ليس إلا في هاتين القوتين.

قال أبو مسلم: الحكمة فِعْلة من الحُكْم، وهي كالنِّحلة من النُّحْل، ورجل حكيم إذا كان ذا حِجًى ولُبٍّ، وإصابة رأي، وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل، ويقال: أمرٌ حكيم، أي مُحْكَم، وهو فعيل بمعنى مفعول، قال الله تعالى: {فِـيـهَـا يُـفْـرَقُ كُـلُّ أَمْـرٍ حَـكِـيمٍ} [الدخان:4]. وهذا الذي قاله أبو مسلم من اشتقاق اللغة يطابق ما ذكرناه من المعنى)[1].

في معنى (الحكيم):

قال الغزالي في المقصد الأسنى عن معنى (الحكيم): (ذو الحكمة, والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم, وأجل الأشياء هو الله سبحانه, وقد سبق أنه لا يعرف كُنْهَ معرفته غيرُه, فهو الحكيم الحق؛ لأنه يعلم أجلَّ الأشياء بأجلِّ العلوم؛ إذ أجلُّ العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله, المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليه خفاء ولا شبهة, ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى, وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها: حكيم. وكما ذلك أيضًا ليس إلا لله تعالى, فهو الحكيم الحق).

نصيب المكلف من اسم (الحكيم):

قال الغزالي: من عرف جمع الأشياء ولم يعرف الله عز وجل, لم يستحقَّ أن يسمَّى حكيمًا؛ لأنه لم يعرف أجلَّ الأشياء وأفضلها، والحكمة أجلَّ العلوم، وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم، ولا أَجَلَّ من الله عز وجل. ومن عرف الله تعالى, فهو حكيم، وإن كان ضعيف الفطنة في سائر العلوم الرسمية, كَلِيل اللسان, قاصر البيان فيها, إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته به إلى معرفته بذاته، وشتان بين المعرفتين، فشتَّانَ بين الحِكْمتين، ولكن مع بُعده عنه، فهو أنفس المعارف وأكثرها خيرًا. ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

نَعَمْ, من عرف الله كان كلامه مخالفًا لكلام غيره, فإنه قلما يتعرض للجزئيات– أي: وحدها–؛ بل يكون كلامه كُلِّيًّا, ولا يتعرض لمصالح العاجلة, بل يتعرض لما

1

ينفع في العاقبة, ولما كان ذلك أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله عز وجل, ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية. ويقال للناطق بها: حكيم.

وذلك مثل قول سيد البشر صلاة الرحمن وسلامه عليه: "الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت, والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: "ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى"[2]. وقوله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح معافًى في بدنه, آمنًا في سربه, عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"[3])[4].

قال القرطبي: (ورد في القرآن العظيم في غير موضع, وجاء في أحاديث الرسول, وأجمعت عليه الأمة, ولا خلاف في إجرائه على المخلوق وصفًا.

يقال منه: أحكمتُ الشيء أُحكِمُه إحكامًا, فهو مُحكَم. وفاعل ذلك هو: الحكيم. وفرس محكومة؛ بمعنى رَيِّضة, والريِّض ممنوع من الخروج عن مراد راكبه, وكل شيء منعته فقد حكمته.

قال الجوهري: الحكيمُ؛ العالِم وصاحب الحكمة, والحكيم, المتقن للأمور, وقد حَكَم: أي صار حكيمًا. قال النَّمِر بن تَوْلَبٍ:

وأَبغِضْ بغيضك بُغضًا رُويدًا إذا أنتَ حاولت أن تحكما[5]

قال الأصمعي: أيْ: إذا حاولت أن تكون حكيمًا.

وقال الزَّجَّاجي أبو القاسم: (الحكيم) في الكلام على ثلاثة أضرب: يكون بمعنى مُفعِل بتأويل الفاعل, ومُفعَل, بتأويل المفعول, وقد يكون للمبالغة في الوصف بمنزلة: كريم وعليم, ولا يُراد به التعدي، إلا وصف الذات بالحكمة, لأن الفاعل للأشياء المُتْقنة المُحكمة لا يجوز أن يكون جاهلًا بها، فيكون (حكيم) على هذا بتأويل المبالغة في الوصف بالعلم والحكمة, فيرجع إلى صفات الذات بالعلم والحكمة, ويكون بمعنى: المُحكِم للأشياء. فيكون من صفات الأفعال.

1
2
3
4
5 انظر: الأغاني 283/22, ولسان العرب 140/12.

وقال أبو عبيدة مَعْمَر بن المثني: والعرب قد تضع فَعِيلًا في معنى مُفْعَل, وقد جاء في آية أخرى: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} [ق:23]. أي مُعَدٌّ, فأما قوله تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [آل عمران:58]. فقيل معناه: المحفوظ من التبديل والتغيير, ممنوع من الخلاف، مُبْرَم السَّرْد, متقن التأليف والنظم. (فالحكيم) الذي أفعاله مُحْكَمة متقنة, ولا تفاوت فيها ولا اضطراب, لوضعِ كل شيء موضعه, ومنه قيل: بناء مُحْكَم: أي قد أُتقِنَ وأُحكِمَ. فالله عز وجل (حكيم)، كما وصف نفسه بذلك, لإتقان أفعاله واتساقها وانتظامها وتعلق بعضها ببعض, فالحكيم على هذا فعيل بمعنى مُفْعِل، كما جاء (عليم) بمعنى (عالم)، في قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:119]....

وكذلك قوله عز وجل: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [السجدة:7]. لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر, فإن هذا المعنى معدوم في القرد والخنازير والدب وأشكالها من الحيوان, وإنما ينصرف المعنى إلى حُسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه, وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها, كقوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان:2].

فيجب على كل مُكلَّف: أن يعتقد أن لا حكيم على الإطلاق إلا الله عز وجل, وأن كل حكم وحكمة فمن عنده, وقد قال: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ} [البقرة:269]. قال عليُّ بن أبي طالب: (الحكمة فهم القرآن). وكذلك قال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن, فقهه وناسخه ومنسوخه، ومتشابهه وعربيته، ومقدَّمه ومؤخَّره. وكذلك قال قتادة ومجاهد: الحكمة: هي الفقه في القرآن {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة:269]. ونحوه روى ابن وهب عن مالك. قال ابن وهب: قال لي مالك وذكر قوله تعالى في يحيى: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم:12], وقوله في عيسى: {قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ} [الزخرف:63], وقوله: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [آل عمران:48], وقوله: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي

بُـيُوتِـكُنَّ مِنْ آيَـاتِ ٱللهِ وَ الْـحِكْمَـةِ } [الأحزاب:34]. قال مالك: الحكمة في هذا كله طاعة الله والاتباع لها, والفقه في دين الله والعمل به. قال ابن وهب: وسمعته يقول: الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء, وليس بكثرة المسائل. وعن ابن عباس أيضًا وغيره: الحكمة القرآن, سماه حكمة؛ لأنه علم, فكأنه قال: ومن يؤت القرآن فقد أوتي علمًا كثيرًا. وقد قال الله تعالى في موضع آخر: {وَ آتَـاهُ ٱللهُ الْـمُلْكَ وَ الْـحِكْمَـةَ } [البقرة:251]. قالوا: يعني الملك والعلم.

وقال بعض أهل اللغة: إنما سمي القرآن: حِكمة لامتناعه من المعارضة, كأنه ممتنِع من أن يُؤتَى بمثله ويعرض, كما قال جل وعز: {لَـئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء:88].

قال: وكذلك الحكيم من الناس, إنما سُمِّي حكيمًا؛ لأنه يمتنع من فعل القبائح, ويمنع نفسه منها, ومنه: حَكَمَة الدابة, وهي الحديدة التي تكون في فم الدابة من اللِّجام، سُمِّيتْ حَكَمَة؛ لأنها تمنع الدابة وتكفُّها عن الجري, ومنه قول أبي حنيفة: أحكموا سفهاءكم, إني أخاف عليكم أن أغضب, يريد امنعوهم من الفساد.

قلتُ: وإذا تقرر هذا, فيجب على كل مؤمن تعلم الحكمة وطلبها عن أهلها حتى يكون حكيمًا يضع الأشياء مواضعها. وحقيقة الحكمة إصابة الصواب وموافقة الحق والعدل في القول والعمل. وفي الحديث: "الحكمة ضالة المؤمن"[1].

فإذا تعلمها وجب عليه بذلها لأهلها, ومنعها من غير مستحقيها؛ ولذلك قيل: لا تمنعوا الحكمة من أهلها فتظلموهم, ولا تضعوها في غير أهلها فتظلموها. وإنما كانت الحكمة ضالة المؤمن تشبيهًا بالضالة من الإبل, وهي التي تكون بمَضْيَعة من قولهم: ضلَّ الشيءُ إذا ضاع وذهب عن القصد. فكما يطلبها صاحبها إذا ضاعت في المكان الذي يرجو إصابتها فيه, فكذلك المؤمن ينبغي أن يكون أبدًا متطلِّبًا لحكمةٍ ما, عند من يرجو إصابتها عنده)[2]. ورُبَّ حكمةٍ تؤخذ من أميٍّ, بل تؤخذ

---

[1] ضعيف جدا : أخرجه الترمذي في العلم (2687) وقال : "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه, وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي, يضعف في الحديث من قبل حفظه", وابن ماجه في الزهد (4169), من حديث أبي هريرة, وقال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (4302) : "ضعيف جدا". وانظر : كشف الخفاء (1159).

[2]

أحيانًا من غير موضعها, كما حكوا: أن عبد الله بن المبارك مر بمزبلة فيها سكران, فوجده يغني بيتًا من الشعر, يقول:

أذلني الهوى فأنا الذليل وليس إلى الذي أهوى سبيلُ

فأخرج عبد الله الكراسة ليكتب فيها هذا البيت. فقالوا له: تكتب من هذا السكران؟ فقال لهم: أما سمعتم المَثَل الذي يقول: رُبَّ جَوْهَرَة في مزبلة! فهذا البيت من الشعر هو الجوهرة التي وجدتها في مزبلة.

الحكمة علمية وعملية:

والحكمة نوعان: حكمة عِلْمية أو نظرية, وحكمة عَمَلية أو تطبيقية.

فالحكمة النظرية أو العلمية هي معرفة الشيء على حقيقته, بكل زواياه وكل أبعاده, وكل جوانبه, الظاهرة والخفية, بحيث لا يعتاض عليه أيّ شيء مهما صغر أو دق أو ألغز, يعرف ظاهره وباطنه, وأوله وآخره, ودقيقه وجليه, ويعرف ماضيه وحاضره, ومستقبله أيضًا على سواء, وهو قادر على أن يجيب أيّ سائل يسأله عن حقيقة هذا الشيء, وأن يجيبه بيسر وسهولة. وبهذا العلم الشامل المحيط يعرف من أين يأتي الخطر على هذا الشيء, وكيف يدفعه, وبأي شيء يدفع, إلى آخر ما يعرف عن ذلك الشيء. ومن علمه سبحانه: أن يعرف فيم ينفع هذا الشيء, وبأي شروط, وبأي وسائل؟ ومن هنا كان هذا العلم هو أساس استخدام هذا الشيء فيما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ويجلب عليهم المصالح, ويدرأ عنهم المفاسد, فعلمه تعالى مرتبط بحكمته، ولا عجب أن نجد الاسمين العليم والحكيم، قد أقترنا في آيات كثيرة في مثل قوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [التوبة:28] **{وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [النساء:26] **{إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** [النساء:11, 24- الأحزاب:1- الإنسان:30].

والحكمة العملية هي وضع الله سبحانه وتعالى الأشياء في موضعها المناسب لها, بغير تضييق عليها, أو محاباة لها, بل تأخذ مكانها بالعدل, ولا تزاحم غيرها بالباطل, ويعطي كل ذي حقٍّ حقه, فلا يضيع حق ضعيف لضعفه, ولا يستأثر قوي بما ليس له من حق.

وكل ما خلقه الله من مخلوقات, فهو لحكمة, علمها من علمها, وجهلها من جهلها, وكذلك كل ما شرعه الله, فهو مشروع لحكمة, مقدَّر على عباده, فليس هو في حاجة إلى شيء, إنما كل الحِكَم والمصالح مربوطة بعباده.

جلس أب مع بعض أبنائه في حديقة, وكان فيها نخل عالي القامات, وفي الحديقة بطيخ شجره نيام على الأرض. والبطخية ضخمة تقدر بنحو عشرة كيلو مترات, أو أكثر والنخلة بلحها أو رطبها أو تمرها صغير بالنسبة للبطيخ, وكان ابن الرجل, قد تعلم بعض الشيء, ولكنه علم بعيد عن الدين, فأورثه في نفسه التمردَ على الأساسيات عند أهل التدين, وقال لأبيه: يا أبت، ألا ترى التناقض الذي نراه في حديقتنا؟ قال الأب: وما هو يا بني؟ قال: البلح الذي تثمره النخلة, وهو صغير, والبطيخ الذي تثمره شجرته, وهو كبير؟ ألم يكن العكس هو الأولى, فيكون للنخل الثمر الكبير, ولشجرة البطيخ الثمر الصغير؟ قال الأب: يا بني, نحن نؤمن بأن لله في كل شيء حكمة, وإن جهلناها, وربما نجهل نحن ويعرفها غيرنا, ولا يجوز لنا أن نعترض على الله في خلقه أو في أمره.

قال الابن: كلما سألناكم سؤالًا أعجزكم, طلبتم منا أن نسلِّمَ ولا نعترض, كان عقولنا آفة علينا.

وما زال الابن يتكلم في هذا النوع من الكلام, وإذا ببلحة تنزل على عينه من فوق, فيصرخ صرخة ألم: آه. فقال الأب: احمَد الله يا بني, أنها لم تكن بطيخة.

فعرف من واقع الحال: أن ما خلقه الله هو في غاية الحكمة, فليس الصواب: أن تكون الثمرة الكبيرة كالبطيخة عالية كالرطب والتمر, فيشق الاستفادة منها واجتناؤها وتحصيلها, ولو وقع شيء منها سيكسر, أو يؤذي صاحبه, وأولى بالشجر العالي أن يكون ثمره قليل الوزن, خفيف التناول, سهل الأخذ. وسبحان الله العليم الحكيم.

الله العلي العظيم

في آية الكرسي، أعظم آية في كتاب الله نقرأ قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[البقرة:255].

فختمت الآية بهذين الاسمين الكريمين، وقرنت بينهما:

1- العليُّ:

أولهما: العلي، جاء ذكره في القرآن العظيم، وفي السُّنَّة النبوية، وأجمعت عليه الأمة, وانتشر بين كل أبنائها, وله مشتقات أربعة, ثلاثة متفق عليها, هي: العليُّ والأعلى والمتعالى, فقد ورد بها القرآن. في عدد من سوره وآياته. وأما اسم (العالي) فلم يجئ إلا في حديث الترمذي الضعيف وغيره.

قال الله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى:1], وفي نهاية آية الكرسي: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة:255], وفي سورة أخرى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:23], وقال سبحانه: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد:9]. ولم يجئ اسم (العالي) في القرآن منسوبًا لله تعالى, بل جاء منسوبًا إلى فرعون ومذمومًا، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ} [الدخان:30-31]. وهذا هو العلو في الأرض بغير الحق, الذي يكرهه الله, ويكره أصحابه, ولذا قال: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ} [القصص:4]. وقال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} [القصص:83]. وبعض المسلمين اعتمدوا على الحديث الضعيف فسموا أبنائهم باسم (عبد العال), وبعضهم غيَّروه (بعبد المتعال).

(ولا خلاف في إجراء (العلي) على العبد من غير تعريف بألف ولام, وعلي بن أبي طالب معلوم مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أمة الإسلام.

والعلي: مشتق من العلو... وله معنيان:

أحدهما: علو المكان؛ كعلو العرش على سائر المخلوقات، وكعلو الجنة والنار.

والثاني: علو المكانة؛ كعلو الرفيع والشريف على الوضيع, والعلم على الجهل، والحق على الباطل, والحاكم على المحكوم، ومثله كثير...

قال الحليمي: وقيل: المراد بالعلو: القهر والغلبة؛ كما قال سبحانه: **{وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** [المؤمنون:91]. أي غلبه وقهره, فالله سبحانه العلي العالي القاهر الغالب للأشياء كلها، تقول العرب: علا فلان فلانًا أي غلبه وقهره, كما قال الشاعر:

فلمَّا عَلَوْنا واستَوَيْنا عليهم تركناهمُ صرعى لنَسْرٍ وكاسِرِ

يقول: غلبناهم وقهرناهم، واستوينا عليهم, وكذلك في قوله تعالى: **{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ}** [القصص:4]. قالوا: معناه قهر أهلها، وغلبهم واستولى عليهم، فهو من صفات الذات، ومن صفات الأفعال, فالله سبحانه العلي العالي ذو العلاء والرفعة، والجلال والثناء, وهو القاهر الغالب للأشياء.

وقالت طائفة من العلماء: هو عالٍ بمعنى: منزَّه عن صفات الحدوث والتشبيه والتحيز. وهو قول حسن؛ فإنه سبحانه عليٌّ بما هو من صفات الكمال, متعالٍ عن صفات النقص, أعلى من غيره من الخلق, وإن كان ليس لغيره علو؛ فإن علوَّ الخلقِ من علوه, كما أن عزتهم من عزته.

وقالت المجسِّمة بعلو المسافة، وبعد المقدار، ومحاذاة الأجرام، تعالى الله عن قولهم.

قال ابن الحصار: وإنما اعتبار علوِّه جل وعز طرفان:

أحدهما: اعتبار علوِّ مجده وكلماته وصفاته وملكوته.

والثاني: اعتبار علوِّ حزبِه، وما دعا إليه، وأمر به.

فأما اعتبار صفته فبكمالها ونزاهتها عن النقائص والآفات، والبعد عن إحاطة الإدراكات, وأما علو كلمته سبحانه فلأنها الحق، وهي العالية في الدنيا والآخرة.

وأما علو حزبه سبحانه فملائكته, وأعلاهم مكانًا ومكانة حَمَلَة عرشه, وجبريل وميكائيل, فهم المنزَّهون عن الدَّنِيَّات والأقذار, وهم أعلى المخلوقات أقدارًا؛ ولذلك كان النبي المختار يقول: "سبُّوح قدُّوس, رب الملائكة والروح"[1].

فعلو مكانهم، على قدر مكانتهم، وكذلك سائر العلماء والمؤمنين؛ ولذلك قال سبحانه: **{يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}** [المجادلة:11], وقال: **{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}** [البقرة:253].

ولما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم عاين ذلك ومر بالنبيين في مقاماتهم. وكذلك سائر العلماء والمؤمنين، والكل حزب الله، وأما الذي دعا إليه سبحانه فجنته ومجاورته في حضرة قدسه, ودعا إلى مكارم الأخلاق, والطيب والطيبات، وأمر بالطهارة والزكاة.

والشيطان يدعو إلى نقيض ذلك كله.

فيجب على كل مكلَّف أن يعلم أن خالقه هو (العلي)، بالمعاني التي تقدم ذكرها من معاني الجلال والكمال, ثم يجب عليه أن يستعلي على الكافرين، قال الله تعالى: **{وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا}** [النساء:141]. وقال تعالى: **{وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** [المنافقون:8]. وقال سبحانه: **{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** [آل عمران:139]. ويتعاطى معاني الأخلاق, في رفع الذكر, وإعلاء المنازل, والتقريب بعد التقريب من الله تعالى).

فعلى قدر الإيمان وكثرة الأعمال يكون كمال العلو في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى في سورة الواقعة, التي قسمت الناس أقسامًا ثلاثة: هم السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال, قال: **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ***

---

[1] أخرجه مسلم في الصلاة (223/487), وأبو داود في الصلاة (872), والنسائي في التطبيق (1047), وأحمد في المسند 115,94,34/6, وابن خزيمة في صحيحه (606), وابن حبان في صحيحه (1899), والدارقطني في سننه 343/1, والبيهقي في السنن الكبرى 109,87/2, كلهم من حديث عائشة.

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة:10−40]. وجنات أصحاب اليمين جميعها عواليٌّ, وجنات المقربين جميعها علَالِيُّ, واحدتهن عُلِّيَّة.

وأصل عُلِّيَّة عُلِّيوَة على وزن فُعِّيلَة, فأبدل وأدغم، وبعضهم يقول: عِلِّيَّة بكسر، قال الشاعر:

ألا يا عين ويحك أسعديني   بغزر الدمع في ظلم الليالِي
لعلك في القيامة أن تفوزي   بخير الدار في تلك العلالي)[1].

والعلو الثابت والدائم هو الله عز وجل, وأما ما عداه فليس هنا ولا هناك من عال إلا سينزل, فكم من نازل علا, وكم من عالٍ نزل، كما هي أوضاع الدنيا وأهلها.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه"[2].

ومن علوه سبحانه: أن جعل الرِّفعة والعلو لكتابه ولدينه، ولرسله وأنبيائه, ولأوليائه الصادقين, كما قال: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} [طه:68], وقال: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف:4].

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن القرآن الكريم وأهله والعلماء به: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا, ويضع به آخرين"[3]. ومع علوه سبحانه فهو قريب مجيب سميع,

---

1

2 أخرجه البخاري (2872).

3

ولذا يناديه العبد نداءً خفيًّا: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا} [مريم:3]. فيسمعه سبحانه ويجيبه، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:7].

يقول الشيخ سلمان العودة في كتابه (مع الله):

(ويخبر عن نفسه أنه يسمع السر وأخفى, والسر ضد الجهر, وما هو أخفى من السر فهو الخطرات التي لا يعيها صاحبها, ولا يدركها, والمعاني المكنونة التي لا يحيط بها المرء بها حتى عن نفسه وذاته, فهناك عالم الأسرار, وهناك اللاشعور واللاوعي, وهناك الخفايا الخِلْقية التي لم يصل إليها العلم, وهناك الخفايا المستقبلية, فهو مع علوِّه واستوائه على عرشه محيط بذلك كله, لا تخفى عليه خافية.

ولذا سمَّى نفسه بذي المعارج {مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ}, وفسَّره بقوله: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج:3-4], وذكر نزول الملائكة والروح ونزول الوحي, كما ذكر ارتفاع الأشياء وصعودها إليه: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:10], {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء:158].

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ يَدِقُّ خَفَاهُ عن فَهْمِ الذكِيِّ
وَكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ فَفَرَّجَ كُرْبَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ
وكم أمرٍ تساءُ به صباحًا وَتَأْتِيْكَ المَسَرَّةُ بالعَشِيِّ
إذا ضاقت بك الأحوال يومًا فَثِقْ بالواحِدِ الفَرْدِ العَلِيِّ

كيف تفهم النصوص التي تثبت الفوقية والعلو لله:

النصوص التي تثبت الفوقية والعلو لله تعالى, نثبتها كما أثبتها الله تعالى لنفسه, لِمَا جاءت به النصوص الغزيرة الوفيرة في القرآن والسنة, مثل قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك:16]. {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء:158]. {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج:4]. {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر:10]. {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى:1]. {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ

فَوْقِهِمْ} [النحل:50]. **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [الأنعام:18, 61]. **{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه:5]. **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}** [النحل:102] وغيرها من الآيات.

والأحاديث الكثيرة التي ذكرت أن الله في السماء, أو فوق سبع سماوات؛ مثل: "يرحمكم من في السماء"[1]. "كان الذي في السماء ساخطًا عليها"[2] و"زوجني الله من فوق سبع سماوات"[3].

كل هذه النصوص نثبت ما دلت عليه من وصف لله تعالى, ولكنا نفسِّر هذا الإثبات بما فسره به المحققون من علماء المنهج السلفي, لا بما يفهمه السطحيون من الحشوية الظاهرية, وبعض غلاة الحنابلة.

من هؤلاء المحققين العلامة عماد الدين الواسطي الشافعي الصوفي السلفي, الذي فسر (العلو) و(الفوقية) تفسيرًا موفَّقًا وموثَّقًا, يمكن أن تجتمع به كلمة المختلفين. والرجل شافعي في الفقه, سلفي في العقيدة, صوفي في السلوك, حتى كان ابن تيمية يسميه (جنيد زمانه) تشبيها له بالإمام الرباني المعروف: الجنيد.

فقد ذكر في رسالته (النصيحة)[4]: أنه كان برهة من حياته متحيِّرًا في مسألة الفوقية والعلو, ومسألة الصفات, ومسألة الحرف والصوت في كلام الله, وحِيرته جاءت مما قاله المتكلمون من علماء الأشاعرة السابقين الذين لهم في صدره منزلة وقدر, وما يقرؤه من آيات الكتاب, وأحاديث الرسول, مما يثبت هذه الأمور بوضوح, حتى شرح الله صدره لما رأى أنه الحق. قال:

(فلم أَزَل في هذه الحيرة والاضطراب من اختلاف المذاهب والأقوال, حتى لطف الله بي, وكشف لهذا الضعيف عن وجه الحق كشفًا اطمأن إليه خاطره, وسكن به سرُّه, وتبرهن الحق في نوره, وأنا واصف بعض ذلك إن شاء الله تعالى).

---

[1] رواه أبو داود في الأدب (4941) والترمذي في البر والصلة (1925) وقال : حديث حسن صحيح. وذكره الألباني في صحيح الجامع (3522) عن عبد الله بن عمرو.

[2] رواه مسلم في النكاح (3540) عن أبي هريرة.

[3] رواه البخاري في التوحيد (7420) عن أنس.

[4] نشرها المكتب الإسلامي في بيروت بتحقيق زهير الشاويش. واقتبس منها السفاريني في شرح عقيدته الشهيرة (لوامع الأنوار الإلهية) وقد نقل العلامة شعيب الأرنؤوط فقرات منها في مقدمته لكتاب (أقاويل الثقات) الذي حققه – باعتبارها من تصنيف الشيخ أبي محمد الجويني- والد إمام الحرمين ت 438هـ - تبعا لما نشر في الرسائل المنيرية, وهو خطأ مؤكد. وبداية الرسالة تدل على أن مؤلفها متأخر عن عصر أبي محمد. وقد توفى الواسطي سنة 711 هـ. كما أن د. محمد عياش الكبيسي في كتابه (الصفات الخبرية) نسبها إلى الشيخ أبي محمد الجويني, وهي قطعا ليست له, ولم يعرف عن الشيخ التأليف في علم الكلام. إنما عرف بذلك ابنه أبو المعالي.

ما انتهى إليه في العلو والفوقية والاستواء:

قال: (والذي شرح الله صدري له في حكم هذه المسائل الثلاث: (العلو, والفوقية, والاستواء):

الأولى: مسألة العلو:

وهو: أن الله عز وجل كان ولا مكان, ولا عرش, ولا ماء, ولا فضاء, ولا خلاء, ولا مِلَاء.

وأنه كان منفردًا في قِدَمه وأزليَّتِه, متوحِّدًا في فَرَدَانِيَّته, سبحانه وتعالى في تلك الفردانية, لا يوصف بأنه فوق كذا, إذ لا شيء غيره, هو سابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم, وهما لازمان له, والرب تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدوث.

فلما اقتضت الإرادة المقدسة, بخلق الأكوان المحدثة, المخلوقة المحدودة, ذوات الجهات, اقتضت الإرادة أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل، وهو سبحانه مُنزَّه عن صفات الحدوث, فكوَّن الأكوان, وجعل لها جهتي العلو والسفل، واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الكون في جهة التحت, لكونه مربوبًا مخلوقًا. واقتضت العظمة الربانية أن يكون فوق الكون, اعتبار الكون المحدث لا باعتبار فردانيته, إذ لا فوق فيها ولا تحت, والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وأزليته وفردانيته, لم يحدث له في ذاته ولا في صفاته, ما لم يكن في قدمه وأزليته, فهو الآن كما كان.

لكن لما أحدَثَ المربوبَ المخلوق ذا الجهات, والحدود, والخلاء, والمَلَاء, والفوقية, والتحتية, كان مقتضى حُكْم العظمة للربوبية أن يكون فوق ملكه, وأن تكون المملكة تحته باعتبار الحدوثِ من الكون, لا باعتبار القِدَم من المُكَوِّن, فإذا أشير إليه بشيء يستحيل أن يشار إليه من الجهة التحتية, أو من الجهة اليمنة أو اليسرة, بل لا يليق أن يشار إليه إلا من من جهة العُلُوِّ والفوقية, ثم الإشارة هي بحسَب الكون وحدوثه وأسفله، فالإشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة, وتقع على عظمة الرب تعالى كما يليق به, لا كما يقع على الحقيقة المعقولة عندنا في أعلى جزء من الكون؛ فإنها إشارة إلى جسم, وتلك إشارة إلى إثبات.

إذا علم ذلك؛ فالاستواء صفة له كانت في قِدَمه, لكن لم يظهر حكمها إلا عند خلق العرش, كما أن الحساب صفة قديمة له لا يظهر حكمها إلا في الآخرة، وكذلك التجلي في الآخرة لا يظهر حكمه إلا في مَحَله.

فإذا عُلِم ذلك, فالأمر الذي يهرب المتأولون منه, حيث أوَّلوا الفوقية: بفوقية المرتبة, والاستواء, فنحن أشد الناس هربًا من ذلك, وتنزيهًا للبارئ سبحانه وتعالى عن الحد الذي يحصره, فلا يحد بحد يحصره, بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته. والإشارة إلى الجهة إنما هو بحسَب الكون وأسفله, إذ لا يمكن الإشارة إليه هكذا.

وهو في قدمه سبحانه مُنزَّه عن صفات الحدوث, وليس في القدم فوقية ولا تحتية, وإن من هو محصور في التحت, لا يمكنه معرفة بارئه إلا من فوقه, فتقع الإشارة إلى العرش حقيقة إشارة معقولة, وتنتهي الجهات عند العرش, ويبقى ما وراءه لا يدركه العقل, ولا يكيِّفه الوهم, فتقع الإشارة عليه كما يليق به مجملًا مثبتًا, لا مكيفًا ولا ممثلًا.

وجه آخر من البيان: هو أن الرب سبحانه ثابت الوجود, ثابت الذات, له ذات مقدسة متميزة عن مخلوقاته, يتجلَّى يوم القيامة للأبصار, ويحاسب العالم فلا يجهل ثبوت ذاته وتمييزها عن مخلوقاته, فإذا ثبت ذلك, فقد أوجد الأكوان في محَلٍّ وحيِّز, وهو سبحانه في قدمه مُنزَّه عن المحل والحيز, فيستحيل شرعًا وعقلًا عند حدوث العالم أن يحل فيه, أو يختلط به؛ لأن القديم لا يحل في الحادث, وليس هو محلًا للحوادث, فلزم أن يكون بائنًا عنه, وإذا كان بائنًا عنه, فيستحيل أن يكون العالم في جهة الفوق, وأن يكون الرب سبحانه في جهة التحت.

هذا محال شرعًا وعقلًا, فيلزم أن يكون فوقه بالفوقية اللائقة به التي لا تكيف ولا تمثَّل, بل تُعلم من حيث الجملة والثبوت, لا من حيث التمثيل والتكييف.

وقد سبق الكلام في أن الإشارة إلى الجهة إنما هو باعتبارنا؛ لأنا في محل وحيِّز وحدٍّ, والقِدَم لا فوق فيه ولا جهة, ولا بد من معرفة المُوجد, وقد ثبت بينونته عن مخلوقاته, واستحالة علوها عليه, فلا يمكن معرفته, والإشارة بالدعاء إليه، إلا من جهة الفوق؛ لأنها أنسب الجهات إليه, وهو غير محصور فيها, بل هو كما كان في

أزليته وقدمه, فإذا أراد المحدث أن يشير إلى القديم فلا يمكنه ذلك إلا بالإشارة إلى الجهة الفوقية؛ لأن المشير في محل له فوق وتحت, والمشار إليه قديم باعتبار قدمه, لا فوق هناك ولا تحت, وباعتبار حدوثنا وتسفُّلِنا هو فوقنا.

فإذا أشرنا إليه تقع الإشارة عليه كما يليق به, لا كما نتوهمه في الفوقية المنسوبة إلى الإجسام, لكنَّا نعلمها من جهة الإجمال والثبوت لا جهة التمثيل, والله الموفق للصواب.

ومن عرف هيئة العالم, ومراكزه من علم الهيئة[1], وأنه ليس له إلا جهات العلو والسُّفْل, ثم اعتقد بينونية خالقه عن العالم, فمن لوازم البينونة أن يكون فوقه؛ لأن جميع جهات العالم فوق, وليس إلا المراكز، وهو الوسط.

لا حاجة إلى التحريف ولا إلى الوقوف:

إذا علمنا ذلك واعتقدناه, تخلصنا من شبهة التأويل, وعماوة التعطيل, وحماقة التشبيه والتمثيل, وأثبتنا علو ربنا, وفوقيتَه واستواءَه على عرشه, كما يليق بجلاله وعظمته, والحق واضح في ذلك, والصدر ينشرح له.

فإن التحريف تأباه العقول الصحيحة, مثل تأويل الاستواء: بالاستيلاء وغيره, والوقوف في ذلك جهل وعِيٌّ, مع أن الرب سبحانه وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها, فوقوفنا عن إثباتها ونفيها, عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياه, فما وصف لنا نفسه بها إلا لنثبت ما وصف به نفسه, ولا نقف في ذلك.

وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة, فمن وفَّقه الله للإثبات بلا تحريف, ولا تكييف, ولا وقوف, فقد وقع على الأمر المطلوب منه, إن شاء الله تعالى)[2].

وتفسير العلو والفوقية لله تعالى بهذه الصفة: لا يثبت أيَّ تحيُّز للرب جل جلاله, وهو الذي يفر منه المؤولون؛ لأن التحيُّز من خصائص المادة والجسمية، وعلماء الفيزياء يُعَرِّفون المادة بقولهم: هي كل ما يحتاج إلى فراغ يشغله. وبهذا يلتقي دعاة الإثبات ودعاة التأويل على بساط واحد, أو على كلمة سواء.

---

[1] وهو المعروف الآن بعلم الفلك.

[2] النصيحة للواسطي ص 18-22 طبعة المكتب الإسلامي.

وبهذا التحقيق نكون مع السلف في موقفهم ولا نخالفهم أو نحيد عن منهجهم.

2- العظيم:

العظيم من أسمائه تعالى الحسنى, التي جاء ذكرها في القرآن الكريم, في السنة النبوية, وانعقد عليها إجماع الأمة, وامتلأت بذكرها المساجد, وعمرت بها البيوت, وسبحت بها الألسنة.

وقد ختمت بها آية الكرسي, حيث قال تعالى: **{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}** [البقرة:255].

وهو من الأسماء التي تجري على الخلق, كما وصف القرآن عرش ملكة سبأ, على لسان هدهد سليمان حين قال: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}** [النمل:23]. كما وصف الله به أعظم مخلوقاته, وهو العرش الذي استوى عليه جل جلاله، كما قال: **{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}** [المؤمنون:86]. كما وصف بالكريم أيضًا في نفس السورة: **{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}** [المؤمنون:116]. فوصف هذا الخلق باسمين من أسمائه تعالى، وبهما وصف الله القرآن، بالعظيم والكريم, فقال: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}** [الحجر:87]. وقال: **{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}** [الواقعة:77].

وقد ورد في السنة فقد (روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم, لا إله إلا الله رب العرش العظيم, لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض, ورب العرش الكريم"[1]...

فالعظيم يطلق لمعنيين:

أحدهما: عظم الأجسام وكثرة أجرامها.

---

[1] أخرجه البخاري في الدعوات (6346,6345), ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (83/2730), والترمذي في الدعوات (3435), والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (10488), وأحمد في المسند 254,228/1, والطبراني في الكبير (10772), وأبو يعلى في مسنده (2541), وغيرهم.

والثاني: بمعنى العلو والقَدْر ورفع المنزلة.

فيستعمل للمحسوس والمعقول. تقول العرب: مَنْ عظيمُ بني فلان اليوم؟ أي من له العظمة والرياسة منهم. وفيه قوله تعالى: **{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}** [الزخرف:31]. أي رئيس, ولم يريدوا به عظم الخلقة. وفي القرآن: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}** [النمل:23]. أي رفيع جليل.

وقال تعالى في حق نفسه: **{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}** [البقرة:255]. أي الرفيع, والفعل منه: عَظُم- بفتح الفاء وضم العين- والمستقبل يعظُم فهو عظيم في اسم الفاعل, مثل: كرم يكرم فهو كريم. ولا يُشعر بإضافة ولا بشَبَه ولا تعلُّق, وإنما هو وصف ذاتي في المحدثات، وعظمُها: كثرة أجزائها, وتراكم أجرامها, وتعدد أحيائها وأقطارها.

وذلك دليل حدوثها وافتقارها. وعِظَمُ خالقها: عبارةٌ عن: كماله، وجلاله، ودوام بقائه وقدمه أولًا وآخرًا, فهو من صفات الذات (كالعلي), وقد تكون من صفات الأفعال مضافًا إلى من عظم ذاته جلالة وقدرًا؛ كالأنبياء والأولياء والعلماء والشهداء.

ومن عظم حجمًا واتساعًا كالعرش والكرسي والسماوات، قال الله تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}** [الذاريات:47].

وقد يكون العظيم أيضًا في وصفه بمعنى: المعظَّم. فيكون وصفًا ذاتيًّا له. بمعنى ثنائه على نفسه، وثناء المُثنِين عليه من خلقه، المعظمين له بواجب حقه، فهو المعظَّم والعظيم حقًّا، والعظمة والعِظَم صفة له, والإعظام والتعظيم حال المعظِّم له, يصيبه عند مشاهدته معاني الجلال والعلاء، والعظمة والجلال, فيحل قلبه إكبارًا له وإجلالًا ومهابة.

فالعظيم إذَن هو: المهيب المهول الهائل؛ لأنه المتناهي في الشرف والسؤدُد. وصفته التي هي العظمة تبدو فيما أوجده من عظائم مخلوقاته؛ كإيجاد السماوات العُلى, والأَرَضين السفلى, وما بين ذلك إلى تحت الثرى, ثم إلى المنتهى علوًّا وسفلًا.

قال الحليمي في معنى العظيم: إنه الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق؛ لأن عظيم القوم, إنما يكون مالك أمورهم, الذي لا يقدرون على مقاومته، ولا مخالفة أمره,

إلا أنـه– وإن كـان كـذلك– فقد يلحقـه العجـز بآفـات تـدخل عليـه فيمـا بيـده, فتوهنـه وتضـعفه حتـى يُسـتطاع مقاومتُـه, بـل قهرُه وإبطالـه، والله جل ثنـاؤه: قـادر لا يعجـزه شـيء, ولا يمكن أن يُعصى كُرْهًا, أو يخالف أمره قهرًا, فهو العظيم إذًا حقًّا وصدقًا, وكان هذا الاسم لمن دونه مجازًا.

وقـال الخطـابي: العظـيم هـو ذو العظمـة والجـلال، ومعنـاه ينصـرف إلـى عِظَـم الشأن, وجلالة القدر, دون العِظَم الذي هو نعوت الأجسام.

قـال ابـن الحصـار: والأجسـام وإن عظمـت أقـدارها, وتباعـدت أقطارهـا, فخالقهـا سبحانه محيط بها, **{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** [البقـرة:255]. وعرشـه محـيط بـالجميع, والله محـيط بهـذا كلـه, قـال الله العظـيم: **{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا}** [النساء:126]. وإذا وصفت الأجسام والأجرام بالعظم لفخامتها واتساعها, فالمحيط بها أولى بهذا الوصف. وفي التنزيل: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** [الزمر:67].

فأخبر سبحانه أن الأجسام العظام في قبضته, ونزه نفسه عن تنزيل ذلك على المعتاد بقوله: **{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}** [البقرة:255, الشورى: 4]. وعلى مثل ذلك إحاطته سبحانه بجميع مخلوقاته وبعرشه وكرسيه, فهو المحيط بكل عظيم المقدار, متباعد الأقطار.

ثم قد يظهر اسمه العظيم جلَّ جلاله في أفعال يحدثها, وأحكام في هذه الجملة يظهرها, كتجليه للجبل فصار دكًّا من جلاله وما شاهده من عظمته(1).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يسجدان لموت أحد ولا لحياته"(2). ولكن إذا تجلى الله لشيء من مخلوقات خضع له.

---

[1] يقول الله تعالى : {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا} [الأعراف:143].

[2] أخرجه البخاري في الكسوف (1046,1044), ومسلم في الكسوف (6/901), وأبو داود في الصلاة (1177), والنسائي في الكسوف (1469), وأحمد في المسند (76/6), وابن خزيمة في صحيحه (1383) من حديث عائشة.

وأخرجه مسلم في الكسوف (10/904), وأبو داود في الصلاة (1178), وأحمد في المسند (317/3), وابن خزيمة في صحيحه (1386), من حديث جابر بن عبد الله.

وفي ا لباب عن ابن عباس, وأسماء, والنعمان بن بشير وغيرهم.

ثم من المخلوقات من يَعظُم بنفاسة الذات وشرف الصفات, وهم الأنبياء والأوياء على ما تفضل به عليهم ربهم ووهبهم, وأنفَسُهم ذاتًا وأشرفُهم صفةً محمد صلى الله عليه وسلم... لكن كل عظيم يُفرض لغير الله فهو ناقص, وليس بعظيم مطلق؛ لأنه إنما يظهر بالإضافة إلى شيء دون شيء سوى عظمة الله تعالى, فإنه العظيم المطلق لا بطريق الإضافة.

فيجب على كل مكلف أن يعلم وجوب العظمة لله وأن يتواضع لعظمته, كما يجب عليه أن يخضع لعزته. وفي (صحيح مسلم): أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها, منهبِطًا من السماء سادًّا عظمُ خلقِه ما بين السماء إلى الأرض, له ستمائة جناح[1]....

فهذا عبد من عباده، فما ظنك بخالقه العظيم، رب العرش العظيم؟! فلذلك فاعبده كما أمرتَ ولا تطغَ, وميِّزْ صفاته العُلى من صفاتِك الحقيرة, فصفاتُه العظمةُ والعَلَاء والألوهية والكبرياء, كما أخبر عن نفسه جل وعز: "الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمتُه"[2].

فاقتضى هذا تحريم التغاضي عن كل من سواه, ولزوم هذه الأوصاف للخالق الإله, فعظِّم قدرَه جلَّ ذكرُه, وعظِّم أسماءَه وصفاتِه, فلا تذكره عند لَهْوِك ولعبك وأباطيلك, إلا ذكر تعظيمٍ لشأنه, وتوقيرٍ لمقامه, وهيبةٍ له, حتى ينهاك ذكره عن الفحشاء والمنكر.

وكذلك عظِّم كتبَه وعظِّم رسلَه وملائكته وأولياءَه, وعظِّم المؤمنين, وعظِّم حرماتِه, وعظِّم مناسكَه ومشاعره وشعائره, وكلَّ ما عظَّمه **{وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}** [الحج:32].

واعمل في ذلك كله بما يرضي العظيم الحق جل وعز، وقدِّم من ذلك كله ما قدَّمه، وأخِّر منه ما أخَّره، وعظِّم حدودَه أن تتعداها **{وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [البقرة:299].

---

[1] ضعيف : أخرجه مسلم في الإيمان (174/280-282), والبخاري في بدء الخلق (3232), والترمذي في تفسير القرآن (3277), والنسائي في الكبرى في التفسير (11534), وأحمد في المسند 407,395/1, من حديث ابن مسعود.

[2] أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (136/2620), وأبو داود في اللباس (4090), وابن ماجه في الزهد (4174), وأحمد في المسند 414,376,248/2, وابن حبان في صحيحه (5671) من حديث أبي هريرة بلفظ : "العز إزاره, والكبرياء رداؤه, فمن ينازعني عذبته" لفظ مسلم.

وكـذلك فحقِّـر مـا حقَّـر الله, وتعـاظم علـى أعدائـه ومشـاقِّيه علـى السـبيل التـي يرضاها, وقابلْ كلًّا على قدْرِ جُرْمه وخروجه عن الهدى، واتباعِه مسلك الرَّدَى, تكن بذلك من حزبه وأوليائه.

وقال عليه السلام: "البغض في الله والحب في الله من أوثق عرى الإيمان"[1].

---

[1] صحيح لشواهده : أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (747), وابن أبي شيبة في المصنف 172,171/6 من حديث البراء بن عازب.
وأخرجه أبو داود في السنة (4681), من حديث أبي أمامة, وقد تقدم.